أمواج أكما



الكتــــاب: أمواج أكما

المــؤلـــف: عمرو عبد الحميد

تنسيق داخلي: سمر محمد

تدقيق لغـوي: عمر جوبا

رسـوم داخلية: يوسف المكاوي

الطبعة الأولـى: يناير 2020

رقم الإيـــداع: 2020/1637

I. S. B. N: 978-977-992-087-0

المدير العام: محمد شوقي

مدير النشر: علي حمدي

مدير التوزيع: عمر عباس

00201150636428

لمراسلة الدار Email: P.bookjuice@yahoo.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر الكاتب ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

عصير الكتب للنشر والتوزيع



د. عمرو عبد الحميد



إهداء

إلى الرجل الذي لا سقف لطموحه

محمد شوقي

مؤسس عصير الكتب

(١)

زهير

لم يستغرق الأمر كثيرًا من الوقت بعد رحيل الطبيب السجين مع النسالى الزائرين لتهدأ الأجواء إلى حد السكون، ومع توقف المطر عن هطوله استجمعت قواي الخائرة، ونهضت من رقدتي بالزنزانة، وخطوت في حذر شديد إلى الرواق الممتد أمامها، لأكمل طريقي بقلبٍ مضطرب إلى الباب الرئيسي لذلك الطابق من الزنازين أتفادى بقدمي جثث الجنود التي تناثرت في كل الممرات غارقة في دمائها، إلى أن وصلت سلم السجن، وهناك وجدت مزيدًا من الجثث تتناثر على درجاته السفلية، فخشيت أن أكمل طريقي إلى أسفل، وصعدت في حذر إلى أعلى تجاه السطح الذي كنت أعتليه أثناء مراسم يوم الغفران، لأجد كل الجنود الذين كانوا يرقدون بأسلحتهم من أجل اقتناص النسالى بالباحة قد قُتلوا جميعًا، ومعهم ذلك القائد الذي كلّفه عمي بإشعال الشعلة الكبرى بعد إعدام الرامية، بعدها وقفت على حافة السطح المواجهة لباحة جويدا وألقيت نظرة إليها، لأرى أرضها قد اكتظت بجثث أشراف چارتين وجرحاهم على امتداد مساحتها، فيما اختفى جميع النسالى سواءً كانوا عاديين أو زائرين.

ركضت إلى الحواف الأخرى وتفحصت بعيني الشوارع المجاورة للسجن، كانت جميعها خاوية إلا من بعض الجرحى الذين عجزوا عن مواصلة الفرار بعيدًا وقبعوا في أماكنهم يتأوهون في انتظار نجدة قد تأتيهم .. ثم تأكدت من عدم وجود أي نسلي بالأسفل، فهبطت السلم راكضًا بأقصى سرعة لي، لأغادر ذلك السجن إلى الشارع المؤدي إلى بيتنا، وبعدها لم تتوقف ساقاي عن الركض إلى أن وصلت بابه، لتتلقاني أمي غير مصدقة بعدما ظنت لوهلة أنها قد فقدتني، سألتها على الفور:

- أين أبي؟!

قالت في توتر وهي تتفحص جسدي بحثًا عن أي إصابة بي:

- لم يعد بعد، قال أحد الجيران بأنه قد رآه على مقربة من دار الأمن قبل قليل مع عمك كيوان.

قلت:

- نعم لقد غادر في البداية.

قالت أمي في خوف شديد:

- هل ما سمعنا به يصل إلى ذلك الحد الكارثي أم أن الناس يهوّلون الأمور؟!

نظرت إليها وإلى أخويّ اللذين وقفا يترقبان حديثي، وأومأت برأسي إيجابًا وقلت:

- لابد أن نغادر جويدا في أسرع وقت.

فهزت رأسها إيجابًا في توتر، وقالت:

- سنفعل، ولكن علينا أن ننتظر حتى يعود أبوك.

حزمنا أمتعتنا جميعًا، وحزمت أمي أمتعة أبي، وبقينا في انتظار عودته بفارغ الصبر من أجل الرحيل إلى بريحا والبقاء هناك في مأمن بعيدًا عن النسالى وعن جويدا التي صارت غير آمنة بالمرة، لكن عودته قد تأخرت كثيرًا تلك الليلة، فتركت أمي وأخوي ودخلت إلى غرفتي.

كان السكون في ذلك الوقت بالخارج قاتلًا، جلست خلف نافذتي المواربة أنظر إلى الشارع الخاوي أمامي وأتطلع إلى السماء في إنصات شديد محاولًا تبيُّن أي صوت للطبول أو أصوات زئير جديدة قد تأتي معها هجمة أخرى من هجمات النسالى المتوحشين، ثم أجفل جسدي حين ظهر صوتٌ مفاجئ في الشارع أمامي، لكنني هدأت حين وجدتها عربةً خشبية تحمل إحدى الأسر التي بدت وكأنها اتخذت قرارها بالرحيل عن المدينة قبل طلوع الفجر، ومن بعدها تكرر ذلك الأمر مرات عديدة. وجدت أخي يدلف إليّ ويعطيني سلاحًا ناريًا كنت أعرف أنه من أسلحة أبي، وقال وهو يحشو سلاحًا آخر لنفسه بطلقاتٍ من البارود الحيّ:

- ربما يكون ذا فائدة إن أتوا من جديد.

فهززت رأسي نافيًا، وقلت في يأس:

- لن يفيد ذلك شيئًا، لقد رأيت بعيني كيف تتحمل أجسادهم العديد من الطلقات النارية، كذلك رأيت سرعة الانقضاض التي يمتازون بها.

سألتني أختي التي كانت تقف خلف أخي مرتعبة الجسد:

- هل يأكلون قتلاهم؟!

قلت وأنا أنظر إلي عربةٍ جديدة تحمل بعض الأفراد وتعبر الشارع من أمام بيتنا:

– إنهم يقتلون فحسب، تركوا وراءهم العديد من الجثث.

سألني كرم:

– لماذا انسحبوا إذن طالما لم تستطع الأسلحة الخفيفة فعل شيء معهم؟!

قلت:

– لا أعلم، إنهم يدركون ما يفعلونه، لقد رأيتهم يحمون الرامية من طلقات الجنود ويحررون النسالى المحتجزين، كما حرّروا شخصًا غريبًا كان محتجزًا بإحدى الزنازين ورحبوا به، قال ذلك الشخص بأن أخبر عمي بأن عهد القواعد قد ولّى، ربما انسحبوا لينظموا صفوفهم استعدادًا لهجمة أكثر شراسة يستطيعون معها القضاء علينا جميعًا.

قالت أختي في تذمر كبير:

– لماذا تأخر أبي كل هذا الوقت؟ علينا أن نغادر.

قلت:

– لا بد أنه يفكر مع عمي فيما سيحدث بالأيام القادمة خاصةً مع بقاء مدافعه في الجنوب دون القدرة على استعادتها.

ثم رأيت عبر النافذة أحد الفرسان يقترب بحصانه من بيتنا، ولم تمر بضعة دقائق حتى وجدت بابنا يُطرق، فأسرعت أنا وأخواي إلى الردهة عندما فتحت أمي الباب، فقال ذلك الفارس بأن أبي من أرسله إلينا بغية الاطمئنان على سلامتنا جميعًا وإخبارنا بأنه سيتغيب لبعض الأيام بعدما عُيّن مستشارًا حربيًا للقائد كيوان، وهمَّ الفارس بالمغادرة، فومض في

عقلي في ذلك الأوان النقاش الذي دار بيني وبين مساعد عمي الذي قُتل على سطح السجن بشأن صديقي آدم، وعن استحالة كونه حفيد العجوز خشيب، واهتمام ذلك القائد بإبلاغ عمي عن ذلك الأمر على الفور دون انتظار الانتهاء من يوم الغفران، فصمتّ للحظة قبل أن أنطق إلى أمي:

- أريد أن أرى أبي وعمي.

قالت أمي:

- لم يعد هذا وقتًا للمغامرات.

قلت:

- إننا في حالة حرب الآن يا أمي، وعلى بعد خطوة صغيرة من القتل على يد النسالى.

وصمتّ للحظة أخرى من التردد، ثم قلت وأنا أنظر إلى الفارس:

- إنني أعرف شيئًا قد يفيد أبي وعمي في هذا التوقيت.

نظرت إليّ مستغربة فيما نظر إليّ الفارس مترقبًا، فتابعت:

- عليّ أن أخبرهما بشيء يخص صديقي آدم.



(٢)

غُفران

أخذ عقلي بعضًا من الوقت ليستوعب أن ما كان يحدث في الباحة أمام عيني بعد صعودي إلى المنصة ليس حلمًا أغوص في أعماقه بين جدران زنزانتي.

مع منتصف يوم الغفران تم اقتيادي مُكبّلة اليدين والقدمين إلى أعلى المنصة وكلّي يقين أن سبيل التي أعرف شخصيتها جيدًا لن تقوى على فعلها، وأن كيوان المجنون لن يتوانى عن قتل كل نسلي بعد إعدامي كما توعّدني في ذلك اليوم الذي زارني به في السجن.

حين أوقفني الجنديان بمنتصف المنصة نظرت لثوانٍ في يأس إلى النسالى المُجمّعين في الجانب الجنوبي الشرقي من الباحة، ثم أغمضت عيني عندما بدأ القاضي الكبير في إلقاء التهم الموجّهة لي دون أن أشغل بالي بكلمة واحدة مما يقوله، كل ما كنت أفكر فيه هي الأحداث الكثيرة التي مررت بها في حياتي منذ وطأت قدماي الباحة لأول مرة في عمر الثامنة حتى وقوفي على منصتها كمذنبة تنتظر رصاصة النهاية في أي لحظة قادمة.

لكن الأمور جميعها تبدلت حين شبّ ذلك الضجيج المفاجئ في الباحة والذي غطّى على صوت القاضي، لأفتح عيني وأرى النسالى المحاصرين بين صفوف الجنود قد كسروا حصارهم وبدأوا في الركض بجميع أنحاء الباحة بين أشراف چارتين، شعرت بالارتباك الذي أصاب سادة المنصة وعلى رأسهم كبير القضاة الذي توقف عن إكمال كلمته، وانسحب خائفًا ومعه باقي السادة عبر السلم الخلفي للمنصة، نظرت إلى كيوان، نظر في عيني نظرة طويلة لم أفهمها، قبل أن يلتفت إلى اثنين من النسالى حاولا تسلّق المنصة وقتلهما بسلاحه الناري، ثم صاح إلى باقي الجنود والفرسان بأن يقتلوا كل نسلي في الباحة، لكنه لم يكد يكمل كلماته حتى وجدنا ثلاثة من السهام المشتعلة تنطلق في توالٍ من منتصف الباحة إلى سطح سجن جويدا المجاور، لتشتعل شعلته الكبرى، بعدها بلحظات دوى صوت المدافع الرهيب في الجنوب، نظرت إليه في ذهول وأنا لا أصدق أنه قد فعلها فعلًا، وأن مدافعه الكبرى قد بدأت في إبادة وديان النسالى للتو، وكدت أسقط على ركبتي حسرة بعدما شعرت أن ساقيّ لم تعودا تقويان على حملي، لكني نظرت إلى النسالى بالباحة الذين لم يتوقفوا للحظة واحدة عن التوغل بين أشراف چارتين دون أن يستطيع جنود الأشراف استخدام أسلحتهم النارية ضدهم كأنهم خططوا لما يقومون به جيدًا، حتى توقفت المدافع عن ضربتها الأولى لتتسع حدقتا عيني انفعالًا عندما صدعت في الأفق دقات الشامو، نظرت من جديد إلى كل نسلي يركض في الباحة غير مصدقة ما بدأ يخطر في بالي، ثم صدر صوت الزئير الأول من الجهة الغربية من الباحة، فنطقت إلى نفسي في ذهول كبير:

- سبيل!! هل فعلتها حقًا؟!

بعدها صدر الزئير الثاني، ثم الثالث، ثم الرابع، ولم تمر لحظة واحدة بعد ذلك دون سماع زئير جديد وسط صراخ الأشراف المرتعبين الذين بدأوا في الفرار والركض عبر بوابات الباحة وأسوارها المنخفضة غير عابئين بما قد تسببه أطرافها الحديدية المدببة من إصابات بالغة لأجسادهم.

كان كيوان لا يزال يقف أمامي ينظر إلى ما يحدث في الباحة دون أن يحرك ساكنًا وكأنه جُمّد في موضعه، قبل أن يستفيق من جموده ويطلق النار نحو نسلي زائر كان يتسلق جانب المنصة، بعدها نظر في عيني نظرةً أخيرة وهرول بظهره إلى مؤخرة المنصة، ليغادرها دون أن يصوّب سلاحه الناري نحوي، بعدها بدأ وابلٌ من الطلقات النارية يأتي بكثافةٍ من أعلى السجن تجاه الباحة، فرأيت بضعة من النسالى الزائرين يتركون اشتباكهم مع الأشراف ويركضون نحو المنصة. كنت أعلم أنهم قادمون من أجلي، ولو كنت في مكانٍ أو آنٍ آخرين لأصابني الارتعاب منهم، لكن أن تكون على بعد لحظة من الموت ثم يحدث ما حدث فلا مبرر للخوف من شيء على الإطلاق، ووجدت نفسي أركض إلى حافة المنصة تجاههم لأرتمي إلى أحدهم، فاحتواني بين ذراعيه القويين برفق كأنه يعلم تمامًا من أنا، قبل أن يغطيني الباقون بأجسادهم ويتحركوا بي ناحية جنوب الباحة .. نظرت عن قربٍ وقتها إلى هيئة النسالى الزائرين المختلفة من واحدٍ إلى آخر، ورأيت ما يفعلونه بأشراف چارتين المرتعبين وجنودهم الذين ظهروا بلا حول ولا قوة أمام سرعة انقضاضهم، لأدرك لحظتها أن مصير چارتين قد تبدّل في ذلك النهار.

ثم خرجنا عبر البوابة الجنوبية إلى الطريق الرملي المؤدي إلى وادي النسالى، وهناك أنزلني النسلي الزائر برفق بعدما صرنا بعيدين عن

مرمى جنود سطح السجن، ووقف أمامي هو والباقون كأنهم ينتظرون أوامري، كان نسلي زائر منهم ينزف بغزارة، لكنه ظل واقفًا على قدميه غير عابئ بالدماء الكثيرة التي تجمّعت على الرمال من أسفله، إلا أن آخر سقط على الأرض فجأة ليظهر أمامي ظهره الشاحب المُصاب بأكثر من طلقة نارية، وبدأت أنفاسه تهدأ رويدًا رويدًا حتى سكنت تمامًا، هبطت على ركبتي وتحسست رقبته، فأدركت أنه فارق الحياة، فقلت لمن كان يحملني منهم:

- أخبر النسالى الباقين أننا سنعود إلى الجنوب.

فأومأ برأسه إيجابًا قبل أن يلتفت إلى الثلاثة الآخرين ويحرك رأسه بإشارة إليهم، ثم استدار وركض بمفرده إلى الباحة مرة أخرى، فيما التفّ النسالى الثلاثة حولي معطيين ظهورهم لي دون أن يكفّوا عن التلفت يمينًا ويسارًا كأن ذلك الزائر قد كلّفهم بحمايتي قبل رحيله، فكرت في الدماء الكثيرة والقتلى الذين شهدتهم الباحة وكيوان الذي تركني وكان باستطاعته قتلي، ونظرت إلى جثة النسلي الزائر الذي مات قبل قليل متأثرًا بجراحه كذلك النسلي الآخر النازف بين الثلاثة المحيطين بي والذي تزايد شحوبه وهدأت حركته عن الباقين مع مرور الوقت .. كنت أظن حين أخبرنا العجوز عنهم في الكهف أنهم غير قابلين للقتل بالأسلحة النارية، لكني كما رأيت، تتحمل أجسادهم مزيدًا من الطلقات النارية عن البشر لكنهم في النهاية معرضون للموت أيضًا، ولا بد أن كيوان ومساعديه سيدركون هذا الأمر في أقرب وقت.

بعدها بدأ مزيدٌ من النسالى الزائرين ومعهم عشرات من النسالى الذين لم يتحولوا يظهرون في الأفق قادمين من الباحة على خيولٍ كنت لا أحتاج من يخبرني أنها خيول فرسان الأشراف، كأنهم لبّوا أمر

من سألته أن يخبرهم بالعودة إلى الجنوب، وما إن اقتربوا مني حتى اصطفوا أمامي في ثلاثة صفوف منتظمة حاملين في أياديهم الأسلحة النارية التي اغتنموها، وتطلعوا لي في صمت منتظرين ما آمرهم به، لم أكن أعرف ماذا أقول أو أقرر، لكني عندما سمعت صوت نوبة جديدة من دقات الشامو تأتي من الجنوب قلت لهم وأنا أنظر إلى النسلي الزائر النازف الذي خارت قواه وسقط على الأرض مفارقًا الحياة هو الآخر:

- لنعد الآن إلى الوادي.

ثم قلت لشابٍ نسليٍّ غير متحول:

- أخبر الباقين في الباحة والأماكن المحيطة بها بأن يتبعوننا جميعهم إلى الجنوب.

قال:

- حسنًا سيدتي.

ثم أعطاني حصانه، وعاد راكضًا تجاه الباحة على قدميه، فامتطيت الحصان وناديت بصوتي إلى الباقين:

- إلى الجنوب.

لتركض بنا الخيول تجاه الوادي كل ما أفكر فيه أن أمنع ضاربي الطبول بالجنوب من التقدم شمالًا تجنبًا لسقوط المزيد من قتلى الأشراف أو النسالى، ثم ظهر على الطريق اثنان من جنود الأشراف يركضان تجاه جويدا غارقيْن في دمائهما، كان واضحًا أنهما ممن كُلفوا بتصويب المدافع نحو ودياننا، تجمدا في أماكنهما رافعين أياديهما في استسلام حين رآنا، وفي لحظة وجدت أحد الزائرين قد انحرف بحصانه

نحوهما ومالَ بجذعه وضرب بمخلبه رقبة أحدهما فأرداه قتيلًا من ضربة واحدة، فأجفل جسدي مضطربًا، وحين وجدته يستدير بحصانه ليفعل بالآخر ما فعله بالأول صرخت فيه بأن يتركه، ففعل ما أمرته به دون أي اعتراض، لنواصل طريقنا مبتعدين عن ذلك الجندي وعقلي يضج بأسئلته الصاخبة، هل أستطيع حقًا السيطرة على هؤلاء المتحولين؟ إنهم ينصاعون لأوامري كما رأيت لكنهم متعطشون للدماء، وماذا عن باقي النسالى الزائرين الذين يدقّون الطبول في الجنوب؟ هل سينصاعون هم الآخرون لأوامري؟ أم ستغلبهم شهوة الانتقام ليقتلوا كل شريف على أرض چارتين؟ وبدأ داخلي يحمّلني سريعًا مسئولية قتل الجندي المستسلم الذي لقي حتفه قبل قليل، لعلي لو أمرت لحظتها النسلي الزائر بتجنبه لنجا هو الآخر. قابلنا بعض الجنود الفارين الآخرين، كان أحدهم يحمل سلاحًا ناريًا ويصوّبه تجاهنا بأيد مرتعشة في يأس دون أن يطلق النيران، زمجر أحد النسالى من ورائي، فأسرعت بالصراخ في الجميع بأن نواصل طريقنا دون الالتفات إلى أي منهم، ولكزت حصاني بقدمي كي يسرع من ركضه، ففعل الآخرون مثلي، لنكمل طريقنا دون توقف، فلم يُطلق ذلك الجندي أي بارود نحونا، وحين التفت إليه وجدته سقط على ركبتيه لاهثًا كأنه لا يصدّق أنه قد نجا .. ثم ظهر أمامنا دخان كثيف يتصاعد إلى السماء عندما استدار بنا الطريق، وجدناه حين اقتربنا منه صادرًا من أحد المدافع الذي اشتعلت به النيران فيما سقط من حوله سبعة جنود قتلى، أبطأت من سرعة حصاني ودُرت حول عربة ذخيرة المدفع التي كانت تبتعد عن النيران ببضعة أمتار، ونظرت إلى أحد النسالى غير المتحولين وقلت:

- فلتخمدوا هذه النيران بالرمال قبل أن تصل إلى عربة الذخيرة، لم يعد هذا المدفع صالحًا للعمل على أي حال.

ثم واصلت طريقي مع الباقين بعدما تركنا ثلاثة من النسالى أحدهم زائرًا من أجل إخماد تلك النيران وإحضار عربة الذخائر إلي الجنوب، ليظهر مع مضينا أكثر وأكثر مزيدٌ من المدافع المحترقة ومن حولها جثث أطقمها من الجنود، وفي كل مرة كنت أسأل بعضًا ممن معي بأن يبقوا لإخماد نيران تلك المدافع ومن ثم اللحاق بنا بعربات ذخائرها، بعدها انحرفت بحصاني ومعي النسالى لنتخذ طريقًا آخر غير المؤدي إلى وادينا كنت أعرف أنه منبسطٌ ليناسب اصطفاف مدافع كيوان المصوّبة إلى ودياننا بغية أن أجد بعضها غير محترقة لعلها تفيدنا فيما هو قادم، وجدت عشرات منها بالفعل كما توقعت، لكنها لم تختلف عما سبق وأن وجدناه، كانت جميعها محترقة بالطريقة ذاتها وإن قلّ عدد القتلى من حولها هناك، فأدركت أن جنود كيوان هم من قاموا بإحراقها بأنفسهم بعدما أيقنوا بالهزيمة خشية أن تقع في أيدي النسالى.

ثم التفَّ بنا الطريق حول سفح جبل كبير ليؤدي إلى طريق آخر كنت أعرف أنه ينتهي بثاني أكبر وديان النسالى بعد وادينا، لم يخلُ ذلك الطريق هو الآخر من المدافع المتناثرة المشتعلة. وكأن النسالى من حولي قد فهموا اهتمامي الكبير بإحضار الذخائر إلى الجنوب كان العدد من ورائي يتناقص مع مرورنا بكل مدفع اثنين أو ثلاثة منهم، حتى تبقى معي أربعة فقط، اثنان زائران واثنان غير متحولين.

تعجبت أننا على مدار الطريق من الباحة إلى الجنوب لم نقابل نسليًا زائرًا واحدًا غير الذين عادوا معي، لكن تعجبي لم يدم طويلًا عندما

دقت طبول الشامو من جديد، فصحتُ إلى من معي بأن نسرع في اتجاه صوت الطبول، وعرجنا بالأحصنة إلى ممر جبلي مختصر عائدين إلى الطريق الرئيسي المؤدي إلى وادينا لنركض به مرة أخرى، حتى ظهر الوادي في مرمى بصرنا ليدق قلبي مضطربًا بعدما رأيت ألسنة اللهب وأعمدة الدخان يتصاعدان من كافة أركانه، ركضنا نحوه بأقصى سرعة لخيولنا، كان السواد والخراب عنوان كل شيء هناك، دُمّر الوادي وأكواخه عن بكرة أبيهم، أبطأنا من سرعة خيولنا حين دلفنا بين الأكواخ المحترقة، ثم ترجلنا وواصلنا التقدم سيرًا على أقدامنا، كانت ثمة جثث محترقة تتناثر في الطرقات بين الأطلال يظهر وشم النسالى على أكتاف وصدور بعضها ممن لم تحترق أجسادهم بالكامل، زمجر النسليان الزائران معي بقوة، فيما أصابت الصدمة النسليين الآخرين ونحن نواصل سيرنا بين الخراب، قال أحدهما غاضبًا:

- لم يكن علينا ترك شريف واحد حيًا.

لم أنطق وواصلت سيري مشتتة الذهن، كان كوخي قد دُمّر بالكامل هو الآخر فيما تبقى جدارٌ واحد من كوخ التخزين، لم أتوقف عندهما وواصلت تقدمي بين الطرقات أبحث بعيني في كافة الأرجاء عن ناجين أستطيع مساعدتهم، كانت جميعها جثثًا ساكنة محترقة بالكامل أو أجزاء منها.

قلت في نفسي:

- هذا ما أراده كيوان، ضربة مدفعية واحدة دمرت الوادي بأكمله.

دقت الطبول من جديد جنوبًا، فامتطيت حصاني ودون أن أقول شيئًا للآخرين انطلقت به نحو الشارع الرئيسي لوادينا المدمر، فتبعوني

بأحصنتهم، لنعبر إلى الجهة الجنوبية من الوادي حيث الطريق المؤدي إلى الجبال الحمراء، والذي قطعته من قبل مع فاضل وسبيل في رحلتنا إلى كهف العجوز خشيب، لنكمل طريقنا عبره.

كان صوت الطبول وصداه يتزايدان أكثر وأكثر مع ركضنا بالخيول ناحية الجنوب، وكلّما ظننت أننا اقتربنا أخيرًا من مصدر الدقات، وجدت أن هناك مسافة أخرى علينا قطعها، حتى بدأت الجبال الحمراء في الظهور، ومعها تشتت صدى الصوت من حولنا، فسبقني إلى المقدمة أحد النسليين الزائرين بحصانه وزاد من سرعة ركضه إلى السرعة القصوى، فصحت بحصاني كي يلحق به، لنقطع مسافة أخرى ليست بالقليلة بين ممرات تلك الجبال، قبل أن تتسارع دقات قلبي عندما بدأ صوت الطبول يختلط بوضوح مع أصوات الزئير بعدما انحرف بنا النسلي الزائر فجأة إلى ممر جبلي ضيق بين جبلين شاهقين وأبطأ من سرعة حصانه إلى درجة التمشِّي، فأبطأت من سرعة حصاني أنا الأخرى، وتقدمت به في حذر وترقُّب، بعدها كاد قلبي يتوقف من هول المفاجأة عندما انتهى ذلك الممر بسهلٍ واسع جدًا يمتد بين الجبال الشاهقة، يقف به ألوف النسالى متراصِّين بانتظام، يتقدمهم النسالى الزائرون بارزي العضلات والأنياب، يدق بعضهم طبولاً دائرية كبرى يصل قطر الواحدة منها قرابة المترين دون توقف، فيما يقف شبان النسالى غير المتحولين عاري الصدور في صفوف منتظمة خلفهم، تتبعهم النساء والفتيات والأطفال في الصفوف الخلفية.

وجدت النسليين الزائرين المرافقين لي يزأران بقوة، فانتبه الجميع إلينا وتطلعوا برؤوسهم نحوي في آنٍ واحد، دق قلبي مسرعًا من جديد وخاصةً مع إسراع ضاربي الطبول من إيقاعهم، ثم وجدتهم يلتفون في تناغم شديد ليواجهوني بأجسادهم، بعدها توقفت الطبول فجأة، وزأر جميع النسالى من أمامي، ليرتج صدى صوتهم بين الجبال الشاهقة، ثم هبطوا جميعًا على ركباتهم اليمنى كأنهم خضعوا لي، وهبط باقي النسالى غير المتحولين بالصفوف الخلفية مثلهم، لم أدرِ ماذا أفعل أو أقول، كان كل ما يحدث مفاجئًا لي، لم ينجدني من تلك الصدمة إلا ريان الذي تقدم من بين الصفوف، وهبط على ركبته اليمنى أمامي، وقال بنبرة رسمية:

- إن النسالى في انتظار ما ستأمرين به سيدتي.



(٣)

غُفران

نطقتُ في ذهول:

- ريان؟! ماذا حدث؟!!

قال بالنبرة الرسمية ذاتها، وهو ينهض:

- سأخبرك بكل شيء سيدتي.

وأشار بيده كي أتبعه، فتحركت من ورائه تجاه حشد النسالى، ثم اقتربنا من الصف الأول فتحرك على الفور النسليان الزائران المواجهان لنا مبتعدين عن بعضهما ومن خلفهما قام الباقون بفعل الأمر ذاته في تناغم شديد، ليصنعوا لنا ممرًا مستقيمًا تقدمنا عبره إلى داخل الصفوف.

كانت أصوات أنفاس الزائرين الصاخبة تخترق آذاني وأنا أتفقدهم يمينًا ويسارًا دون أن يلتفت لي أحدهم أو يحرك رأسه حتى عن النظر أمامه كأنهم خُلقوا جنودًا يعرفون جيدًا نظام الحياة العسكرية التي درستها لسنوات في مدرسة الضباط العليا، ثم انتهينا من عبور صفوف الزائرين فاستقبلني باقي النسالى غير المتحولين بترحاب شديد متخليين عن انتظامهم بصفوفهم، وخاصةً بعدما احتضنتني الفتيات والنساء

وأطلقن زغاريدهن فرحةً بعودتي إليهن سالمة، قبل أن يسألني ريان أن نكمل طريقنا، فواصلت السير خلفه نحو الصفوف الخلفية، حتي أبصرت خيمة كبيرة وراء تلك الصفوف يقف على بابها اثنان من الزائرين كان ريان يقودني نحوها، ثم قال لي حين وصلنا إليها وعبرنا بابها:

- شيّدنا هذه الخيمة من أجلك سيدتي، ليس عليكِ سوى أن تستريحي الآن، نعلم ما مررتِ به في الفترة الماضية.

وهمَّ ليغادر وهو يقول:

- سنكمل حديثنا بمجرد أن تنالي قسطًا وافرًا من الراحة.

ألقيت نظرة خاطفة إلى داخل الخيمة، كانت منقسمة بستارٍ قماشيّ إلى غرفتين، احتوت الغرفة التي وقفنا فيها على بعض المقاعد القشية التي تراصت في إطار دائري حول أرضية مفروشة بسجاد فتياتنا، وكان واضحًا أن الغرفة الأخرى للنوم، ثم قلت لريان بنبرة جادة للغاية:

- ماذا حدث يا ريان؟! ومن خطّط لكل ذلك؟

قال:

- لقد فعلتها سبيل.

سألته على الفور:

- أين هي؟

قال:

- لم تظهر إلى الآن، لكني قابلتها قبل شهر تقريبًا وحدثتها عمّا نحن بصدد فعله إن قرر كيوان إعدامك وقتل النسالى.

سألته في دهشة كبيرة:

- هل كنت تعرف بأمر سبيل وطفلها؟!

قال:

- نعم سيدتي، لقد أخبرني الطبيب بكل شيء قبل ست سنوات.

وسكت للحظة، ثم تابع :

- بعد عودتكم بيوم واحد من زيارة الكهف مع العجوز.

قلت في تعجب:

- فاضل!!

قال:

- نعم، كان يرى أنه من حقنا كنسالى أن نعرف عن ذلك الأمر.

وأردف:

- كان الطبيب يحترم وجهة نظرك وقتها بالطبع، لكنه كان في الوقت ذاته يتوقع حدوث ذلك جميعه في أي يوم من الأيام، أخبرني بكل شيءٍ حدثكم به العجوز وجعلني أعاهده بأن يظل هذا السر بيننا طالما لم يؤذكِ كيوان أو يشرع في إبادة النسالى.

وتابع بعدما جلس على أحد المقاعد الخشبية في الخيمة:

- هو من بنى تلك الخطة التي حدثت في الباحة اليوم بعدما سهر لأيام على إعدادها قبيل مغادرته وادينا، قال لي وقتها وهو يخبرني بتفاصيلها الكثيرة أنه بني جزءًا كبيرًا منها على غرور كيوان الذي سيلازمه حتى الموت، في الحقيقة لا أعرف كيف توقّع أن يقوم كيوان بتجميع النسالى في الباحة كي يقتلهم أمام أشراف چارتين، لكن هذا ما حدث بالفعل.

قال لي يومها أيضًا أنه يعرف سبيل جيدًا ويعرف أنه إن صار الأمر بيدها بين بقاء الأشراف أو بقاء أهلها القدامى من النسالى وعلى رأسهم أنتِ سيدتي ستختار النسالى وإن كان على حساب طفلها الذي ستدرك مع الوقت أن الأشراف لن يدعوه حيًا في كافة الأحوال، كذلك كان يوقن للغاية أن النسالى لن يتأخروا عن إنقاذك سيدتي إن امتلكوا القوة لذلك، حتى وإن تخلّوا عنكِ في الفترات الأخيرة التي عاشها بيننا في الوادي.

تلك السهام التي انطلقت إلى الشعلة لتكون إشارةً إلى سبيل كانت فكرته، والزيوت التي غطى بها النسالى أجسادهم من أجل الإفلات من الجنود في الباحة كانت فكرته أيضًا.

وابتسم وهو يقول:

- ساعدنا الأشراف بغير قصد عندما طاردوا في الأعوام الأخيرة من عبر عمره الخامسة والعشرين من شبان النسالى بعدما اجتمع المئات منّا في الوديان المظلمة ننتظر الفرصة التي ننتقم فيها من الأشراف، لكني بقيت على عهدي إلى الطبيب بأن يظل ما أخبرني به سرًا طالما لم يؤذِكِ كيوان أو يصبح النسالى جميعهم في خطرٍ محدق منه، ثم حدث أمر اعتقالك فعلمت أن الوقت قد حان لإخبارهم بما تحمله أجساد بعضهم على مر قرون طويلة دون علمهم، لم يصدقوني بالطبع، فتركت أمرهم مؤقتًا وبدأت في البحث عن سبيل بعدما عرفت بمغادرتها جويدا كي أخبرها بما خطط له الطبيب قبل سنوات، توقعت أنها قامت بزيارتك قبل اختفائها، لكني لم أتأكد من ذلك بعدما تم اعتقالك وكذلك اعتقال ناردين التي أُعدمت في يوم الغفران التالي لاعتقالها.

عضضتُ على شفتي في حزن ومسحت دموعي التي سقطت على الفور حين أخبرني بإعدام ناردين بينما كان يتابع حديثه:

- استغرق مني البحث عن سبيل شهرين كاملين كي أجدها، وكدت أفقد الأمل في إيجادها أو الوصول إليها قبل أن يصل إليها جنود كيوان الذين انتشروا بالوديان بحثًا عنها لولا أني عثرت عليها في النهاية قبل شهر واحد من اليوم بعدما دلتني إليها إحدى فتيات الوديان الغربية كانت يومًا ما بين المتعلمات في مدرستنا.

حين قابلت سبيل أدركت مدى عزمها على عقاب كيوان والأشراف إن قاموا بإيذائك أو عزموا على التخلص من النسالى، فحدثتها بما حدثني به الطبيب قبل سنوات، وأخبرتها بأمر شعلة سجن جويدا، لم تكن في حاجة إلى معرفة أن مصيرك سيدتي ومصير النسالى بات بين يديها حقًا، ثم تركتها وعدت إلى شبان النسالى المطاردين معي في الوديان المظلمة وحدثتهم من جديد عمّا ينوي كيوان فعله وعمّا نستطيع فعله بما تملكه أجسادنا حين تقوم سبيل بإثارة تلك الأرواح، لم يصدقوني مرة أخرى، وظنوا أن الجنون قد أصابني وأن ادعائي ذلك بسبب حبي لكِ ورغبتي في التضحية بهم في سبيل إنقاذكِ.

لكن مع اصطفاف مدافع كيوان في الأيام الأخيرة وتصويب فوهاتها نحو ودياننا لم يكن الأمر يحتاج إلى دليل أكثر من ذلك بشأن نية كيوان تجاهنا، ولم يعد أمامهم سوى أن يكونوا في صفي بعدما أدركوا أنه ليس بعد الموت شيء، ووجدتهم يسألونني في خوف عمّا يجب فعله وعمّا إن كانت سبيل ستفعلها حقًا من أجلهم، وقتها دار في عقلي سؤالي إلى سبيل حين لاقيتها: «هل ستفعلينها؟» وكانت

إجابتها لي واضحة؛ «لن أتركه ينجو بفعلته».

حين شرع جنود كيوان في اعتقال شبان النسالى وإجبارهم على التواجد في الباحة اليوم انسلّ العشرات مِنَّا ليتم اعتقالهم عن عمدٍ من أجل التواجد في الباحة، فيما تسلّل الباقون منا إلى الوديان من أجل تهريب باقي النسالى للاحتماء بالجبال الحمراء قبل دك المدافع لنا، لم نعلم الوقت المحدد لضربتهم المدفعية لكننا كنا نأمل أن نقوم بخطتنا جميعها قبل أن يموت منّا نسلي واحد.

وأضاف بنبرة يشوبها الحزن:

– إلا أن عشرات النسالى قد ماتوا بالفعل قبل أن يتركوا الوديان، كان أكثرهم لا يصدقون بأن يقوم الأشراف بفعلتهم الشنيعة حقًا.

تذكرت الجثث المحترقة أسفل حطام وادي النسالى، قبل أن يكمل بعين لامعة في حماس:

– لا أخفي أن التشكك والخوف كانا يعبثان بنفوسنا، ليس فقط لأننا وضعنا العشرات منَّا في مواجهة الموت المباشر بالباحة بناءً على ما قد تفعله سبيل، لكننا لم نكن نعرف كذلك ماذا سيفعل بنا أصحاب تلك الأرواح إن ثارت أرواحهم حقًا ونحن بجوارهم، إلا أنني كنت أمتلك قدرًا ضئيلًا من الثقة معتمدًا على عدم إيذاء سيدي نديم لي وقتما كانت تثور روحه في طفولتي، وبالفعل هذا ما فعله من ثارت أرواحهم اليوم، حين تحوّلوا بجانبنا أدركنا من الوهلة الأولى أننا في الجانب نفسه.

وانفرجت أساريره وهو يقول:

- كانت مفاجأتنا لجنود كيوان عظيمة، لم يستطيعوا مجاراة سرعة انقضاض الزائرين الذين فتكوا بهم في دقائق، ولولا أنهم أسرعوا بإحراق مدافعهم بأنفسهم لكنا قد حصلنا على تلك المدافع.

هززتُ رأسي بعدما كان ذلك موافقًا لتوقعي عندما مررت بالمدافع المحترقة، فتابع بالفرحة ذاتها:

- ثم وجدتهم يستجيبون لأوامري كأنهم قد نصّبوني قائدًا لهم فأدركت أنهم سيفعلون الأمر ذاته معكِ، إنهم يدينون بالكثير لكِ ويعرفون ما فعلتِه معهم، وإن كان هناك شخص يستحق أن يكون قائدهم فلن يكون إلا سواكِ، إن عددهم كثير وأعتقد أنك رأيتِ ما حدث منهم في الباخة، وهم على استعداد أن يفعلوا ما تأمرين به سيدتي.

وسكت في انتظار أي قول مني، فقلت:

- هل ظهر آدم؟

زمّ شفتيه مفكرًا، ثم قال:

- لم أره من قبل، لن أعرفه حتى وإن كان بينهم.

قلت:

- هل نستطيع معرفة أصحاب أرواح نمور الشامو؟

قال:

- ربما، لكني لست متأكدًا من ذلك إلى الآن، كان بعض الزائرين يتمتعون بحس واضح للقيادة، رأيت ذلك جليًا ونحن نهاجم جنود كيوان، كذلكً قاد أحدهم جماعةً منهم من تلقاء نفسه واغتنم

حمولة كاملة من الغلال كانت في طريقها إلى مخازن جويدا الجنوبية وعاد بها إلى السهل قبل وصولك بقليل، أعتقد أنه واحد منهم.

كدت أنطق لولا أن زئير النسليين بالخارج قد تعالى فجأة، فصمتُّ في ترقب، ثم وجدت باب الخيمة القماشي يُرفع ليظهر أمامنا أحد النسالى الزائرين ومن خلفه ظهر بشعره الطويل ولحيته الطويلة ووجهه الذي صار أنحف كثيرًا مما كان عليه قبل سنوات، وقبل أن أنطق ذاهلةً سبقني إليه ريان غير مصدق:

- الطبيب؟!!

ابتسم كعادته والدموع تملأ عينيه، وأومأ برأسه إيجابًا.

لم أستطع منع دموعي من التساقط وأنا أحتضن فاضل بقوة بين ذراعيّ، كذلك أطال ريان احتضانه غير مصدّق أنه يقف أمام أعيننا حقًا، وسأله متعجبًا من هيئته الغريبة:

- ماذا حدث سيدي؟! وكيف استطعت العودة إلى چارتين اليوم؟!

أجابه فاضل هادئًا:

- إنني لم أغادر چارتين قط.

نظرنا إليه في ذهول، فأكمل:

- لقد غيّر كيوان رأيه بشأن رحيلي قبل ستة أعوام، وقبل أن تبحر بي السفينة إلى الشمال كان الجنود قد اعتقلوني واقتادوني إلى سجن جويدا لأقبع بين جدرانه طيلة تلك السنوات.

اتسعت حدقات عيوننا مما يقوله، فتابع:

– توقعت وقتها أن يقوم بإعدامي في أي يوم من أيام الغفران التالية لاعتقالي، لكنّ مرتِ الأيام والشهور والسنوات دون أن يقوم بالأمر وكأنه تركني لأُنسى بين ظلام الزنازين، لم يتذكرني إلا قبل شهرين فقط عندما زارني للمرة الأولى وسألني مباشرة عن سبيل كأنه يوقن أنني أعرف شيئًا عنها رغم سجني، رأيت يومها مدى القلق البادي على وجهه وإن تظاهر بعكس ذلك وعرفت أن ما توقعته قبل سنوات قد بدأ في حدوثه، فأجبته ساخرًا بأن جدران السجن الصامتة لا تخبرني بما يحدث في الخارج، هددني علنًا بأنه سيقوم بإعدامك وبقتل النسالى جميعهم دون رحمة، قبل أن يتركني غاضبًا ويغادر، لم يغيّر ذلك من موقفي شيئًا، كل ما فعلته وقتها أنني أغمضت عيني وتمنيت أن يكون ريان ما زال على قيد الحياة وألا يكون إيمانه بما أخبرته به قبل رحيلي عن الوادي قد تناقص مع مرور السنوات، وألا تكون سبيل قد تبدلت هي الأخرى في تلك السنوات، وبدأت أعد الأيام يومًا وراء يوم أنتظر سماع الزئير في أي وقت.

وابتسم وهو يقول:

– استغرق هذا الأمر شهرين كاملين بعد تلك الزيارة.

ونظر إلى ريان وسأله متحمسًا:

– فعلتها سبيل، أليس كذلك؟!

هزّ ريان رأسه إيجابًا، فقال الطبيب بنبرة فرحة:

– لم تخذل الفتاة أهلها، ولم تخذلكِ يا غفران.

سألته في استغراب شديد:

- كيف توقعت حدوث هذا قبل سنوات؟!

قال:

- مما رأيته في تلك الفترة التي عشتها هنا بينكم كان من السهل توقع حدوث هذا.

وصمت للحظة ثم أكمل:

- لقد عدت إلى كهف الجداريات بعد زيارتنا له بليلةٍ واحدة دون أن أخبرك، كنت أعرف أن العجوز خشيب لا يزال علىً قيد الحياة هناك، عالجت جرحه، وتركت له من الأعشاب ما يؤمّن له عدم تسمم دمائه من القيح الذي أصاب جرحه، مقابل ذلك كسرت رأس تمثال النسلي الزائر بفأسي وأخذته معي، سألني وقتها متعجبًا: «لماذا تقوم بذلك؟!»

تركته ومضيت دون أن أجيبه، كنت أعرف أنه سينجو، وأنه يمتلك من الخسّة والدهاء ما يجعله يفكر فيما أفكر فيه، ليعرف أنني أريد من وراء نجاته أن يخبر كيوان بشأن ذلك الكهف لأضعك وأضع النسالى أمام خيار واحد بين النجاة بكرامة أو الفناء.

وتابع وهو ينظر في عيني:

- ثم أخبرت ريان عن ذلك الكهف وعما يجب أن يفعله النسالى إن بات أمر إبادتهم محتومًا وأنا غير موجود بينهم، وتعاهدنا على أن يبقى هذا سر بيننا طالما كانت الأمور تسير كما هي دون أي جديد بحجة أنكِ تريدين ذلك، لم أخبره أنني أنقذت العجوز عمدًا كي يكون شرارةً لنيران كيوان الحارقة نحو النسالى، وكذلك لم

أخبرك يا غفران، كانت مجازفةً كبرى مني ولكني لم أرَ أن هناك سبيلًا للخلاص من هذا الذل الذي يعيشه النسالى إلا أن يخافهم أشراف چارتين، وكنت على يقين أنكِ ستدركين مع الوقت أنه لا بديل عن هذا الحل.

وأخرج زفيرًا طويلًا ثم قال:

– طوال تلك السنين انتظرت سماع زئير النسالى أو مقتلي على يد كيوان بعد اعتقالي، أيهما أقرب، واليوم حدث ما انتظرته طويلًا، رأيت الرعب على وجوه الأشراف، وشممت رائحة الخوف تعبق في كل ذرة هواء في مدينتهم، تبدّل كل شيء في چارتين من اليوم، آن للنسالى أن يعيشوا دون خوف من بارود المنصة، وآن لهم أن يستعيدوا حقهم المُغتصب في القاعدة التي نقشها أسلافهم قبل قرون كي ينال أطفالهم أرواحًا نقية مثلهم مثل الأشراف.

وأكمل:

– إن الزائرين يعرفونك وينصاعون إليكِ كما عرفت، إنهم بالخارج ينتظرون أمرًا واحدًا منكِ للتحرك من جديد إلى مدن چارتين، على الأشراف أن يحددوا خيارهم الآن إما أن نستعيد حقوقنا المسلوبة جميعها أو يصبح الفزع عنوان كل بيت وزقاق في كافة مدنهم.

ونظر في عيني بقوة، وتابع:

– كنتِ على وشك الموت، وكذلك دُمرت وديان النسالى عن بكرة أبيها ومات الكثيرون فيها، لا أعتقد أنكِ تملكين الآن ذرةً واحدة من التبرير للأشراف، سنستعيد حقنا بالقوة التي نملكها كما

سلبوا حقوقنا بالقوة التي امتلكوها على مدار تاريخ چارتين.

أومأت برأسي إيجابًا في صمت، كنت في حاجةٍ حقيقيّةٍ إلى إراحة عقلي بعدما شعرت أن ما يحدث يفوق قدرتي على التفكير، ثم هدأ الزئير بالخارج إلى حد السكون فجأة، فخرج ريان وعاد بعد دقائق قليلة، وقال لنا:

– لقد استعاد الزائرون هيئتهم كنسالى بشريين كما كان يعود سيدي نديم إلى هيئته الطبيعية بعد ثورة روحه.

خرجت على الفور أنا والطبيب، كان الزائرون المصطفون في الصفوف الأولى من حشد النسالى قد عادوا جميعًا بالفعل إلى هيئتهم البشرية، وجدت فاضل يتقدم بمفرده نحو صفوفهم، وبدأ يحدق يمينًا ويسارًا في وجه كل من يقابله، فتبعته، وتبعني ريان من بعدي، كان النسالى ينحنون برؤوسهم بمجرد مروري أمامهم، لكني كنت أترقب بقلبٍ مضطرب وجه فاضل الذي كان يواصل عبوره بين الصفوف، كنت أعرف أنه يبحث بين تلك الوجوه عن آدم الذي لا يعرف وجهه منّا سواه، سألني ريان الذي بدا وأنه أدرك الأمر ذاته:

– هل يكون قد عاد وانضم إلينا بالفعل؟!

ضممت شفتي ثم قلت:

– إما عاد إلينا أو قُتل وحيدًا في إحدى مدن چارتين، لا بد وأن روحه قد ثارت اليوم كباقي النسالى.

وأسرعت من خطواتي كي أقترب من فاضل الذي لم يتوقف عن التنقل بين الصفوف، ومع تناقص النسالى المتبقين أمامه كان قلبي يزداد اضطرابًا، توقف فجأة عند أحد الشبان فاندفعت الدماء إلى عروقي،

لكنه واصل طريقه مرة أخرى فالتقطت أنفاسي، إلى أن وصل آخر صف وفحص وجوه شبانه فردًا فردًا، حتى توقف بعد النسلي الأخير، ونظر لي وأومأ برأسه نافيًا في حزن، وقال:

- لم يعد إلينا بعد.

هززت رأسي إيجابًا ونظرت إلي النسالى من أمامي، ثم سألت ريان:

- متى يستعيدون قوة أرواحهم؟

قال:

- كانت روح سيدي تثور على حين غرة، لا أعرف شيئًا بعد عن أرواح الباقين.

فقال فاضل وهو ينظر إلى وجوههم المجهدة:

- دعيهم يستريحون اليوم، وعلينا أن ننال نحن أيضًا قسطًا من الراحة كي نفكر جيدًا في الخطوة التالية.

عدت إلى الخيمة من جديد فيما شيّد ريان ومساعدوه خيمةً أخرى للطبيب، أما باقي النسالى فاتخذوا من أماكنهم بأرضية السهل الواسعة مواضع لنومهم رجالًا ونساءً وأطفالًا بينما تسلق بضعة منهم الجبال المحيطة ليراقبوا أي هجوم مُباغت للأشراف.

لم يزرني النوم ليلتها بالطبع بعدما تشابكت في رأسي كافة التفاصيل التي حدثت ذلك النهار مع ما حكاه الطبيب عن تخطيطه لحدوث كل هذا قبل سنوات ليضعني عن عمد أمام أهم قرار ليس في حياتي فحسب

بل في حياة أهل چارتين جميعهم أشرافًا ونسالى، ووجدت داخلي يشتعل بصراع جديد من نوعه عندما سألت نفسي للمرة الأولى عن أي قوم أنتمي حقًا، الأشراف أم النسالى؟ وماذا إن كان قراري القادم على غير هوى النسالى، إلى متى يبقى انصياعهم لي؟! أعلم أن الأشراف لا يستحقون ذرة رحمة واحدة بعد ما فعلوه اليوم، لكني في الوقت ذاته أعرف أنني لن أستطيع اتخاذ قرارٍ باجتياح وحوش النسالى لمدن الأشراف ليقتلوا كل من يقف في طريقهم، وماذا عن فاضل الذي تخلى عن حكمته وأعلن تأييده الواضح لاستخدام النسالى الزائرين قوتهم لاقتناص حقوقهم وكذلك ريان وإن أدى ذلك إلى المزيد من القتلى؟ فأغمضت عيني وتمنيت داخل نفسي أن ينصاع كيوان وسادة چارتين إلى مطلبنا بحقنا في القاعدة الثانية ومساواتنا بالأشراف دون إراقة نقطة دم إضافية، حتى غلبني النوم ولم أنهض إلا صباح اليوم التالي عندما سمعت صوت الزئير يصدع في الأجواء من جديد، وحين خرجت إلى الخارج وجدت النسالى الزائرين قد استعادوا هيئاتهم الضارية ووقفوا منتظمين في صفوفهم يزمجرون ويزأرون فيما وقف باقي النسالى خلفهم ينظرون بعيدًا نحو شبانٍ كانوا يحملون ذخائر المدافع إلى كهف عالٍ في أقصى جنوب السهل.

عدت إلى داخل الخيمة مرة أخرى فأجفل جسدي بعدما ظهرت أمامي فجأة فتاة في بداية العشرينات قالت في حرج عندما شعرت بفزعي:

- أعتذر سيدتي، ظننت أنكِ رأيتِني حين نهضتِ، إنني بتول، كلفني السيد ريان بتلبية حاجاتك.

تذكرت ناردين في مرارة، وقلت لها في رفق:

- لا عليكِ يا عزيزتي، سأتدبر أموري بنفسي، أخبري ريان فقط بأنني أُريد لقاءه هو والطبيب.

قالت بصوت رقيق:

- حسنًا سيدتي.

وغادرت لتخبر ريان بما سألتها به.

بعد قليل من الوقت، دلفت بتول إليّ مجددًا لتخبرني بأن ريان والطبيب ينتظران سماحي لهما بالدخول، فسألتها أن تدخلهما على الفور، وجدت فاضل قد حلق لحيته الطويلة وشاربه وترك شعره الطويل كما هو دون أن يقصره فبدا أكثر شبابًا مما كان عليه قبل ليلة واحدة، ثم قال ريان بمجرد جلوسه:

- عاد النسالى إلى هيئتهم الزائرة مع الصباح، يبدو أنهم أكثر تحكمًا بأرواحهم مما كان عليه السيد نديم، كذلك قام الشبان بتخزين ذخائر المدافع في كهف جاف جنوب السهل.

قلت باسمةً:

- نعم، رأيت ذلك.

قال متحمسًا:

- إن الجميع متحمسون للغاية للانتقام من الأشراف، علينا أن نبادر بالهجوم من جديد عليهم قبل أن يجمعوا شملهم.

صمتُّ قليلًا، ثم قلت:

- لقد فكرت في الأمر، لا أرى أن التعجل قد يكون صائبًا، علينا أن نفهم طبيعة النسالى الزائرين أولًا.

وسكتّ مرة أخرى قبل أن أقول بنبرة مترددة:

- كذلك لا بد أن نترك مزيدًا من الوقت كي يتمكن أهالي جويدا غير المحاربين من مغادرة مدينتهم، لا بد وأنهم يهرولون الآن للرحيل إلى المدن الأخرى البعيدة عن وديانتا، هجومنا على جويدا الآن لن يُخلّف إلا المزيد من القتلى.

قاطعني في تعجب شديد قائلًا:

- لكنهم يستحقون ذلك.

قلت في صرامة:

- لا، إن كيوان وسادتهم من قرروا إبادتنا وليس هم، هناك كثير من الأبرياء بينهم.

قال بنبرة أشد من الاستغراب:

- ألا تتذكري معاملتهم لنا ولسبيل؟!!

قلت في لهجة أشد صرامة:

- لن أعاقبهم على ذلك بالموت.

ثم أردفت بما خطر في بالي دون تحضير:

- سنترك لهم عشرة أيام للرحيل عن جويدا، بعدها سنبدأ في إملاء شروطنا على كيوان لاستعادة حقوقنا وإلا ينتظر منّا اجتياح جويدا وباقي مدن چارتين.

ظهرت علامات الضيق على وجه ريان أما فاضل فلم يعطِ وجهه أي انطباع، كان يستمع إلى نقاشنا فحسب، فسكتُّ في انتظار ردودهما، وبعد فترة قصيرة من التزامهما الصمت قال ريان بغير اقتناع:

- حسنًا سيدتي.

وهزَّ الطبيب رأسه موافقًا، فقلت:

- خلال هذه الأيام سنبني أكواخًا مسقوفة بالسهل كي تحمي النسالى من أشعة الشمس الحارقة، لن أنام في هذه الخيمة بينما ينام النسالى بالخلاء.

أومأ ريان برأسه إيجابًا دون أن تغادر وجهه علامات الضيق، ثم غادر هو والطبيب، فجلست موضعي وأغمضت عيني وأنا أقول لنفسي بأنفاس بطيئة:

- لقد تركني كيوان على قيد الحياة من أجل هذا، كان يعلم أنه بقتلي سيكون قد كتب هلاكه بنفسه على أيدي وحوش لا يكبح قواها قيدٌ أو لجام، تركني حيةً لأكون لجام النسالى الزائرين.

ثم فتحت عيني وقلت:

- حسنًا يا كيوان، سيترك لك ما تبقى في داخلي من خير فرصة واحدة للتفكر والتكفير عن خطئك وخطأ من سبقوك من أسلافك، غير ذلك لن يكون أمامي حلٌ سوى إرسال روحك أنت ومن معك إلى وادي حوران بأجساد متآكلة الأطراف.

مرت الأيام التالية لذلك اليوم دون أي جديد، انشغل الطبيب بمداواة جرحى النسالى الذين أصابتهم نيران جنود الأشراف يوم الغفران فيما لم يكف ريان عن سؤالي كل يوم عما إن كان قد آن الأوان للتحرك إلى جويدا، لكني كنت أصر في كل مرة على انتظار مرور الأيام العشرة كاملة.

في تلك الأيام اعتدت الاستيقاظ كل صباح لأرى النسالى وهم يتحولون من صورتهم البشرية إلى صورتهم الضارية بارزة العضلات والعروق قبل أن يحيوني بزئيرهم الذي كان يصل عنان السماء بدون أن يعلموا شيئًا عن ذلك الانقباض الذي يصيب قلبي مع مرور كل ساعة من تلك الأيام خاصةً مع إحساسي بالضجر الشديد الذي بدأ يتسرب إليهم مع مضي الأيام يومًا بعد الآخر.

في مساء اليوم السابع سألت ريان بأن يعلن للنسالى أمر تحركنا إلى جويدا بعد ثلاثة أيام، وقتها تعالى زئير النسالى الحماسي بصورة كانت تماثل زئيرهم في يوم الغفران الأخير، تمنيت داخل نفسي وأنا أسمع زئيرهم بأن يكون أهل جويدا قد رحلوا جميعًا عن مدينتهم، وأن يكون كيوان قد أحاط نفسه بمن لديهم من الحكمة ما يجنبنا ما هو قادم على الجميع، لكني أسأت تقدير الأمور مرة أخرى كالعادة.

في فجر اليوم الثامن نهضنا جميعًا على أصوات المدافع الرهيبة تدوي في الآفاق خلف الجبال، ركضت في فزع إلى الخارج، كان الجميع قد نهضوا من نومهم واتخذوا أماكنهم مسرعين محتمين بالجبال فيما استحال حاملو الأرواح المفترسة إلى هيئتهم الضارية على الفور، أسرع إليَّ الطبيب في دهشة مما يحدث، لم تكن تلك التصويبات مُصوّبة نحو وديان النسالى هذه المرة أو حتى قريبة منّا، أنصتُّ في ترقب إلى صوت

القذائف لأتبين الاتجاه الحقيقي لوجهتها، ثم ركضت نحو جبل قريب وبدأت في صعوده في عجلة من أمري وتبعني فاضل، بينما بقي ريان يوجّه النسالى غير المتحولين صارخًا كي يحتموا بالجبال، حين اقتربتُ من قمة الجبل كان صوت المدافع المتواصل أكثر وضوحًا بالأعلى، نظرت في كافة الاتجاهات وقلت لفاضل في تعجب:

- إن الصوت يأتي من الاتجاهين الجنوب الشرقي والجنوب الغربي على حدٍ سواء .. لماذا يقصف كيوان تلك المواضع وهو يعلم جيدًا عدم وجود نسالى هناك؟!!

ثم توقف لساني عن الحديث واتسعت حدقتا عيني بعدما أدركت ما يقوم به، ونظرت لفاضل وقلت غير مصدقة:

- الموانئ!!

وتابعت:

- إنه يقصف موانئ چارتين والسفن الراسية هناك، بدون تلك الموانئ لن يستطيع أي شخص مغادرة چارتين، إنه يجبر الأشراف على محاربة النسالى.

وهبطت على ركبتي وأكملت بأنفاس متسارعة وقلب ينتفض بداخلي:

- إن قذائفه تلك بمثابة إعلان منه لنا بأن الحرب القادمة لن تكون إلا حربًا للبقاء، على كل طرف منّا أن ينتصر أو يموت.



(٤)

زهير

سألتني أمي في ترقب:

– أي شيء يخص صديقك آدم؟!

قلت:

– سأخبرك فيما بعد يا أمي، لكن عليَّ أن أذهب لمقابلة أبي وعمي الآن.

صاحت بي في لهجة صارمة:

– لن تغادر، لن أستطيع تحمّل القلق عليك وعلى أبيك مرة أخرى، يكفينا بقاء أبيك بعيدًا عنا، سنبقى جميعًا هنا إلى أن يخبرنا أبوك بما يجب فعله.

أردت أن أخبرها بما أفكر فيه بشأن آدم، لكنني تذكرت لوهلة أنها ليست إلا شكوكًا غير مؤكدة عصف بها عقلي بعد ذلك الارتباك الغريب الذي أصاب مساعد عمي عند حديثنا عن العجوز خشيب، حتى وإن كان ما أظنه صحيحًا فمن الصواب ألا يعرف به أحد غير أبي وعمي في هذا الأوان، فابتلعت لساني وسكتّ، ثم قلت بصوت قوي:

- سيأتينا الموت إن أراد أينما كنّا، أعدك بأنني سأعتني بنفسي يا أمي، لكنني في حاجة حقًا للقاء أبي وعمي، سأذهب إليهما يا أمي سواءً مع هذا الفارس أو بدونه.

صمتت كأنها تذكرت ذهابي إلى الباحة في صباح ذلك اليوم عبر نافذة الغرفة رغمًا عنها، وضمَّت شفتيها ضيقًا قبل أن تُخرج زفيرًا حانقًا من الإصرار الذي بدا على وجهي، ثم أشاحت بيدها وهي تقول:

- اعتنِ بنفسك، وأخبر أباك أننا لن نبرح منزلنا حتى يطلب منّا ذلك.

أومأت برأسي إيجابًا واحتضنتها، قبل أن أغادر برفقة الفارس إلى دار الأمن راكبًا خلفه على صهوة جواده.

كانت شوارع جويدا في ذلك التوقيت قد تخلّت عن سكونها المطبق الذي لازمها لساعات بعدما بدأت بعض المناوشات في الحدوث مع انتشار الجنود السريع على مخارج المدينة جميعها لمنع الأهالي الراحلين بعرباتهم من المغادرة بالقوة، لم أعرف حكمة عمي في ذلك القرار، لكن الغضب الواضح كان يسيطر بشدة على جميع الوجوه التي قابلناها في طريقنا، لذلك لم أتعجب حين بصق علينا رجل رأى حصاننا، وأخذ يسبّنا في حنق شديد، ويغمغم بألفاظٍ قبيحة عن تسببنا فيما يحدث لهم وعجزنا على احتواء الأمور، لكننا تجاهلناه وواصلنا طريقنا إلى وسط المدينة حيث كانت صفوف الجنود المدرعين المصطفين وراء المتاريس الحديدية والأسلاك الشائكة تنتشر بكثرة في الشوارع المجاورة لدار الأمن في حالة تأهب لأي هجوم جديد من وحوش النسالى، وإن كان الارتباك البادي

على الجزء الظاهر من وجوههم لا يحتاج إلى أي جهد لتبيّنه، ثم صاح أحدهم إلى الباقين حين اقترب حصاننا منهم، فأفسحوا لنا طريقًا بين متراسين لنمضي قُدمًا إلى دار الأمن.

حين دلفنا عبر البوابة الرئيسية كان ذهني منشغلًا كليًا بما سأخبر به أبي وعمي بشأن آدم، واختلطت المشاعر في داخلي بين كونه صديق عمري الأوحد الذي لم يتخلّ يومًا عني وبين احتمالية كونه حاملًا لإحدى تلك الأرواح التي رأيتها صباح ذلك اليوم، وهو ما قد يعرضه للاعتقال والموت إن وشيت به، وبدأت أسأل نفسي في وضوح وأنا أصعد السلم الداخلي لدار الأمن وراء الفارس:

- هل أضحي بصديق عمري من أجل شكوك ليس لها أي دليل سوى كوابيسه التي حدثني عنها أم أنتظر للحصول ولو على دليل واحد لذلك.

وقبل أن أتخذ قراري توقفت فجأة عن التقدم وجُمّد جسدي في موضعه حين صدر صوت زئير مفاجئ داخل الطابق الثاني من دار الأمن والذي كان يرقد فيه العجوز خشيب من قبل، تلفتُّ حولي سريعًا في خوف شديد وأنا أضع يدي على مقبض السلاح الناري الذي أعطاه لي كرم قُبيل مغادرتي بيتنا، كذلك تبدّل وجه الفارس إلى اللون الأحمر بعدما اندفعت دماؤه إليه، وأخرج سلاحه الناري في ارتباك شديد، لكن الجندي الذي كان يقف أمام مدخل الطابق الثاني نطق إليه في نبرة هادئة:

- لا تقلق سيدي، إنه نسلي متوحش حبيس لدى القادة بالداخل.

كانت النبرة الهادئة والثبات اللذان تحدث بهما الجندي يوحيان بأنه على دراية كاملة بما يقوله، سأله الفارس الذي حاول إخفاء ارتباك وجهه:

- أين الفارس كيوان؟

رد الجندي:

- إنه في القاعة الكبرى بالداخل مع بقية القادة، سيدي.

سألت الجندي على الفور في تشكك:

- هل هناك نسلي زائر بالداخل حقًا؟!

قال دون أن ينظر في عيني:

- نعم سيدي، تم اصطياده وجلبه إلى هنا منذ قليل.

وتابع:

- إنه مُكبّل بالكامل، لا خوف منه.

تقدم الفارس إلى ممر ذلك الطابق وتقدمت وراءه بخطوات حذرة بطيئة، ثم فتح لنا جندي آخر باب القاعة الكبرى، فلمحت أبي يقف بجوار عمي وبضعة من قادة الفرسان الذين أعرفهم جيدًا حول طاولة كبرى بمنتصف القاعة، وما لبثت أن تقدمت نحوهم حتى دوى الزئير مجددًا بصوت أكثر قوة، وقتها نظر إليّ أبي، وترك الآخرين واقترب مني، وسألني متعجبًا عما أتى بي في هذا التوقيت، لكني لم أهتم بكلماته بقدر ما واصلت تقدمي صابًا كل تركيزي على السجن الحديدي الصغير المنتصب في نهاية القاعة والذي ظهر خلف قضبانه السميكة نسلي زائر عاري الصدر مُكبل الأطراف والعنق بسلاسل حديدية، كان يزمجر

محاولًا التخلص من قيوده، إلى أن وقفت أمامه أبتلع ريقي في خوف، فنظر في عيني وهدأت زمجرته، ثم زأر فجأة بقوة، فأجفل جسدي وتراجعت لا إراديًا إلى الخلف وكدت أسقط، سألني أبي الذي أمسك بظهري وأسندني:

- ما الذي جاء بك في هذا التوقيت؟

قلت وأنا أسلّط نظري على النسلي الزائر:

- أعتقد أن چارتين في حاجة إلى كل فرد الآن.

وتابعت:

- إنَّ أمي وأخوتي بخير.

التقط أنفاسه كأن عبئًا ثقيلًا انزاح عن صدره، فسألته:

- كيف استطعتم اصطياد هذا النسلي، كنت في الباحة صباحًا ورأيت انسحاب الجنود جميعهم.

قال:

- إنه آدم صديقك.

انتفض قلبي وسألته على الفور:

- هل هذا آدم؟!!

قال أبي:

- لا .. إن آدم صديقك من اصطاده.

عقدت حاجبيَّ في تعجب مما يقوله، وتساءلت:

- ماذا؟!

قال:

- استطاع صديقك اصطياد هذا الوحش وجلبه إلى هنا حيًا مُكبلًا، إن صديقك قوي وشجاع للغاية رغم صغر سنه، لا تتخيل كيف سيثمر هذا الأمر في قلب الاحتمالات جميعها بعدما تخيّلنا أن الأمور كانت في طريقها للخروج عن سيطرتنا.

وأردف بنبرة واثقة:

- لا تقلق، ما حدث هذا الصباح لن يتكرر مجددًا، سنستعيد زمام الأمور في أقرب وقت.

قلت وأنا أبحث بعيني في أرجاء القاعة:

- أين آدم؟!

قال:

- إنه بالطابق الأعلى، هناك طبيب يضمّد جرحًا كبيرًا أصابه أثناء عراكه مع هذا النسلي، سينضم إلى جنودنا مثله مثل باقي شبان چارتين ممن عبروا عامهم الخامس عشر.

قلت شاردًا وأنا أحدّق في النسلي الحبيس:

- سأصعد إليه.

أومأ أبي برأسه، قبل أن يعود إلى الطاولة الملتف حولها باقي السادة، أما أنا فصعدت إلى الطابق الأعلى في ذهن مشوش وتخبط كان أشد وطأة مما جئت به قبل لقاء أبي. كان جنديان يقفان أمام باب غرفة جانبية مغلقة أخرجني أحدهما من شرودي حين ركل بقدمه الأرض بقوة من أسفله فور مروري أمامه، فسألته عن مكان صائد النسلي، مد يده إلى مقبض الباب من خلفه وفتحه، وهو يقول:

- إنه في الداخل سيدي.

كان آدم جالسًا على مقعد بمنتصف الغرفة معطيًا ظهره العاري للباب، ويقف بجواره طبيب شاب كان يلملم أدواته الطبية بعدما بدا أنه انتهى من تضميد إصاباته، ما إن خطوت إلى الداخل حتى انتبه إليَّ ذلك الطبيب ومعه آدم الذي التفت إليَّ ونهض عن جلسته على الفور، وصاح بعين تلمع من الفرحة:

- زهير.

كانت ثمة ضمادة قماشية بيضاء قد ثُبتت على جانب صدره الأيسر في الموضع ذاته الذي اعتاد ذكور النسالى على وضع وشمهم به، لم تستطع عيني تجاهلها عندما اقترب مني وأكمل مُرحبًا بي:

- ها أنت هنا أخيرًا يا صديقي.

واحتضنني حضنًا طويلًا وأنا ثابت مكاني لا أتحرك، ثم نظر في وجهي وقال بنبرة البهجة ذاتها:

- لم يستطع أبوك إعطائي كلمة مؤكدة بشأن سلامتك، خشيت أن يكون قد أصابك مكروه.

اصطنعت الابتسامة وقلت وأنا أسترق النظر إلى ضمادة صدره:

- إنني بخير يا صديقي، لقد كان صباحًا مؤلمًا لكنه مرَّ على كل حال.

ربت على كتفي وقال:

- سيصبح كل شيء على ما يرام يا زهير.

ونظر إلى الطبيب وشكره على تضميد جرحه، فغادر الطبيب وأغلق الباب من خلفه، فأكمل آدم حديثه لي وهو يهمس:

- لقد حدث لي أمر عجيب للغاية أودّ إخبارك به يا صديقي.

نظرت إليه في ترقب دون أن أنطق، فأكمل بصوته المنخفض:

- أتتذكر الأحلام الغريبة التي لطالما حدثتك عنها قبل سنوات؟

هززت إليه رأسي إيجابًا، فتابع:

- لقد بدأ بعضها في التحقق، لقد رأيت في أحلامي قبل سنوات أولئك النسالى الزائرين، لم يكونوا واضحين في الأحلام كما رأيتهم اليوم، لكني متأكد أنهم من اعتادوا الوقوف على جانب الطريق الذي أسير به في حلمي الغريب المتكرر.

وصمت لهنيهة قبل أن يكمل:

- وبالأمس حدث أمر لا أصدقه إلى الآن، لقد شعرت أن جسدي قد امتلك فجأةً من القوة ما لا أستطيع السيطرة عليه، ووجدت نفسي لا إراديًا أركب حصاني وأترك بريحا، تحركني تلك القوة التي تملكتني.

الغريب أنني لا أتذكر شيئًا مطلقًا عما حدث في الطريق بالأمس سوى أنني كنت أركض بحصاني إلى هنا من أجل حمايتك أنت وخالتي سيرين من المكروه الذي شعرت إلى حد اليقين أنه سيصيبكما، لا أمتلك غيركما في هذه الحياة.

فابتلعت ريقي، وهربتُ بعيني إلى ركن بعيد بالغرفة بينما كان يكمل في حيرة:

- لا أعلم إلى الآن كيف أتاني هذا الهاجس الشديد بشأنكما، أو كيف أصابتني تلك الحالة الغريبة، لكني لم أكن على ما يرام في الأيام الأخيرة.

سألته بنبرة متعجبة:

- هل قمت حقًا باصطياد النسلي الحبيس في الأسفل؟

أومأ برأسه إيجابًا في صمت ثم قال:

- وصلت إلى باحة جويدا مع مغادرة آخر مجموعة من النسالى إلى الجنوب، وبدأت أبحث عنك وعن خالتي سيرين بين قتلى وجرحى الباحة وأنا أؤنب نفسي لوصولي بعد فوات الأوان، لسوء حظي رآني نسليان زائران كانا يتخلفان كثيرًا عن بقيتهم، وعادا لمهاجمتي، فهربت بحصاني نحو منطقة جبلية بالجنوب بعيدة عن الطريق الذي اندفع فيه بقيتهم، فتبعني الزائران، لم يستطيعا اللحاق بي في البداية وظننت بأنني أفلتُ منهما بين الممرات الجبلية المتشعبة، لكن أحدهما ظهر أمامي على حين غرّة وانقض عليّ بمخالبه، فأسقطني عن صهوة جوادي، وكاد يقتلني لولا أني صرخت فيه في أمل مفقود كي يتوقف، فحدث ما لم أتوقعه، لقد توقف تمامًا عن إيذائي. للحظة تعجبت من انصياعه لي، لكنه تراجع بالفعل خطوات للخلف كما أمرته، قبل أن يركض ويتركني ويرحل بعيدًا، بعدها أتى النسلي الحبيس بالأسفل، استطعت التحكم بأفعاله هو الآخر حتى عاد إلى هيئته البشرية، لم أتخيل قط أن يكون جسده ضئيلًا إلى هذا الحد مقارنةً لما كان عليه قبلها بلحظة، ولم أكن لأفوّت فرصة مثل هذه، فكبّلته بعنان حصاني وأحضرته إلى جويدا بعدما أشبعته ضربًا، لم يصدّق الجنود أنني أحضرت أحدهم حيًا إلى وسط المدينة، فكبّلوا أطرافه وعنقه بأغلال حديدية سريعًا في رعب، ثم اقتادوني معه إلى هنا لأقابل عمك وأباك، لحسن حظنا عاد إلى هيئته المتوحشة بعدما كان مُكبلًا بالكامل ..

وأكمل في وجوم:

- يظنون أنني انتصرت عليه في قتال يا زهير، لكن ذلك لم يحدث، لقد استطعت التحكم فيه بالقوة ذاتها التي امتلكتها ليلة أمس.

لم أخبر أباك أو عمك بهذه الحقيقة، انتظرت أن أجدك فحسب لأخبرك بما حدث ولتنصحني بما يجب فعله، إنك أفضل مني في التفكير في مثل هذه الأمور، لقد جئت إلى جويدا من أجل حمايتك أنت وخالتي سيرين، لكن بعد ما حدث اليوم وما رأيته من جثث وجرحى خلفتهم تلك الوحوش أعتقد أنني أستطيع أن أقدّم دورًا حاسمًا لبلادنا، وإن كنت قد استطعت بالفعل التحكم في هذين النسليين فقد أستطيع التحكم في باقي النسالى المتحولين، أستطيع أن أعيدهم إلى هيئتهم البشرية ومن ثم تتولى أسلحتنا الخفيفة والمدفعية أمرهم لنعيد الأمور إلى مسارها الصحيح يا صديقي.

ابتسمت وقلت وأنا أحتضنه حضنًا طويلًا:

- لطالما توقعت أن تكون فارس چارتين الأول يا صديقي.

وأومأت برأسي إيجابًا وأنا أتابع باسمًا:

- سنستعيد هيبة الأشراف مرة أخرى سويًا.

أومأ برأسه باسمًا هو الآخر، قبل أن أخبره بأنني سأتركه مؤقتًا كي ينال قسطًا من الراحة على أن أعود إليه لنكمل حديثنا سويًا عما ينبغي أن نخبر به أبي، فوافقني، بعدها تركته وغادرت عائدًا إلى الطابق الأسفل مرة أخرى، كان أبي لا يزال واقفًا مع عمي والقادة الآخرين يناقشون مواقع دفاعات جويدا، فأشرت له من بعيد للتحدث معه منفردًا، اقترب مني وسألني عما إن كان هناك شيء هام يستدعي مقاطعة مجلسه،

فأمسكت بيده دون أن أقول شيئًا، وخرجنا من تلك القاعة إلى قاعة أخرى مجاورة لم يتواجد بها أحد، سألني متعجبًا:

- ماذا هناك؟

قلت في نبرة جامدة:

- إن آدم ينتمي إليهم.

(٥)

زهير

احتقن وجه أبي مما قلته، وسألني على الفور غير مصدّق:

- ماذا؟!!

أجبته:

- إنها الحقيقة يا أبي، إن آدم لا ينتمي إلى أشراف چارتين، وكل ما عرفناه عن كونه ابن أخت السيدة سيرين ليس إلا كذبًا وزيفًا، إن السيدة سيرين ابنة العجوز خشيب الذي أُعفي من جريمته باجتياز القاعدة الأولى صباح اليوم، يستحيل أن يكون آدم صاحب الستة عشر عامًا فقط حفيده.

فكر أبي للحظة، وحدَّق في عيني بقوة كأنه أدرك منطقية ما أقوله، فتابعت:

- لطالما اعتاد آدم إخباري بكابوسٍ كان يطارده لسنوات، كان يرى نفسه دائمًا حيوانًا يتطلع إليه الكثيرون وهو يركض إلى أن يسقط في النهاية قتيلًا أسفل جدار چارتين، كنت أرى الأمر مجرد كابوس عادي طوال السنوات الماضية لكن ما حدث منه اليوم أكد لي ذلك، لقد أخبرني أنه استطاع التحكم في نسليين زائرين منهما

ذلك النسلي الذي جلبه إلينا، لم يكن الأمر صراعًا قط، لقد رأيت بعيني قوة النسالى المتوحشين في الباحة ويستحيل على أي بشري مهما كانت قوته الفوز على أحدهم وأسره في نزال فردي، ولقد اعترف لي بذلك.

ضمّ أبي شفتيه مفكرًا وقال في شرود:

- ستة عشر عامًا!!

ثم غمغم إلى نفسه بصوت سمعته:

- لقد أخبرنا خشيب فعلًا عن الطفل النسلي الذي يحمل روح نمر الشامو وانسلَّ بين الأشراف قبل ستة أعوام.

وصمت مفكرًا من جديد، بعدها سألني بحدقتين متسعتين:

- وماذا أخبرك أيضًا؟

قلت:

- لا شيء، إنه لا يعرف بعد أنه ينتمي إليهم، ولا يعرف سر هذه القوة التي تملّكها فجأة، إنه يظن أن بمقدوره التحكم في أرواح النسالى وإخمادها لتتمكن أسلحتنا الخفيفة من الفتك بهم.

فسألني أبي:

- هل شعرت منه بأي شعور مختلف أو بغضٍ واضح تجاهك؟

قلت:

- لا، بالعكس، لقد شعرت أنه يريد بكل قوة تحقيق انتصار لنا في هذه الحرب.

فقال بعد فترة من الصمت طالت هذه المرة:

- حسنًا، لا تجعله يشعر بأي شعور غريب من ناحيتك، سيظل آدم الشاب الشريف الذي جاء من بريحا لأجلك، حتى نقرر كيف نحقق استفادتنا الكبرى من هذا الانعطاف المفاجئ.

وتابع إليَّ بنبرة محذِّرة:

- ومنذ هذه اللحظة لا تجعله يفارق عينيك، أعلم أنها مخاطرة كبرى لكن لا أعتقد أنه سيثق بأحد للاقتراب منه أكثر منك، سآمر حالًا بمنحك سلاحًا ناريًا ذا طلقات خارقة من ذلك النوع الثمين المخصص للقادة، سيكون أكثر فاعلية في اختراق جسده قبل أن تكتمل قواه إن ثارت روحه وأنت بجواره، ليس عليك سوى تصويب طلقاته في أسرع وقت على الموضع ذاته الذي يضع به ذكور النسالى وشمهم، إنه موضع القلب تمامًا، سيفي هذا بمصرعه في الحال.

وأضاف بعد لحظة:

- كذلك سأوصي بمنحك شارة الفرسان لعلك تحتاجها في أي وقت.

أومأت برأسي إيجابًا، فهمّ ليغادرني وهو يقول مؤكدًا:

- لا تخبر أحدًا مهما يكن بهذا الأمر.

وقبل أن يغادر القاعة التفت نحوي، وقال:

- ولا تصعد إلى الأعلى قبل أن تنال سلاحك الجديد.

أومأت إليه برأسي إيجابًا مرة أخرى، ثم وضعت رأسي بين كفيَّ بعد أن أغلق الباب من خلفه، وجلست أفكر فيما قاله بشأن ملازمتي لآدم الذي قد يثور في أيِّ لحظةٍ، وفي ذلك السلاح الذي سأحصل عليه

من أجل قتله إنْ ثار، ولم تمر دقائقُ حتى وجدتُّ بابَ القاعة يُطَرق من الخارجِ ويأتيني فارسٌ بسلاح ناريٍّ ذي مقبض فضيٍّ وشارةٍ من شارات الفرسان ويعطيهما لي دون أنَّ يقولَ شيئًا سوى أن أبي أمره بذلك.

بعدها بقيتُ مكاني أنظر في شرودٍ إلى ذلك السلاح الذي وضعتُه على الطاولة أمامي، وبدأت الخيالات في رأسي تدور جميعها عنِّي وأنا أصوّب طلقاته الخارقة نحو قلب آدم فزاد ذلك من توتري، فحملتُ السلاح عن الطاولة وأخفيتُه أسفلَ قميصي على جانب خصري موضع السلاح الآخر الذي كان أخي قد أعطاه لي، ثم انتظرت مزيدًا من الوقت حتى قلَّ توتري بعض الشيء، فنهضت وصعدت مرة أخرى إلى الطابق العلويِّ الذي يمكثُ فيه آدم فوجدتُه نائمًا، فجلست بجواره أنظر إليه وإلى الضمادة الملتصقة على صدره، لا أعلم لماذا كان الهاجس داخلي قويًا إلى حد اليقين بأنني سأجد وشم النسالى منقوشًا أسفل تلك الضمادة.

وكأنني لم أطق الانتظار لأثبت ذلك لنفسي وجدتني أمد يدي بأنفاس محتبسة لأرفع طرف ضمادته عن صدره فيما كانت يدي الأخرى تمسك بمقبض سلاحي الجديد تحسبًا لأي رد فعل مفاجئ منه، ثم توقفتُ فجأة وسحبتُ يديّ عنه مسرعًا عندما تقلب في سريره ناحيتي، لكنه استقر في نومه سريعًا مرة أخرى، فقرّبتُ يدي من جديد ونزعتُ عنه نصفَ الضمادة برفق لتخيب ظنوني بعدما وجدت آثار مخلب محفورة بقوة على جلد صدره بدت أنها قد أصابته أثناء عراكه مع النسلي الأول الذي أوشك أن يقتله كما أخبرني، فأعدت الضمادة إلى مكانها دون أن يشعر.

بعدها لم أطق الجلوس بجواره وخرجت إلى شرفة الغرفة لأملأ صدري المنقبض بالهواء، ومكثت أنظر إلى الجنود المصطفين خلف

متاريسهم حول دار الأمن وإلى الفرسان الراكضين بأحصنتهم في حركة مستمرة بينهم كي لا يصيبهم النعاس في ذلك الوقت المتأخر من الليل، وبقيت موضعي أراقب حركتهم وأراقب نوم آدم من بعيد إلى أن طلع الفجر، فألقيتُ نظرة مطولة ناحية جبال الجنوب التي لاحت بعيدًا في الأفق خلف الضباب وأخرجت زفيري وأنا أفكر فيما ينوي النسالى الزائرون فعله في أي لحظة من اللحظات القادمة، قبل أن ينجذب نظري إلى الناحية الشمالية لجويدا عندما رأيت غبارًا كثيفًا يتصاعد إلى السماء، فدقّ قلبي مسرعًا وومض في رأسي سريعًا ما حدث بالأمس، وركضت إلى خارج الغرفة وصعدت سلم دار الأمن طابقًا تلو الآخر حتى وصلت إلى السطح، كان الغبار يتصاعد ويقترب رويدًا رويدًا من جويدا، كدت أصرخ إلى الجنود بالأسفل كي يأخذوا حذرهم لكنِّي أمسكت لساني بعدما تحركت إلى مكان آخر بالسطح لاحت معه زاوية واضحة للرؤية مكنتني من إبصار مسببي ذلك الغبار، فوجدتهم سيلاً عظيمًا من جنود المشاة والفرسان قادمين إلى جويدا في عشرات الصفوف المنتظمة عبر الطريق الشمالي، فهمست إلى نفسي فرحًا:

- يبدو أن عمي لم يُضع ساعات الليل هباءً، سيدفع النسالى ثمن انسحابهم من جويدا قُبيل تحقيقهم انتصار محقق.

على مدار ساعات ذلك النهار لم تتوقف حشود جنود المدن الأخرى عن القدوم إلى جويدا، لينتظموا جميعًا في معسكريّن أحدهما بساحة واسعة تقع على بعد ميل واحد من شمال جويدا قيل أنها كانت مخصصة لحشد جنود چارتين جميعهم قبل قرون، والآخر في باحة جويدا نفسها بعدما تم

إخلاؤها من الجثث وآثار الدماء التي خلَّفها هجوم النسالى، وجدت أبي يخبرني مساء ذلك اليوم بأنني سأذهب للانضمام إلى المعسكر الشمالي مع فجر اليوم التالي، فقلت له متعجبًا:

- تعلم أنني لا أستطيع القتال ولا أجيد ركوب الخيل، أرى أن دوري في تدوين ما يحدث من خلال بقائي هنا أكثر أهمية من وجودي في ميدان الحرب.

قال بنبرة رسمية:

- سينضم صديقك إلى جيشنا، وكما أخبرتك لن يثق هذا النسلي في أحد غيرك.

وصمت للحظة ثم تابع هادئًا:

- لم أخبر عمك بشأن آدم لأنني أعرف أنه سيقتله حتى لو كان ما تعتقده مجرد خيالات، لكني على عكسه، اعتدت الاستفادة من أقل الفرص الممكنة، وفرصتنا الآن عدم معرفة آدم بحقيقته وإلا كان قد انسل جنوبًا يوم الغفران الماضي ليلحق بالنسالى الزائرين، أو على الأقل قام بقتلنا جميعًا أنا وعمك وباقي القادة أثناء وجوده في دار الأمن بالقرب منا إلى هذا الحد.

وأضاف:

- إن كان ما تعتقده بشأنه صحيحًا فإن قدرته على إخماد أرواح النسالى هي أقوى ما نمتلكه الآن، لكننا لن نطلب منه أن يقوم بها، سنرى إن كان سيفعلها من تلقاء نفسه من أجل حماية بلدنا أم لا..

وهدأت نبرته وهو يكمل:

– سيكون هناك أيضًا من سيقومون بمراقبته من رجالنا، لكن لا تشغل بالك بمعرفتهم، اختر درعًا مناسبًا لك فحسب وكُن قريبًا منه للحد الذي تنجح فيه من قتله قبل أن تكتمل قواه في حال إن ثارت روحه.

وأخرج زفيره وهو يتابع:

– إنَّه الرهانُ الأعظم الذي أقوم به في حياتي، إنَّه أشبه بتربية ذئبٍ وسط قطيعٍ من الأغنام.

ونظر في عيني وقال:

– لذلك إن فشلت في قتله وثارت روحه سيكون ذلك نهايتنا.

ضممت شفتيّ، ثم قلت مستسلمًا للأمر ومستغربًا من المجازفة التي تعتمد كليًا عليّ:

– حسنًا، سأحرص على إنجاح الأمر بكل طاقتي.

وتابعت متسائلًا بعدها:

– ماذا فعلتم بالنسلي الحبيس؟

قال أبي:

– لقد مات.

سألته في تعجب:

– حقًا؟!

قال:

– نعم، أعتقد أننا حققنا استفادتنا الكاملة من أسره، لقد اختبرنا قوة تحمله لبارود أسلحتنا الخفيفة صباح اليوم، قام عمك بنفسه

بتصويب طلقاته النارية واحدة تلو الأخرى نحو أجزاء متفرقة من جسده من مسافة تبعد مائة متر، تحمل جسده اثنين وعشرين طلقة نارية قبل أن تخور قواه، كان ذلك محبطًا لنا كثيرًا، لكنه كان ملهمًا في الوقت ذاته للتفكير في استخدام البارود القديم المشبع بالحمض الذي استعمله قدامى أشراف چارتين في تعذيب النسالى المتمردين في العصور القديمة أو بمعنى أدق إذابة أجسادهم.

وتوهج وجهه بهجة وهو يقول:

- لم يتحمل النسلي الزائر قدرًا واحدًا من ذلك السائل، لقد أذاب أطرافه بعظامها في لحظات، فما بالك لو علمت أن هناك قذائف كاملة مُصنعة من ذلك النوع من البارود.

تساءلت إليه:

- غير التي صنعتها في معاملك بالشهور الماضية؟!

قال:

- نعم، إن شدة انفجارها وآثارها المدمرة تفوق قذائفي مئات المرات.

فسألته في تعجب:

- ولماذا لم يستعملها عمي عندما أراد إبادة النسالى بالأمس؟

قال:

- لم نكن نتوقع أن تعجز قذائفنا الثقيلة مع النسالى، كما أن ذلك النوع من القذائف لا تستطيع أي مدافع لدينا حمله أو قذفه سوى مدافع الجدار.

قاطعته متسائلًا في دهشة أكبر بعدما وقعت كلمته على مسامعي كالصاعقة:

- مدافع الجدار؟!!

قال:

- نعم.

ظلَّ تأثير كلمته مسيطرًا عليّ للحظات، لطالما عرفت أن مدافع الجدار لم تبرح مكانها منذ مئات السنين، وكما قرأت عنها سابقًا؛ تبقى مسؤولية تلك المدافع الأبدية هي حماية جدار چارتين ضد أي غزو خارجي يستهدفه، لذا صُممت فوهاتها بانسيابية فريدة تستطيع بها قصف أي عدو يقترب عبر بحر أكما من موقعها الثابت على الأرض وراء الجدار بعشرات الأمتار فقط وإن كان الجدار أمامها يمثل ساترًا عملاقًا، تستطيع قذائفها الارتفاع إلى السماء في اتجاه شبه عمودي لتتجاوز ذلك الساتر قبل أن تسقط بزاوية حادة لتصيب هدفها المنشود دون خطأ.

وهمست لأبي:

- لقد قرأت أنها لم تبرح أماكنها منذ قرون.

قال:

- نعم، كانت تنتظر أي عدو خارجي يطمع في إيذاء بلادنا، أما اليوم فالعدو موجود بالفعل لكنه بالداخل.

وابتسم وهو يقول:

- لقد ترك لنا أجدادنا إرثًا عظيمًا ممثلًا في تلك المدافع وقذائفها الحارقة، لن تستطيع مدافعنا العادية اجتياز الجبال المختبئ

خلفها النسالى بالجنوب، أما مدافع الجدار فصُممت خصيصًا من أجل اجتياز مثل تلك السواتر المرتفعة، ستسقط على وديانهم القذائف من السماء مثل انهمار المطر الحارق لتقتلهم في أعشاشهم، بعدها تتكفل المدافع الأخرى وألغامنا الأرضية التي سأعمل على تصنيعها من البارود الحمضي ذاته بتدمير الباقين منهم.

وأكمل:

- أو ربما تفيدنا أسلحتنا الخفيفة إن صدق صديقك وأخمد أرواحهم في حال نجاة بعضهم واقترابهم منا لمسافة تمنعنا من استخدام تلك المدافع.

قلت:

- هذا يعني أننا من سنبادر بالهجوم؟

قال:

- بالطبع، إننا الأسياد هنا يا زهير، والأسياد لا ينتظرون أن يكونوا رد فعل.

وتابع:

- لقد رأى أشراف بلدنا كيف صار النسالى خطرًا محدقًا على حياتهم وصار محو وجودهم واجبًا حتميًا علينا، كان عمك محقًا في قراره بالأمس.

سألته:

- ومتى ينوي عمي الهجوم عليهم؟

أجابني:

- لا يزال الفرسان يحركون مدافع الجدار إلى جويدا، وهناك المزيد من الجنود والفرسان لم يصلوا من المدن الأخرى بعد، علينا أن نجمّع قوانا أولًا ثم نحقق ضربتنا الكاملة، لا تقلق لقد وضعنا كل شيء في الحسبان.

ثم أشار بإصبعه لي وهو يقول:

- لكن احذر أن يعرف صديقك شيئًا عن هذا، إنني لا أثق في أي نسلي.

أومأت برأسي موافقًا، وقلت بجدية:

- بالطبع، لا أحتاج إلى أن تخبرني بهذا.

أخذ تجميع الجنود والفرسان في المعسكرين أكثر مما كنت أتوقعه من أيام، ما كان يقلقني من ذلك التباطؤ أنني كنت أخشى هجوم النسالى علينا قبل وصول مدافع الجدار إلى جويدا، لكن ذلك لم يحدث، في أمر كنت أراه غريبًا جدًا من ناحيتهم وكأنهم اكتفوا بما حدث في الباحة، في تلك الأيام انضممت إلى المعسكر الشمالي ومعي آدم كما أمرني أبي، سألني آدم حين رأى ذلك الحشد من الجنود والفرسان إن كنت قد أخبرت أبي بقدرته على إخماد أرواح النسالى، فأجبته كاذبًا بأنني آثرت عدم إخبار أبي بذلك مفضلًا انتظار فرصة قد تسنح لإثبات ذلك أمام الجميع، وأضفت مبررًا بأنني أعرف أبي وعمي جيدًا وأنهما لن يغامرا أبدًا بأرواح جنودهما من أجل أمر قد يكون حدث صدفة، لم يقل

شيئًا وبدا على وجهه الاقتناع بما قلته، فأخبرته وأنا أراقب ملامحه بأن النسلي الحبيس قد مات، لم أرَ أي تبدل على وجهه وقال في غير اهتمام بأنه ينتظر حربه ضد الباقين منهم ليثبت للجميع ما هو قادر على فعله، وأضاف وهو يركب حصانه:

- سأحقق نبوءتك يا صديقي بأن أكون فارس چارتين الأول.

ثم صرخ في حصانه، وجذب عنانه بقوة لينطلق كالسهم مبتعدًا عني لمائتي متر تقريبًا، قبل أن يدور به ويعود بالسرعة ذاتها ويوقفه أمامي ويقول ضاحكًا وهو ينزل عنه:

- أرأيت؟ أستطيع أن أسبقكم إلى هناك، سأمثّل فارقًا كبيرًا في هذه الحرب.

ضحكت وقلت بعدما رأيت الإعجاب والحماس قد ارتسما على وجوه الجنود الذين شاهدوا ركضه بحصانه:

- يبدو أنك محق، لقد أثرت الحماسة في قلوب الجنود، لكن أرجوك لا تبتعد عني في ميدان الحرب، تعلم أنني لا أجيد القتال ولن يحميني أحد غيرك.

فقال بنبرة صادقة:

- لا تقلق يا صديقي، سنعبر هذه الحرب سويًا.

في صباح اليوم الرابع ظهرت أول مجموعة من مدافع الجدار تجرّها الخيول إلى جويدا، كانت أعناقها أكثر طولًا وفوهاتها أكثر اتساعًا من فوهات تلك المدافع التي شهدناها في شوارعنا قُبيل يوم الغفران السابق،

كذلك كانت الجلبة الناتجة عن جرهّا عظيمة للغاية، لم أعرف إن كان سبب ذلك عدم تحريكها عن مواضعها لقرون طويلة أم أنَّ عجلاتِها السميكةَ المصنوعةَ مِنْ فولاذٍ خالصٍ هي ما تسببت في تلك الجلبة التي نبّهت كافة جنود المعسكر إليها لتصيب وجوههم الدهشة من إحضار تلك المدافع إلى جويدا، ومعهم آدم الذي سألني مستفهمًا عنها فأخبرته بأنني لا أعرف عنها شيئًا.

ما أثار تعجبي حقًا أن تلك المدافع لم تنضم إلى ساحة تجميع الجنود التي كنا نمكث فيها أو تنتشر على حدود جويدا كما توقعت، بل واصلت طريقها إلى شوارع جويدا الرئيسية وطرقاتها لتقبع هناك بين بيوت العامة، قبل أن يصدر أمر إلى بعض جماعات الفرسان بحماية تلك المواضع التي استقرت بها المدافع، وقتها تمنيت لو قابلت أبي لأفهم منه سر اختيار تلك المواضع، لكنني لم أستطع الذهاب إلى دار الأمن للقائه بعدما صار عليّ ملازمة آدم طوال الوقت.

في صباح اليوم الثالث من وصول مدافع الجدار نهضنا على صوت قذائفها المدوي للمرة الأولى، تناثرت الأخبار بعدها بين الجنود أن تلك القذائف قد دمرت موانئ چارتين الجنوبية جميعها، استغربت كثيرًا مما أقدم عليه عمي، ولم أجد في رأسي مبررًا لما فعله سوى أنه كان يهدف إلى قطع كافة السبل التي قد تساعد النسالى على الهروب من چارتين وفي الوقت ذاته يرسل رسالة إلى جنوده بأنَّ هذه الحربَ محسومةٌ لنا، انتظرت طيلة ذلك اليوم سماع دَقَّاتِ الشامو كرد فعل من النسالى الزائرين، مرت الساعات واحدة وراء الأخرى دون حدوث أيٍّ شيءٍ جديد عن الأيام السابقة، وحين تحدثت إلى أحد الفرسان عن مخاوفي قال مطمئِنًا لي بأن باحة جويدا تعج بالجنود والفرسان المدرعين عن آخرها

يستعدون استعدادًا تامًّا لأيِّ هجوم من الوحوش على عكس المرة الأولى، لم يطمئنني حديثُه وواصلتُ تركيزي لسماعِ أيِّ دقاتٍ أو زئيرٍ بعيد، لكن ذلك لم يحدث، ثم انتصف الليل فغلبني النعاس ونمت موضعي خارج الخيمة بآذانٍ مستيقظة تستمع إلى صيحات الجنود المستيقظين المكلفين بمراقبة أي جديد حتى فوجئت قبيل بزوغ الفجر بآدم يهز جسدي بقوة ويصرخ بي ليوقظني، فتحت عيني الناعسة في فزع، فقال لي لاهثًا:

إنني أشعر بقدومهم، إنهم قريبون للغاية.

– تلفتُّ حولي، كان كل شيء كما هو في المعسكر، نظرت إليه مجددًا وقبل أن أنطق بشيء وجدته قد قفز إلى صهوة جواده وانطلق به كالسهم إلى خارج معسكر الجنود.



(٦)

غفران

ظل صوت المدافع البعيد وصداه يدوّيان دون توقف في اتجاه الموانئ فيما بلغت حالة الهرج والمرج بين صفوف النسالى البشريين أوجها وهم يركضون خوفًا في كافة الاتجاهات للاحتماء بالجبال بينما وقف النسالى الزائرون مكانهم يطلقون زئيرهم كأنهم يطالبون الآخرين بالثبات.

تساءل فاضل متعجبًا ونحن ننظر إليهم من أعلى:

- ألم تُدمَّر كافة مدافع الأشراف؟!

أجبته بعد لحظة من الشرود:

- ظننت أيضًا أن جميعها تم إحراقهم بعدما رأيت المدافع المحترقة وأنا في طريقي إلى الجنوب.

وأخرجت زفيرًا وقلت بنبرة حزينة:

- ظننت أن كيوان قد ينصاع لنا هذه المرة لتفادي المزيد من القتلى، لكنه لم ينتظر كثيرًا ليرسل لنا هذه الرسالة.

قال فاضل:

- لم يكن هناك أي مجال للتراجع يا غفران بعد ثورة أرواح النسالى، إنه طريق ذو اتجاه واحد لا عودة فيه.

وتابع وهو ينظر إلى النسالى الزائرين المحتشدين في منتصف السهل:

- لن يتراجع هؤلاء عن الانتقام من الأشراف سواء معك أو بدونك، إن كل واحد منهم يحمل داخله ذكريات أليمة حملها كل جسد حفظ تلك الروح الخامدة على مدار قرون، إن حظهم فقط جيد بوجودك بينهم كقائد يجتمع الجميع حوله لأنهم جميعًا يعلمون كم قدمتِ لهذا الوادي وأهله، لكنهم مهما أحبوكِ فلن يتراجعوا عن الانتقام من الأشراف وإن عصوا أوامرك، وقتها مع هذا التحدي الجديد من كيوان سيكون انتحارًا للجميع.

وأردف دون مجاملة:

- كان انتظارنا الأيام العشرة خطأً كبيرًا منكِ وإن كانت نيتك لتفادي موت المزيد من أهل جويدا صادقة، لكنها تظل في النهاية حربًا، وفي الحروب لا تكفي النوايا الحسنة للانتصار.

قلت بعدما دوّى صوت قذيفة جديدة وصداها بعيدًا:

- إعلان كيوان هذا التحدي بهذه الجرأة يعني أنه نظّم صفوفه إلى حد ما، إن هجومنا على جويدا دون تخطيط قد يكون مخاطرة كبرى تحمل لنا الكثير من الخسائر.

قال وهو ينظر بعيدًا نحو قمم الجبال:

- أتفق معكِ في هذا.

وتابع:

- الأمر الذي أفكر فيه الآن، إن كانت الموانئ قد دُمرت جميعها بالفعل أم لا؟

قلت:

- حسب الاتجاهات التي يأتي منها صوت القذائف فأعتقد أنه قام بذلك.

قال:

- إن كانت قد دُمرت جميعها فنحن في مأزق حقيقي.

ونظر إلى الشرق وقال:

- لقد جئت إلى الميناء الجنوبي الشرقي مرتين وفي المرة الثالثة تم اعتقالي قبل مغادرة السفينة، إن هناك جبل كبير يلتصق بإحكام بجدار چارتين العظيم، يقبع ذلك الميناء وراءه مباشرة، وتحتاج العربات إلى الالتفاف من حوله للتحرك في اتجاه جويدا.

قلت:

- وماذا في هذا؟

هبط على ركبة واحدة، وقال وهو يرسم على الرمال بإصبعه هرمًا يمثل الجبل، ورسم خلفه دائرة صغيرة تكاد تلاصقه تمثل الميناء، ورسم بعيدًا على الناحية الأخرى من الهرم مربعًا يمثل جويدا، وقال وهو يشير إلى هرمه المرسوم:

- إن هذا الجبل يقف حائلًا طبيعيًا بين الميناء وجويدا، بل وكافة مدن چارتين، وهنا يكمن المأزق الذي أقصده.

إن الميناء على مسافة قريبة للغاية من الجبل، للحد الذي يجعل تدميره بالمدافع المعتادة أمرًا مستحيلًا، لأن ذلك الجبل يمثل ساترًا عملاقًا أمام القذائف المباشرة.

ثم رسم خطًا مستقيمًا ينطلق إلى أعلى من المربع الذي يمثل جويدا كأنه قذيفة مدفع، ليعبر من فوق الهرم ثم يسقط في اتجاه شبه عمودي إلى الدائرة، وقال وهو ينظر إلى السهل من أسفلنا:

- إن دُمر هذا الميناء فعلًا فلن نكون في مأمن هنا إن استطاع تحديد مكاننا، لن تستطيع هذه الجبال العالية حمايتنا مثلما لم تستطع حماية الميناء.

تنبهت إلى ما يقصده، فاحمرّ وجهي قلقًا، بعدها سألني:

- درستِ من قبل في مدرسة الضباط، هل تمتلك چارتين قاذفات تستطيع فعل هذا الاحتمال؟

فكرت محاولة التذكر، ثم قلت بعدما لم يأتِ في ذهني شيء:

- لا أعرف .. كانت دراستنا في مدرسة الضباط جميعها عن الأسلحة الخفيفة، كما أن ذلك كان منذ عشرين عامًا تقريبًا.

ونظرت مجددًا إلى رسمته على الرمال أمامي محاولة عصر ذاكرتي، فقال:

- أيًا كان، علينا التأكد من تدمير ذلك الميناء أولًا. قد نكون مخطئين في تكهناتنا، ولكن حتى نتيقن من ذلك سيكون وجودنا كتجمع في هذا السهل خطرًا كبيرًا علينا، لا بد وأن نفترق إلى جماعات صغيرة تحتمي بالممرات الجبلية التي تقترب بأعلاها

قمم الجبال، أو بأعالي الجبال وكهوفها لا بالسهول الواسعة بينهم إلى أن تتضح لنا الرؤية أو نتخذ قرارنا القادم.

هززت رأسي إيجابًا وقلت وأنا أهمّ بالنزول هرولة إلى أسفل:

- نعم، إنك محق.

وتابعت:

- سأرسل من يتبين لنا أمر ذلك الميناء.

ثم نزلنا سويًا إلى أسفل، كان ريان ومعه بضعة من الزائرين يقفون في انتظارنا على مقربة من سفح الجبل، فقلت حين اقتربنا منه:

- أخبر النسالى الزائرين بأن يُقسِّموا أنفسهم بين الممرات الجبلية الضيقة أو يصعدوا إلى أعالي الجبال دون الوصول إلى قمتها.

قال متعجبًا:

- لماذا؟!

قلت:

- سأخبرك بكل شيء بعد قليل، لكني أريد نسليين بشريين يجيدان ركوب الخيل ويعرفان الطرق الجبلية غير المعتادة المؤدية إلى الميناء الجنوبي الشرقي.

قال:

- لدينا الكثيرون .. وجميعنا نعرف الطرق إلى ذلك الميناء.

قلت:

- حسنًا .. اختر من تثق فيهما وأرسلهما إلى هناك لتبين ما إن كان ذلك الميناء قد دُمر بالفعل أم أن القذائف قد استهدفت الطريق المؤدية إليه فقط، وأخبرهما أننا في انتظار عودتهما منذ هذه اللحظة.

ثم أردفت قائلةً له:

- كذلك أريد إرسال ثلاثة شبان غير زائرين إلى مشارف جويدا في خفية لتبين ماذا يحدث هناك.

أومأ برأسه إيجابًا، وتحرك إلى النسالى من غير أن يقول شيئًا كأنه فهم أهمية الأمر، تحركت بعدها إلى نساء النسالى وأطفالهن المتكدسين على حواف السهل في أحضان الجبال، وناديت بصوت مسموع وأنا أربت على شعر طفلة صغيرة:

- لا تخافوا، لكن علينا الحيطة كذلك، لذا سنلجأ إلى أعالي الجبال والممرات الجانبية الضيقة هذا النهار فقط، اتساع السهل بين الجبال قد لا يكون آمنًا لنا.

وبدأت مع فاضل المرور بينهم وطمأنتهم وحثّهم على التحرك سريعًا إلى الممرات الجانبية للسهل، ثم انضم إلينا ريان وتساءل مستغربًا:

- هل تستطيع قذائفه الوصول إلى هنا إن كانت مدافعه لا تتمركز بصحراء الجنوب؟!

قال فاضل:

- إنه احتمال وارد سنتأكد منه بمجرد عودة النسليين المُرسلين إلى الميناء.

قال ريان:

- أخشى أن يدب الخوف في قلوب النسالى من جديد بعدما فارقنا طوال الأيام الماضية.

قلت له:

- لن يحدث .. لكن علينا التأني، قد يودي بنا التهور إلى الهلاك.

وسألته:

- كم لدينا من النسالى الزائرين؟

قال:

- سبعمائة وخمسة وتسعون.

قلت:

- وغير الزائرين؟

قال:

- لم أحصهم بدقة مثل الزائرين لكن يتجاوز عدد من يستطيعون القتال خمسة آلاف شاب، وهناك سبعة آلاف تقريبًا من النساء والأطفال.

قلت:

- هل اتضح بعد أي من النسالى الزائرين يحمل روح الشامو؟

قال:

- أعتقد أنني تيقنت من أربعة منهم تنطبق عليهم صفات الكهف .. أجسادهم أقوى من غيرهم، تظهر ملامح القيادة على وجوههم، وينصاع الآخرون إلى أوامرهم بشكل واضح .. كذلك ماتت أمهاتهم جميعًا أثناء وضعهم.

سألته سؤالًا عابرًا وثب إلى ذهني عندما ابتعد الطبيب عنّا قليلًا:

- أرأيت أم نديم من قبل؟!

قال:

- لا .. لم نعرف له أمًا قط، أخبرني قديمًا أنه حدثك كاذبًا عن كون أمه مزارعة قبل أن يخبرك بكونه نسليًا.

قلت:

- نعم .. كان صديقك يجيد الكذب.

ثم تابعت:

- هل هناك أمل باكتشاف الثلاثة الذين يحملون أرواح الشامو المتبقيين من الثمانية؟

قال:

- لا أعتقد أننا سنكتشف ذلك قبل معركة حامية، ليس هناك متيقنون من موت أمهاتهم أثناء ولادتهم إلا أولئك الأربعة، الباقون ممن يتمتعون بحس القيادة إما عاشت أمهاتهم طويلًا أو متن أثناء طفولتهم، لا أعلم هل فُقدت أرواح الثلاثة الباقين مع مرور السنوات أم أنهم على قيد الحياة ولم ينضموا إلينا بعد.

قلت:

- حسنًا، فلتخبر الأربعة أنني أريد لقاءهم.

في دقائق قليلة كان السهل قد تم إخلاؤه بالكامل .. تسلّق كثير من شبان النسالى غير الزائرين ظهور الجبال المحيطة، تبعهم النسالى الزائرون حاملين من لم يستطيعوا التسلق من النساء أو الأطفال فيما قسّم الباقون أنفسهم بين خمسة ممرات جبلية كانت مجاورةً للسهل خُصص منها ممر كامل للخيول وعربات الغلال، أما أنا وفاضل وريان فلجأنا إلى خيمة انتصبت في ممر قصير ضيق بين جبلين عموديين كانت قمتهما تقتربان إلى الحد الذي يجعل عبور القذائف بينهما مستحيلًا إلا لو كان القدر مُصرًا على موتنا، ثم انضم إلينا الأربعة شبان الذين يحملون أرواح الشامو بعدما عادوا إلى صورتهم البشرية، سعدتُ حين وجدت اثنين منهم كانا قد درسا في مدرستي من قبل، كان اسم أحدهما يعقوب واسم الآخر أصيل بينما كان الاثنان المتبقيان من واديين آخرين، قال أحدهما باحترام كبير:

- اسمي منذر، في خدمتك سيدتي.

وقال الآخر بصوت أجش يتناسب مع جسده الضخم:

- اسمي بيجاد، في خدمتك سيدتي.

قال ريان بعده:

- إن بيجاد من قام بإحضار حمولة الغلال التي قد تكفينا لشهور سيدتي.

أحنيت رأسي له باسمةً، ثم قلت بعدما جلسنا:

- تقول جداريات الكهف أن هناك ثمانية نسالى حاملين لأرواح الشامو، فقدنا أحدهم قبل ستة أعوام ولا نعرف عنه شيئًا، ولم نكتشف ثلاثة بعد، وأنتم الأربعة.

وأردفت وأنا أقف وأنحني لهم:

- ستكونون قادة النسالى معي.

أومأ الأربعة شباب إيجابًا برؤوسهم، فتابعت بعدما جلست مرة أخرى:

- كنت أفكر في إرسال شروطنا إلى كيوان من أجل إضافة قاعدة توصي بالمساواة بين النسالى والأشراف في كل شيء، لكن مع قذائف هذا الصباح أدركت أن امتثاله لشروطنا سيكون ضربًا من ضروب الخيال.

يرى الطبيب فاضل أن استطاعة مدافع الأشراف تدمير الميناء الجنوبي الشرقي رغم كونه محميًا بجبل شاهق تطور مفاجئ في قوة كيوان قد يستطيع به الوصول إلينا بين الجبال إن استطاع تحديد موقعنا بدقة، لذا علينا انتظار عودة من أرسلهما ريان إلى الميناء للتأكد من هذا الأمر وبناءً عليه سنتخذ خطوتنا القادمة، وحتى عودة أولئك الشبان أريدكم أن تذهبوا وتقسّموا الزائرين بينكم إلى أربع جماعات متساوية العدد يقود كل واحدة منها أحدكم، وكلّفوا بضعة منهم بالشروع في صيد ما يستطيعونه من طرائد الجبال.

أومأوا برؤوسهم في طاعة، ثم غادروا وغادر معهم الطبيب وريان ليتفقدا النسالى البشريين ولم نجتمع بعدها إلا مع غروب الشمس عندما عاد الشابان المرسلان إلى الميناء واللذان قال أحدهما بمجرد أن وقف أمامنا:

- لقد دُمر الميناء الجنوبي الشرقي بالكامل واحترقت السفن الراسية هناك عن بكرة أبيها.

زممت شفتيّ ونظرت في صمت إلى الطبيب فاضل الذي سأل الشاب في ترقب:

- والطريق المؤدية إلى هناك؟ هل دُمرت؟ وهل رأيتما هناك أي مدافع قريبة؟

فأجابه الشاب:

- لا، إن الطرق المحيطة جميعها سليمة، لقد دُمر الميناء بمفرده، كذلك لم نجد هناك أي مدافع قريبة أو جنود من الأشراف .. وهناك شيء أيضًا أردنا أن تروه بأعينكم.

ونظر إلى رفيقه الذي كان يحمل لفة قماشية منبعجة منذ دخوله الخيمة، فتقدم ذلك الشاب ووضع لفّته على الأرض أمامنا، وفردها لتظهر بها قطعة لحم صغيرة من ساق إنسان محترقة، فتابع الشاب الأول:

- هذا ما تبقى من تلك الجثة، تآكلت جميع الجثث هناك ولم يتبق منها إلا أشلاء في حجم هذه.

اتسعت حدقات أعيننا جميعًا، وشعرت بسخونة أنفاس الأربعة زائرين بجواري تلفح وجهي رغم عدم تحولهم بعد، لكن فاضل هبط على ركبة واحدة وتحسس قطعة اللحم بأطراف أصابعه، ثم قرّب أصابعه من أنفه وشمها، ثم أخرج طرف لسانه وتذوقها، قبل أن يبصق ويمسح لسانه بظهر يده ويقول بعد هنيهة من التفكير:

- إنها آثار أحماض مركزة، مع قوة التفجير العالية تستطيع تلك الأحماض إذابةً لحوم وعظام من تصيبهم، يبدو أنها سلاحهم الجديد لمحاربة الزائرين بعدما تيقنوا أن بارودهم العادي لن يجدي نفعًا.

قلت لحظتها لنفسي وأنا أعقد حاجبيّ شرودًا:

- لا تُستخدم الأحماض المخلوطة بالبارود إلا في قذائف مدافع الجدار!!

وكدت أضرب رأسي وأنا أغمغم إليهم بعدما شعرت بغبائي:

- كيف فاتني ذلك!! لقد تخلّى عن حماية الجدار من أجل حربه معنا، لقد أحضر مدافع الجدار من المدن القريبة من بحر أكما إلى جويدا، إن لديها القدرة بالفعل على اجتياز السواتر الشاهقة.

فنهض فاضل وجلس على مقعده من جديد ولاذ بصمته، بعدها عقد الشاب أطراف لفته القماشية مرة أخرى ليخفي بقايا الساق عن أعيننا، فقلت له ولصديقه:

- ادفنا هذه الساق دون أن يراكما أحد، ولا تخبرا مخلوقًا عما رأيتماه هناك.

فقال الشاب الأول:

- حسنًا سيدتي.

ثم غادرا، فسأل ريان الطبيب على الفور:

- هل تستطيع هذه الأحماض فعل الشيء نفسه بأجساد الزائرين؟

قال فاضل:

- إن قوة التفجير الهائلة لأي قذيفة ستكون قاتلة .. لكن وجود مثل تلك الأحماض في تكوين القذائف سيزيدها قوة وألمًا وتشوهًا لمصابيها الناجين من الموت، لتكون ضربة قاصمة لنفوس النسالى المتبقين.

وكاد يكمل حديثه فدلفت إلينا بتول تخبرنا بعودة الثلاثة شبان المُرسلين إلى مشارف جويدا، قال أطولهم قامة والذي بدا أنه عيّن نفسه قائدًا لهم بأنهم صعدوا أقرب الجبال إلى جنوب جويدا لاستطلاع ما يحدث هناك على مدار النهار، قبل أن يضيف بأن باحة جويدا صارت تمتلئ عن آخرها بصفوف من الجنود والفرسان تلمع دروعهم الحديدية بقوة مع أشعة الشمس، وأنهى كلامه بأن هناك بعضًا من العامة كانوا ينتشرون في الشوارع المحيطة بالباحة.

تعجبت للحظة ثم سألته:

- هل تصطف المدافع على المشارف الجنوبية؟

قال:

- لا، وصلنا إلى هناك مع توقف صوت القذائف الذي كان يدوّي صباحًا، لكننا لم نرَ أي مدافع أو جنود منتشرة بالطرق الجنوبية.

شكرته ومن معه وأذنت لهم بالانصراف ليستريحوا، فقال يعقوب الذي نطق للمرة الأولى منذ اجتماعنا:

- لا يريد كيوان أن يخطئ الخطأ ذاته مرتين، يخفي مدافعه هذه المرة، ووجود هذا الحشد المدرع في باحة جويدا يعني أنه ينوي التقدم جنوبًا، علينا أن نسرع بمباغتته بكامل قوتنا.

رأيت اتفاق الآخرين معه منطبعًا على وجوههم وكذلك ريان، لكن فاضل الذي كان يجلس مسترخيًا على مقعده قال:

- لا أخفي أنني كنت متحمسًا للغاية في الأيام الماضية للهجوم على جويدا، لكن مع إعادة كيوان تنظيم صفوفه بهذه السرعة لن تكون الحرب بالسهولة التي نتخيلها، وقد يودي بنا التهور إلى خسارة عظيمة ربما تكون مُنهية لنا.

واعتدل في جلسته وأكمل:

- كذلك أصبح وجودنا آمنين في هذا السهل مرهونًا فقط بعدم تحديده موقعنا بدقة، وهذا الأمر قد يتغير في أي لحظة من اللحظات القادمة.

ونظر للشبان الأربعة وقال:

- إن هذه الحرب ستكون حربًا طويلة، وأرى أن تأمين مقر للنسالى يكون صالحًا للمعيشة وآمنًا في الوقت ذاته من مدافع كيوان أكثر أهمية الآن من الهجوم على جويدا.

وتابع مؤكدًا:

- لذلك لا بد وأن تكون خطوتنا الأولى هي معرفة مدى تلك المدافع لنختار بعدها واديًا يكون من معنا من النسالى البشريين آمنين فيه تمامًا من قذائفها المدمرة طوال فترة الحرب.

قال أصيل والذي كان أصغر الأربعة الزائرين سنًا:

- وكيف يمكننا معرفة مدى مدافع كيوان؟

قال فاضل والذي بدا أنه توقع هذا السؤال من أحدنا:

- ستقوم الطبول العملاقة بهذا الأمر، سنجعل دقات الشامو طُعمًا متنقلًا من وادٍ إلى آخر لتصبح كالفأر الذي يطارده القط دون أن يستطيع اللّحاق به حتى نصل إلى معرفة النقطة التي تعجز فيها القذائف عن اجتيازها، سيكون ذلك خط الأمان بالنسبة لنا، وأقرب الوديان الصالحة للمعيشة منه سيكون مقرنا إلي أن يتمكن مقاتلونا من السيطرة على جويدا.

قال ريان:

- لكن مع تراجعنا للجنوب وتقدمه نحونا لن نستطيع أبدًا الفرار من مدى مدافعه.

كاد فاضل ينطق لكنني سبقته وقلت ما توقعت أنه سيقوله:

- لن نجعله يحرك مدافعه جنوبًا قدمًا واحدة، لن يتحرك كافة النسالى الزائرين جنوبًا، ستتحرك فرقة يعقوب بأكملها شمالًا الليلة إلى مشارف جويدا لتسكن الجبال القريبة منها في خفية للتصدي لأي تقدم لتلك المدافع أو لتدميرها في الحال إن سنحت فرصة حقيقية لذلك، إلى أن يتم الاستقرار على وادينا المؤقت الجديد وبعدها تنضم الثلاثة فرق الباقية وغيرهم من النسالى البشريين القادرين على القتال إلينا شمالًا، لنبدأ حربنا الكاملة ضد كيوان وجنوده.

تعجبوا عندما قلت «إلينا»، فقلت متعجبة من تعجبهم:

- نعم، سأكون مع جماعة يعقوب، لماذا هذا التعجب؟! إنني أجيد استخدام السلاح الناري وركوب الخيل وإن مرّ على ذلك الكثير من السنوات.

وأضفت باسمة:

- سيخبركم كيوان بهذا الأمر حين نأتي به أسيرًا.

فابتسموا جميعًا، فقلت:

- حسنًا يا رجال سنتحرك مع منتصف الليل إلى الشمال بينما يتحرك ريان مع ثلاثين زائرًا نحو الوديان لدق أولى طبول الشامو مع فجر الليلة.

وأردفت إليه عندما نظر إليّ حزينًا كأنه أراد أن يرافقنا إلى الشمال:

- إنك أكثرنا دراية بوديان الجنوب.

وتابعت:

- أما الطبيب فسيقود الباقين من النسالى زائرين وبشريين في الطرق الموازية للأماكن التي تدق بها الشامو مع اتخاذ بعد كاف يكون آمنًا من قصف كيوان وسيساعده منذر وأصيل وبيجاد في ذلك.

أومأوا برؤوسهم موافقين، فتابعت:

- سندقُّ طبول الشامو شمالًا في حال تدميرنا لمدافع كيوان.

قال أصيل:

- وكيف ستصلون إلينا جنوبًا إن أردتم ذلك؟

قلت باسمة:

- يستطيع الشامو اقتفاء آثار بعضهم، سيجمعكم زئيركم من جديد.

وصحت في الجميع في حماس:

- هيا، فلتخبروا الباقين بأن يعدوا العدة للرحيل مع منتصف الليل.

هزّوا جميعًا رؤوسهم موافقين، وبدأوا في مغادرتهم واحدًا تلو الآخر، كان آخرهم فاضل الذي توقف قبل أن يخطو خارج الخيمة، وقال لي باسمًا:

- لم يعتد القادة أن يكونوا في أكثر مناطق جيوشهم خطرًا.

قلت باسمة:

- إن القادة الحقيقيين لطالما فعلوا ذلك.

وأردفت:

- إنني أثق أن النصر سيكون حليفًا لنا، لكن بعد تحقيق الانتصار هناك نقطة ما يجب التوقف عندها، إننا نحارب من أجل استرداد النسالى حقهم في عيشة كريمة في چارتين لا لتدمير چارتين، لذلك لا بد أن أكون في أقرب النقاط إلى القتال.

وتابعت إليه بكلمات صادقة:

- سيكون باقي النسالى تحت إمرتك إن لم نستطع العودة، إنهم يثقون فيك ويعلمون مدى ولائك لقضيتهم.

ربت على يدي بيديه وقال:

- سيكون كلُّ شيءٍ بخير.

قلت:

- أتمنى ذلك حقًا.

ابتسم وهمّ بالمغادرة، لكنه توقف والتفت مرة أخرى ونظر في عيني نظرة لم أعهدها منه، ابتسمت في خجل وأنا أنظر في عينه قبل أن أجد نفسي أضع رأسه بين كفيّ وأقوم بتقبيله قبلةً طويلة لم تكن عادية قط.



(٧)

غفران

هرولت ساعات ذلك المساء سريعًا كالأرنب الفار من صياده، وفي لمح البصر كان الليل قد انتصف ووجدتُ بتول تدلف إليَّ ومن خلفها امرأة تحمل ثيابًا مُطبقة بعناية على ذراعيها، قالت وهي تضعها أمامي:

- لقد أعددتها من أجلكِ سيدتي.

تعجبت حين وجدت تلك الثياب تشبه في تصميمها ثيابي العسكرية القديمة التي كنت أرتديها أثناء عملي كرامية المنصة، بنطالٌ رمادي وسترة رمادية لم يختلف بها عن سترتي القديمة سوى أنها لا تحمل شارة الرامية، ومن أسفلهما قبع حذاءٌ أسود طويل العنق مثل حذائي القديم تمامًا، حين أمسكت السترة في بهجة لأتفحصها لاحظت أنها ثقيلة الوزن وذات صدر أقل ليونة نوعًا ما، فقالت المرأة على الفور:

- إنها مُبطنة برقائق معدنية ستجعل اختراق البارود لها أمرًا صعبًا للغاية.

أومأت لها برأسي مبتسمةً في امتنانٍ كبير، قبل أن تستأذن وتغادر مع بتول، بعدها نزعت فستاني لأرتدي تلك الثياب، يغمرني شعورٌ غريب بعدما كانت المرة الأولى التي أرتدي فيها بنطالًا منذ قدومي إلى النسالى

قبل ستة عشر عامًا، كذلك انفرجت أساريري في تعجب حين وجدت مقاسه مثاليًا إلى أقصى درجة، ثم ارتديت السترة وأحكمت إغلاقها لأجدها بالمثالية ذاتها، ثم انتعلت حذائي وضربت بقدمي الأرض من أسفلي، فشعرت أنني عدت إلى عامي التاسع عشر من جديد وقتما ارتديت زي الرامية للمرة الأولى، بعدها خرجت إلى خارج الخيمة كان في انتظاري على بعد أمتار فاضل وريان وبتول والأربعة شبان حاملو أرواح الشامو، يقف وراءهم بضعة من النسالى يحملون شعلًا نارية مكنتني من رؤية وجوههم، شعرت أن الخجل يسري في كامل جسدي وأنا أتجه نحوهم بتلك الثياب حتى أنني استرقت النظر إلى وجوههم لكني لم أرَ في نظراتهم نحوي إلا الحماسة والفخر والثقة خاصةً فاضل الذي تقدم إليّ وأعطاني سلاحين ناريين أحدهما مسدس والآخر بندقية ذات حزام جلدي كنت أعرف أنهما من غنائم يوم الغفران الأخير، وقال لي بعدما وضعت المسدس بجانب خصري وعلّقت البندقية على ظهري:

- سنلتقي في أقرب وقت أيتها القائدة.

ابتسمت إليه وقلت:

- سأحرص على ذلك.

أما ريان الذي كان يمسك في يده كتابًا، فأعطاني نظارةً مُعظّمة أحادية العين وقال:

- اغتنمتها من أحد طواقم المدافع، قد تحتاجينها هناك.

فسألته:

- ما هذا الكتاب؟

قال:

- إنه كتاب عن تضاريس چارتين الجنوبية، كان بين الكتب التي أحضرناها من مكتبة أبيكِ إلى مدرستنا، أفادني كثيرًا أثناء هروبي من الأشراف في الشهور الماضية، وسأقود من يدقّون الطبول معي طبقًا لخريطةٍ تُوجد فيه.

فأومأت برأسي باسمةً، قبل أن أنظر إلى يعقوب وأقول:

- سنتحرك إلى الشمال الآن بأقصى سرعة لنا في صمتٍ مطبق دون زئير.

هزّ رأسه إيجابًا قبل أن تأتيني بتول بالفرس التي أتيتُ بها يوم الغفران، فوثبت إلى صهوتها ومن بعدي وثب كل منهم إلى صهوة جواده، لأتحرك ومن بعدي يعقوب إلى ممر جبلي جانبي كان ينتظرنا فيه ما يقرب من مائتي نسلي زائر يمتطي أغلبهم أحصنة فيما كان الباقون مشاةً يحمل بعضهم مشاعل نارية، في الوقت ذاته تحرك فاضل وريان إلى من ينتظرونهم من نسالى زائرين وبشريين ليشرعوا فيما خططنا له.

لم نسلك الطريق الممهدة المعتادة إلى جويدا واتخذنا طريقًا أخرى كانت أكثر وعورة وتشعبًا خشية أن يكون هناك فخ أعده لنا كيوان ورجاله. في منتصف الطريق تقريبًا كان النسالى من خلفي بما فيهم يعقوب قد استحالوا جميعًا لهيئتهم الزائرة، وإن هدأت زمجرتهم إلى حد السكون بعدما بدا أن يعقوب قد نقل إليهم تعليماتي جيدًا، حتى الأحصنة بدت هي الأخرى كأنها فهمت ما نحن بصدده وتحركت في خفة دون صهيل واحد.

حين اقتربنا من أقرب الجبال إلى جنوب جويدا هبطنا جميعًا عن الأحصنة وتركناها في ممرٍ يقبع خلف ذلك الجبل، رأيت يعقوب الزائر يهمس إلى حصانه، لم أعرف إن كان يأمره بشيء أم ماذا، لكننا تركنا أحصنتنا في النهاية دون أن نعقل حصانًا واحدًا منها أو يقف أي نسلي لحمايتها، ثم تحركنا في هدوء نحو سفح الجبل وهناك أمرت بإطفاء شعلنا، قبل أن نصعد إلى أعلاه، وننبطح بأجسادنا على رماله، لتظهر لنا أنوار مشاعل جويدا أمام أعيننا، كانت الباحة مُنارة بعشرات المشاعل على امتداد مساحتها بينما ظهرت نيران متحركة عند مداخل المدينة الجنوبية البعيدة عن الباحة لم أكن أحتاج إلى النظارة المعظمة لأعرف أنها مشاعل يحملها فرسان لا يكلّون عن الحركة جيئةً وذهابًا، كذلك كانت بعض منازل الأشراف البعيدة تحمل في نوافذها مشاعل خافتة الإضاءة كعادة مشاعل البيوت فهززت رأسي أسفًا بأن أصحابها لم يغادروا مدينتهم كما أملت، ثم أجفلتُ عندما صدر صوت مفاجئ من خلفي قائلًا:

- إن تعزيزات المداخل البعيدة ليست بقوة تعزيزات الباحة.

كان يعقوب قد استعاد هيئته البشرية، فقلت له:

- نعم، يبدو أن كيوان سيجعل مهمة صد أي هجوم لنا هناك على الأهالي أنفسهم، إن تلك المداخل تحمل وراءها مئات البيوت وساكنيها.

وتابعت إليه بنبرة جادة للغاية:

- إن اضطررنا للقتال سنحرص على عدم قتل أي فرد غير مسلح يا يعقوب .. عدني بذلك.

قال بعد صمت:

- حسنًا.

قلت وأنا أنظر إلى السماء:

- لم يعد إلا وقت قليل للغاية على دق ريان ومن معه أولى طبول الشامو، أتمنى أن يبتلع كيوان طُعمنا مبكرًا ويكشف لنا عن مدى مدافعه في أقرب وقت، لا أريد بقاءنا هنا لوقت أطول.

بعدها ساد الصمت بيننا لفترة طالت لم يقطعه إلا دقات الشامو التي صدعت جنوبًا ليرج صدى صوتها الآفاق الساكنة، ومعها اندلع الضجيج في الباحة أمام أعيننا، وهرولت المشاعل فيها جيئةً وذهابًا مثلها مثل مشاعل المداخل الأخرى، أما مشاعل البيوت فأُطفئت جميعها.

كانت صيحات الفرسان القادمة من تجاه الباحة تتعالى أكثر وأكثر مع استمرار دقات الطبول يحيطها حالة هائلة من الهرج والمرج في صفوف الجنود، فقلت ليعقوب ونحن نشاهد تلك الحالة الشديدة من الاضطراب:

- لن ينتظر كيوان حتى يتملك الرعب من جنوده فلا يقوى على ردع فرارهم .. لقد ترك هجومكم الأول على الباحة شرخًا عظيمًا في نفوسهم.

قال وهو ينظر بعيدًا نحو أحد المداخل البعيدة للمدينة:

- نعم، أرى هذا.



استمرت دقات الطبول في دوّيها ونحن ننتظر اللحظة التي تخرج فيها المدافع من الباحة لتطلق قذائفها، لكننا فوجئنا بطبولٍ أخرى تدق في الباحة لتتحرك معها حشود الجنود والفرسان خارجةً عبر البوابة الجنوبية كسيل نمل منتظم كان ينقسم بمجرد اجتيازه البوابة إلى اليمين واليسار في ثلاثة صفوف ظلت تواصل زحفها على امتداد الجهة الجنوبية لجويدا حتى أغلقت جانب المدينة المواجه لنا تمامًا، بعدها تعالت أصوات الأبواق لتنطلق معها في آنٍ واحد عشرات القذائف المتوازية في اتجاه الجنوب لتصيبني الصدمة كليًا من المواضع التي انطلقت منها القذائف بعدما وجدت جميعها مناطق مأهولة بالسكان قد يسبب اشتعال قذائف مدفع واحد بها إبادة المنطقة بأكملها.

قال يعقوب وهو ينظر إلى القذائف العالية المتتالية العابرة من فوقنا:

- ستصل هذه القذائف إلى أقصى الجنوب بدون أن تتحرك مدافعها جنوبًا .. لا بد وأن ندمر هذه المدافع داخل جويدا، لن أستطيع الوفاء بوعدي إليكِ سيدتي.

ضممت شفتي في صمت، كان الشاب محقًا في كلامه، لم يرَ أحدنا في چارتين ارتفاعًا للقذائف مثل ذلك الارتفاع من قبل، لكني قلت له:

- إن دُمرت قذائف تلك المدافع داخل المدينة ستفجرها كليةً.

قال:

- وإن تُركَت قد لا يستطيع الباقون منّا في الجنوب النجاة.

وأردف:

- هناك أوقات ما لا تدع لنا الحياة مجالاً لاختيار الحلول الرمادية، وهذا ما نحن فيه الآن سيدتي، سأهبط برجالي لقتال أولئك الجنود حتى أعبر إلى وسط المدينة .. لن أكشف مكاننا بضرب دقات الشامو من أجل قدوم دعم الباقين، وكذلك لن أتحرك جنوبًا لإحضارهم في صمت بعد معرفتنا بأماكن المدافع الحالية والتي قد تتغير مع أي تأخير لنا، إنها فرصة قد لا تتكرر، سأستغل الخوف والارتباك اللذين أراهما في أولئك الجنود، قام خمسون فقط منّا يوم الغفران السابق بتحقيق انتصار حقيقي والآن لديّ مائتا زائر، إن فرصة انتصارنا مؤكدة.

وتابع وهو ينظر إلى النسالى الزائرين من خلفه:

- سأترك معك ثلاثين منهم، سيدقّ بعضهم الطبول إن كنا في حاجة حقيقية لها وإن كنت لا أتوقع ذلك.

حاولت أن أنطق إليه، لكنه لم يمهلني فرصة للحديث، وزحف بجسده إلى الخلف واستحال إلى هيئته الزائرة، فقلت:

- إن استطعت قتل جنود المدافع دون تدميرها فلتفعل ذلك.

فزمجر بغير أن أعرف إن كانت تلك الزمجرة موافقة منه أم اعتراض، بعدها انسل هابطًا هو ومن معه من النسالى الزائرين إلى الممر الذي وقفت فيه الخيول.

بعدها بقليل توقفت دقات الشامو عن الدق جنوبًا، فتوقفت المدافع عن قصفها، لتخيّم حالةٌ شديدة من الصمت والترقّب على جميع الجنود المصطفين على حدود جويدا قبل أن تشتعل الجلبة فجأة عندما وجدتُ الخيول التي تحمل النسالى الزائرين تركض بأقصى سرعتها يمينًا

ويسارًا تجاه الجنود الواقفين، يقودهم يعقوب الذي أطلق زئيرًا رجّ به الأجواء الساكنة تبعه زئير الآخرين الهائل، لتبدأ معه أصوات الطلقات النارية العشوائية في الدوّي.

كنت أعلم أن الدروع الحديدية التي يرتديها جنود الأشراف ستقيهم بعض الشيء من مخالب النسالى، لكنها في الوقت ذاته جعلت حركتهم ثقيلة للغاية، ومع سرعة انقضاض الزائرين والذكاء الذي شعرت بأن يعقوب يتمتع به كان باديًا أن تلك الدروع لن تفعل شيئًا سوى تأجيل موت الجنود بعض الوقت.

سقطت بعض خيول النسالى مع اقترابها من صفوف الجنود، فواصل راكبوها هجومهم في شجاعة بالغة غير عابئين بوابل الطلقات النارية المتواصلة، حتى التحم الجيشان فتعالت صرخات جنود الأشراف الذين ساد الارتباك والتقهقر صفوفهم بسرعة لم أتخيّل حدوثها مع مائة وسبعين نسلي فقط.

كان العراك متمركزًا في المنطقة الجنوبية الملاصقة للباحة ومع اشتداده وجدت الصفوف الممتدة إلى الاتجاه الغربي لحدود جويدا من أجل حماية بقية مداخلها قد اندفعت تاركة أماكنها إما لمساعدة الجنود المجاورين للباحة أو لتطويق النسالى الزائرين من كافة الجوانب، وقتها جال في بالي أن أستغل هذه الفرصة التي لاحت في الأفق لأتسلل مع الثلاثين نسليًا المتبقين معي عبر تلك المداخل من أجل شيء واحد فقط وهو الوصول إلى قذائف المدافع قبل أن يصل إليها يعقوب الذي كنت أشعر بأن مسألة انتصاره مجرد وقت لا أكثر رغم فارق الأعداد

بين الجانبين، وفكرت في أنني لو استطعت أمْر من معي بالسيطرة على تلك المدافع واحدًا وراء الآخر وإبعاد عربات قذائفها بعيدًا عن مناطقها المأهولة بالسكان سيكون أفضل انتصارٍ لنا، وقد يعطينا مزيدًا من الود والتعاطف من أهالي جويدا في حال سيطرتنا على مدينتهم بعدما لم يعبأ كيوان بحياتهم، وفي تلك اللحظة قلت بنبرةٍ آمرة لأقرب النسالى الزائرين بجواري وأنا أشير إلى مدخلٍ غربي لم يكن محميًا إلا بمتراسٍ يقف خلفه بضعةٌ من الجنود ظهروا مع بزوغ النهار:

- سنتسلل عبر ذلك المدخل.

ونهضت من رقدتي، فتبعني النسلي الذي حدثته ومعه الباقون، وهبطنا مسرعين إلى ممر الخيول، لنركب خيولنا وننطلق في صمت من وراء الجبل بعيدًا عن المعركة القائمة نحو مدخلنا المنشود إلى أن وصلناه، وهناك صوّبت مسدسي نحو رأس جندي حاول أن يصوّب نيران سلاحه تجاهي، فسقط من طلقة واحدة، قبل أن يسبقني النسالى من خلفي وينقضّوا على الباقين من الجنود، لنعبر إلى داخل المدينة راكضين بخيولنا يحيطني النسالى من كافة الجوانب، ونواصل تقدمنا في صمت مُطبق وسط شوارعها الخاوية، حتى ظهرت أمامنا بعض المتاريس الأخرى يحتمي خلفها طاقمٌ من الجنود والفرسان الذين تفاجئوا من ظهورنا أمامهم، كان مدفع ضخم يظهر في نهاية الشارع من خلفهم على مسافة مائتي متر تقريبًا، فصحتُ في النسالى من حولي للتقدم نحو ذلك المدفع، ليتعالى زئيرهم جميعًا ويسرعوا من ركض خيولهم، ويندفعوا نحو المتاريس والجنود كالسيل الجارف ليقتلوهم جميعًا، واصلنا التقدم نحو ذلك المدفع، وهناك أمرت النسالى بالتوقف، وكلّفت ثلاثة منهم بجرّ عربة قذائفه نحو صحراء الجنوب، ثم أمرت الباقين بأن نكمل طريقنا

إلى باقي المدافع، لم أكن أحتاج إلى تأكيد بأن النصر حليفنا بعدما رأيت ذلك الخوف المنطبع على وجوه الطاقم الثاني من جنود الأشراف وهم يصوّبون أسلحتهم نحونا بأيادٍ مرتعشة، قبل أن يلقوا مصرعهم أسفل أقدام أحصنتنا ولم يُصب النسالى من حولي إلا بعض الإصابات التي لم تضعف من قواهم شيئًا، لنواصل طريقنا نحو المدفع الثاني والذي كان قابعًا في نهاية الشارع الأكثر طولًا في جويدا، لكني تفاجأت بظهور بعض الفرسان فجأة في الناحية الأخرى من الشارع، كانوا يندفعون بسرعة قصوى تجاه المدفع لحمايته في حماسٍ شعرت أنه يختلف عما بدا من غيرهم من الجنود، يقودهم فارس لا يرتدي خوذة فوق رأسه ولا أعتقد أنه قد يكمل العشرين من عمره، صرخت في النسالى بأن يواصلوا طريقهم، وتقدمنا يعلو زئيرهم من حولي ليختلط مع صياح الفرسان بالجانب الآخر كأننا في سباقٍ لاقتناص ذلك المدفع، حتى توقف القادمون من فرسان الأشراف عن ركضهم تجاهنا فجأة ومع ذلك التوقف شعرت أن الزمن قد توقف بي بعدما وجدت النسالى الزائرين من حولي يستعيدون هيئتهم البشرية واحدًا وراء الآخر، لنصبح في لحظات قليلة جماعة من بشر عُزّل يمتطون جيادهم، بعدها لم تتأخر طلقات الأشراف النارية عن حصدنا واحدًا تلو الآخر.



(٨)

زهير

انطلق آدم بحصانه دون أن ينتظرني بعدما قال أنه يشعر باقتراب النسالى الزائرين، فوثبت على الفور من نومتي، وركضت إلى أقرب الأحصنة لي وقفزت إلى صهوته لألحق به، كذلك وجدتُ بضعة من الفرسان قد انطلقوا بخيولهم خلفه عندما عبر البوابة الرئيسية للمعسكر -لم أعرف وقتها إن كان هؤلاء من كلّفهم أبي بمراقبته أم أنهم حرس البوابة المكلفين بعدم هروب أي جندي أو خروجه من المعسكر دون إذن- فانطلقت وراءهم بحصاني في سرعة كانت أخف كثيرًا من سرعتهم بعدما ظلّت قلة إجادتي لركوب الخيل عائقًا ملازمًا لي منذ طفولتي. بعدها جذبت عِنان حصاني فجأة لأوقفه، وتسمرت مكاني أتلفّت حولي وقلبي يخفق بقوة عندما دقّت في الأفق فجأة طبول الشامو وأُطفئت نيران مشاعل جويدا التي كان يفصلني عنها أقل من نصف ميل، وحدثت نفسي بالعودة إلى المعسكر مرة أخرى وترك أمر آدم لمن يلاحقونه وخاصةً مع تصاعد تلك الدقات وبدء اهتياج الحصان من أسفلي. لكني مع إطلاق مدافع الجدار قذائفها نحو الجنوب قررت أن أكمل طريقي نحو جويدا للحاق بآدم رغم أن داخلي كان يشعر بقوة أننا على وشك طامة كبرى وإن امتلكنا مثل هذه المدافع التي يثق فيها أبي كثيرًا .. ومِلت بجذعي

للأمام واحتضنت عنق حصاني بذراعيّ كي أتشبث به جيدًا، ثم لكزت مؤخرته بكعب قدمي كي ينطلق مسرعًا، فأسرع من ركضه نحو المدينة وأنا أتأرجح فوق متنه يمينًا ويسارًا، حتى وصلت إلى المدخل الشمالي لجويدا مع توقف المدافع عن قصفها المتواصل، وما إن عبرت ذلك المدخل حتى سمعت صوتًا يناديني مستغيثًا:

- زهير.

فالتفتُّ نحو مصدر الصوت، كان الجنود الملاحقون لآدم قد أمسكوا به بمساعدة حامية المدخل الشمالي، وأنزلوه عن حصانه وقيدوا ذراعيه وقدميه بقائم حديدي مُثبت في الأرض، فاقتربت منهم، فقال لي قائدهم الذي كان يعرفني قبل أن أنطق:

- إن لدينا أوامر باعتقال أي جندي يحاول الهروب من المعسكر، حتى وإن كان صديقك سيدي.

وأردف وهو ينظر إلى آدم:

- لا بد وأن يكون عبرةً للآخرين وإلا فعلوا مثلما فعل.

أدركت أنهم ليسوا من كُلفوا بمراقبته مثلما أخبرني أبي، فتجاهلت كلامه واقتربت من آدم الذي قال:

- إنهم قريبون للغاية يا زهير .. اجعلهم يحرروني.

نظرت إليه ولم أعرف ماذا أفعل، فقط تمنيت داخل نفسي لو لم يكلّفني أبي بهذه المسئولية واعتقله أو قتله من البداية، ثم ارتبكت الأمور جميعها عندما مرّ بنا جندي يركض بحصانه نحو المعسكر الشمالي وهو يصرخ إلى حامية المدخل الذين حاولوا إيقافه بأن النسالى الزائرين قد بدأوا في مهاجمة معسكر الباحة، وقتها شعرت بأن عقلي قد شُلّ تمامًا

عن التفكير، ونظرت إلى آدم الذي كان يحدق غاضبًا فيَّ وفي الجنود، قبل أن يصرخ فينا جميعًا بأن نحرره كي يساعد جنود الباحة. كنّا وقتها قُبيل شروق الشمس ومع انتشار المتاريس والأسلاك الشائكة في أغلب شوارع جويدا كنت أعرف أن المسافة بين المدخل الذي كنّا نقف عنده وبين باحة جويدا قد تستغرق ضعف الوقت المعتاد لاجتيازها، ومع السرعة التي رأيت عليها النسالى الزائرين يوم الغفران كان ذلك وقتًا كافيًا لإحداث خسارة عظيمة بين جنودنا إن فشلت دروعهم الحديدية في حمايتهم، ثم ظهر حصان جريح يحمل فارسًا مُصابًا بإصابات بالغة أفقدته وعيه على مقربة منا، فأسرع إليه الجنود، وأنزلوه عن حصانه ونزعوا عنه دروعه ليظهر جسده الغارق في دمائه أمامنا، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، فأدركت أن الأشراف يعانون بشدة في الجانب الآخر من المدينة، وقتها صرخ فيَّ آدم راجيًا:

- لا بد وأن نساعدهم يا زهير، أرسل إلى أبيك كي يأمرهم بتحريري.. أقسم بأنني سأشبعك ضربًا على كل هذا التأخير.

فنظرت إليه ضامًا شفتيّ في حيرة، ثم نظرت إلى جثة الفارس من جديد، بعدها أخرجت زفيري وتحركت إلى قائد الجنود الذي كان يقف على بعد خطوات مني، وأخرجت الشارة التي كان أبي قد أعطاها لي، وقلت له بلهجة آمرة:

- لقد استأذن مني هذا الجندي بصفتي فارسًا مُعيّنًا من الفارس كيوان بشخصه .. وآمرك أن تحل وثاقه في الحال.

نظر الفارس إلى الشارة وفكر للحظة، قبل أن يومئ إيجابًا ويلقي تحيته العسكرية لي ويأمر جنديًا خلفه ليحل وثاق آدم، بعدها ركب آدم فرسه وركبت فرسي أنا الآخر، لننطلق أنا وهو عبر شوارع جويدا إلى

الباحة، يسبقني آدم الذي شعرت حقًا بأنه فارس عظيم بعدما رأيته يقفز بحصانه ليعبر المتاريس والأسلاك الشائكة .. على عكسي تمامًا بعدما كنت أنتظر حتى يزيلها الجنود المتناثرين في الشوارع لحماية المدافع قبل أن يعيدوها إلى أماكنها بمجرد عبوري.

كنت أنظر إليه وهو يركض أمامي وأفكر؛ ما إن كنت قد اتخذت القرار الصائب أم لا؟ وما الذي قد يحدث في الدقائق القليلة القادمة عندما يرى بني جنسه وهم يهاجمون جنودنا؟ وإن كان سيثور مثلهم لأكون أنا وأبي سبب نكسة بلادنا أم سيفي بوعده لي وسيستطيع إخماد أرواحهم وينقذ بلادنا حقًا؟ كنت أدرك أنني مع تلك المسافة التي يبتعد بها عني ومع عدم إجادتي لقيادة الحصان بيدٍ واحدة أنني لن أستطيع تصويب سلاحي تجاه قلبه إن ثارت روحه، لكنني لم يكن أمامي حلٌ غير تلك المقامرة بعدما بدت الخسارة وشيكة في كافة الاحتمالات.

عندما اقتربنا من باحة جويدا أبصرت ما نحن بصدد القدوم عليه، كانت الصورة طبق الأصل مما حدث يوم الغفران السابق .. ارتباك وفوضى كبرى بين صفوف الأشراف يقابله انقضاضٌ من النسالى الزائرين بلا رحمة أو شفقة .. كنت أعرف أن القادمين من المعسكر الشمالي لدعم جنود الباحة سيأخذون وقتًا طويلًا قد يُمكّن النسالى من القضاء على كل الموجودين حرفيًا، وربما يفضّل القادة بقاء الآخرين بذلك المعسكر حمايةً للمدن الأخرى والتخلي عن جويدا حتى إشعار آخر بعدما كان باديًا أن الخسارة هي النتيجة الأقرب لنا مهما كان عددنا من جنود .. وجدت آدم ينحرف بحصانه عبر المدخل الشمالي لباحة جويدا فانحرفت من خلفه، إلا أنني توقفت عندما وجدته يندفع بقوة نحو ساحة القتال، لست أنا من يندفع إلى ساحة القتال بصدر مفتوح،

وهبطت عن حصاني وركضت إلى سلم المنصة صاعدًا إلى أعلاها، لأراقب بعيني آدم الذي واصل شقّ طريقه غير عابئٍ بالطلقات النارية العشوائية المتناثرة هنا وهناك، ثم وجدته ينحرف بحصانه عندما عبر بوابة الباحة الجنوبية ليركض خلف صفوف الجنود بأقصى سرعةٍ نحو الاتجاه الغربي، حتى اختفى عن بصري تمامًا، وفي الحقيقة خشيت أن أهبط عن المنصة وأقترب أكثر من منطقة الاشتباك، وبقيت موضعي، ثم وجدته يعود بحصانه راكضًا في الاتجاه الآخر خلف الجنود الذين كانوا يواصلون تصويب طلقاتهم النارية في يأس نحو النسالى .. إلى أن حدث ما كان مفاجئًا للجميع، ورأيت سرعة النسالى الزائرين الرهيبة قد بدأت تقلّ وتتثاقل بوضوح في أمر كان مثيرًا للغاية، ومع مرور الدقائق وجدت بعضهم قد بدأوا يفقدون هيئتهم الزائرة ويستعيدون أجسادهم البشرية شيئًا فشيئًا في مشهدٍ كنت أراه كالحلم، ليتساقطوا واحدًا وراء الآخر دون أدنى مقاومة، وقتها دبّت الحماسة في قلوب جنودنا اليائسين، وتعالت صيحاتهم ليواصلوا إطلاق نيرانهم نحو من تبقى من أولئك الوحوش، لتنعكس الصورة تمامًا في دقائق وينتقل الارتباك والفوضى إلى صفوف الزائرين الذين بدوا كأنهم تفاجئوا بما حدث مثلنا تمامًا، قبل أن يستحيلوا هم الآخرون إلى صورتهم البشرية جماعة وراء الأخرى لتحصدهم طلقاتنا النارية، بعدها وجدت آدم يركض بحصانه إلى الباحة من جديد، فهبطت مسرعًا من أعلى المنصة في فرحة كبرى، وركبت حصاني وركضت به نحوه لألاقيه وأحتضنه بعدما قلب هزيمتنا المحققة إلى انتصار ساحق لم يكن ليحدث أبدًا لولا وجوده بيننا، لكني ما إن اقتربت منه حتى سمعت آذاننا أصوات طلقات نارية فردية في الجانب الغربي من المدينة، فصحت إليه:

- المدافع!!

فجذب عنان حصانه لينطلق به إلى خارج الباحة، فصحت في حصاني أنا الآخر، وأمرتُ جماعة من الفرسان كانوا على مقربة مني بأن يتبعونا، لنركض جميعًا إلى الشارع الجانبي للباحة عبر أحد مداخلها الغربية يقودنا آدم، ثم تقدمنا في طريقٍ مختصر كنت أعرفه نحو مصدر الطلقات النارية، لنجتاز الطرقات والشوارع واحدًا تلو الآخر، حتى وصلنا إلى أطول شوارع جويدا والذي كان يقبع في أوسطه مدفع من مدافع الجدار .. ظهرت على الجانب الآخر جماعةٌ من النسالى الزائرين تتقدمهم الرامية المتمردة يركضون بأقصى سرعة لهم نحوه بعدما نجحوا في اجتياز الجنود المكلفين بحمايته، لأجد آدم يصرخ فينا بأن نسرع في الوقت الذي أسرع فيه النسالى الزائرين نحونا، قبل أن يبطئ آدم من سرعة حصانه ويوقفه فجأة، فوضعت يدي على مقبض سلاحي خشية أن تكون رؤيته للرامية النسلية قد غيّرت في داخله شيئًا، وعزمت داخل نفسي أنني سأقتله وسأقتلها إن اقتضى الأمر، لكني وجدت النسالى الزائرين أمامنا يفقدون هيئتهم الضارية ليتحولوا إلى صورتهم البشرية مثلهم مثل من لقوا حتفهم عند جنوب الباحة، لتحصدهم طلقات أسلحة الجنود المرافقين لنا بسهولة بالغة، بعدها تقدمنا أكثر وأكثر نحوهم لنتأكد من موتهم جميعًا وموت الرامية التي سقطت عن حصانها، لكننا تفاجئنا بذلك النسلي الزائر الذي ظهر بحصانه من العدم أمامنا وانقضّ مائلًا بجذعه ليحمل الرامية أمامه، قبل أن يستدير بحصانه ويركض بها فارًّا نحو الجنوب مبتعدًا عنّا، حاولنا تصويب الأسلحة جميعها نحوه، تحمّل جسده ما أصابه من بارود دون أن يتوقف

حتى غاب عن أعيننا، فواصل من معنا من جنود وفرسان ملاحقته، إلا آدم الذي توقف منهكًا، فسألته في دهشة بعدما نزلنا عن خيولنا:

- لماذا لم يخضع لك ذلك النسلي الذي أنقذ الرامية؟!

قال وهو يلتقط أنفاسه:

- لا أعرف .. ظننت أن الجميع خضعوا لي.

فتابعت فرحًا وأنا أضرب كتفه بقبضتي:

- لا عليك يا صديقي .. لقد حققت لنا انتصارًا عظيمًا سيتذكرك به أهل چارتين أبد الدهر.

ابتسم وهو يقول:

- على عمك أن يمنحني ترقيةً كبرى إذن.

فقلت ضاحكًا:

- لو كنت مكانه لجعلتك قائدًا لجيوشه جميعًا.

فضحك قبل أن نجلس على جانب الطريق، ثم سألته ونحن ننظر إلى قتلى النسالى:

- هل يوجد المزيد منهم؟

قال:

- لا أعرف .. لكنني هنا حتى نقضي عليهم جميعًا.

كان عدد أسرى النسالى في ذلك اليوم واحدًا وستين نسليًا، كانوا قد أُصيبوا بنيران أسلحتنا النارية ولم يموتوا، فتم تكبيل أعناقهم وأطرافهم

بأغلالٍ فولاذية سميكة خوفًا من عودتهم إلى صورتهم الزائرة في أي وقت، قبل أن يُوضع كل واحد منهم في قفصٍ حديدي منفصل، ويحملهم الجنود على العربات إلى المعسكر الشماليّ في مهمةٍ كانت صعبة للغاية مع خروج الأهالي الناقمين من بيوتهم لإلقاء الحجارة والمياه الساخنة القذرة على تلك الأقفاص، كذلك استخدم بعضهم قضبانًا حديدية طويلة ذات أطراف مُدببة لنكز أجسادهم العارية وإسالة الدماء منها، حتى شعرت أننا لن نصل إلى المعسكر الشمالي وأحدهم على قيد الحياة.

قُبيل ظهيرة ذلك اليوم قدم أبي وعمي مع باقي القادة إلى المعسكر الشمالي، ثم استدعاني أبي إلى خيمته، فقلت له في حماس بمجرد أن دلفت إليه ووجدته بمفرده:

- لقد كان آدم العامل الرئيسي في انتصارنا صباح اليوم بعدما استطاع إعادتهم إلى هيئتهم البشرية .. لقد كنت محقًا فيما خططت له يا أبي.

وتابعت:

- لا يعرف أحدٌ بعد ما حدث .. تتناثر الأقاويل بين الجنود بأن ما حدث كان لعنةً من الباحة للنسالى.

فابتسم أبي ابتسامة خفيفة، وقال:

- نعم سمعت ذلك أيضًا.

فسألته في ترقب:

- هل أخبرت عمي بأمر آدم؟

أومأ برأسه نافيًا وقال:

- إنه لا يعرف بعد سر ما حدث، وكذلك لا يقتنع بما ينتشر بين الجنود، ولا أعتقد أنه سيهدأ حتى يعرف السبب، لكني أكثر من يعرفه ويعرف تهوره، ولا أضمن ماذا سيفعله بآدم إن عرف حقيقته حتى وإن حقق لنا الفتي انتصارنا العظيم اليوم .. سأخبره في الوقت الذي أراه مناسبًا.

وأضاف:

- ما زال هناك المزيد من النسالى الزائرين، نحتاج إلى آدم في حربنا ضدهم.

قلت في قلق:

- هناك زائر لم يستطع آدم التحكم فيه.

قال:

- لا يهم .. لقد تحكّم في مائتين منهم، وقدّمهم لنا ما بين أسرى وقتلى، خُمس عددهم في ضربةٍ واحدة، لقد وهبت لنا أرض چارتين صديقك في الوقت المناسب.

هززت رأسي إيجابًا، ثم قلت متذكرًا:

- كان بمقدور الرامية تدمير قذائف أحد المدافع داخل جويدا ولم تفعل.

قال ساخرًا في برود وهو يتجه نحو طاولةٍ تراصت عليها زجاجات الشراب:

- سنكافئها على طيبة قلبها فيما بعد.

فقلت:

- وماذا سيحدث لآدم بعد انتهاء حربنا؟

ابتسم وهو يسكب شرابًا لنفسه وقال:

- مثلما سيحدث بعد قليل لمن اُعتقلوا صباح اليوم.

وتابع وهو يرفع كأسه نحوي:

- ابتسم يا صغيري فاليوم للاحتفال وحسب.

أومأتُ برأسي إيجابًا في صمت قبل أن أطلب المغادرة، فأذن لي، فخرجت إلى الساحة مرة أخرى، كانت الأقفاص الحديدية المحتجز في داخلها النسالى قد عُلقت جميعها في منتصف الساحة بأحبالٍ سميكة تتدلى من رافعات خشبية مائلة قام الجنود بتثبيتها في أرض الساحة قبل قدوم عمي ومساعديه، كما شيّدوا منصة صغيرة للسادة على بعد أمتار منها، كذلك خلت الساحة من حشود الجنود المكدسين بعدما قُسموا إلى ثلاثة فرق؛ انتقلت الفرقة الأولى التي كان يقارب عددها نصف العدد تقريبًا إلى باحة جويدا للانضمام إلى الجنود هناك، وأحاطت الفرقة الثانية الساحة الشمالية من الخارج ليتركوا أماكنهم للقادمين من أهل جويدا ممن أرادوا حضور مراسم إعدام أولئك الوحوش، فيما أحاطت الفرقة الثالثة منتصف الساحة المُعلق به الأقفاص في إطار دائري من سبعة صفوف .. فكرتُ وأنا أقف بالصف الأخير منها أن عمي قد اختار الساحة الشمالية بعيدًا عن باحة جويدا لتنفيذ الإعدامات تجنبًا لانتقال أرواحهم الشريرة إلى أي جنين بالخطأ هناك حتى وإن كان من أهل چارتين الأشراف، لتذهب أرواحهم النجسة بلا رجعة عن بلادنا .. قبل أن ينصبّ تفكيري على آدم الذي كان يقف بالصف السابق لي أمامي مباشرة يحملق في الأقفاص المتأرجحة والنسالى الثائرين بداخلها دون

أن يحرك رأسه يمينًا أو يسارًا. لأضع يدي على مقبض سلاحي تحسبًا لأي رد فعل غير متوقع منه مع تنفيذ الإعدامات.

بعدها بدأ الأهالي يحضرون إلى الساحة جماعة وراء الأخرى حتى صار زحامهم من خلفنا في وقت قليل يشبه زحام باحة جويدا في أيام الغفران، ثم زادت الجلبة بينهم بعض الشيء عندما طالبهم الجنود بالتنحي جانبًا كي يفسحوا طريقًا للأحصنة التي دلفت إلى الساحة وهي تجرّ في بطء شديد عربات خشبية تحمل كل واحدة منها قدرًا معدنيًا كبيرًا يتصاعد البخار من أعلاه، قبل أن يوقف كل قائد عربته أسفل قفص من الأقفاص المعلقة، ويحرر أحصنتها ويبتعد بها جانبًا، وقتها تزايدت الهمهمات المترقبة بين صفوف الحاضرين الذين تدافعوا من خلفنا كي يروا ماذا ينوي عمي فعله.. بعدها صعد عمي وأبي وباقي السادة إلى المنصة الخشبية ودقّت الموسيقا، فهدأ الجميع إلا النسالى المحتجزين في الأقفاص والذين واصلوا طرق الأقفاص بأغلالهم الحديدية في هياجٍ شديد دون توقف حتى صدر الزئير الأول بينهم بالأعلى.

نظرت إلى آدم في توتر، كان يواصل تحديقه فيهم فحسب، بعدها أجفل جسدي عندما انطلق زئيرٌ آخر من قفص آخر، وفي غضون دقائق كانت الأقفاص جميعها تضج بالزئير الغاضب ومعه تزايد تأرجح الأقفاص في الهواء، ودبّ السكون الحذر أرجاء المحتشدين، فتحرك عمي إلى مقدمة المنصة، ووقف على حافتها، ودون أن يقول شيئًا أشار إلى مساعديه لبدء الإعدامات، فانزلقت الأحبال جميعها في وقت واحد إلى أسفل لتنغمس الأقفاص رويدًا رويدًا داخل القدور ويتعالى زئير النسالى الصارخ إلى حد غير مسبوق فيما انقطعت الأحبال وتأرجحت يمينًا ويسارًا مع الهواء، وقتها أخرجت سلاحي الناري وأمسكت مقبضه بأيدٍ مرتعشة وأنا أنظر

إلى آدم الذي كان يواصل تحديقه نحو القدور، إلى أن تحوّل الزئير من أمامنا إلى صرخات مكتومة تلاشت شيئًا فشيئًا حتى سكنت تمامًا، حينذاك تلفتُّ خلفي، كانت الوجوه جميعها تنظر بأنفاس محتبسة ووجوه حمراء مترقبة إلى قدور الأحماض المذيبة خاصةً بعدما تحرك ثلاثة جنود بأمر من عمي كيوان إلى إحدى العربات التي تحمل أحد القدور، وقاموا برفع ذراعيها عاليًا لينزلق القدر إلى مؤخرتها ويسقط مرتطمًا بالأرض، ويُسكب ما بداخله أمام أعيننا لنجده الحمض فقط دون أي بقايا من النسلي الذي غُمس فيه قبل دقائق، فصاح الجميع من خلفي مُهللين، قبل أن تدق موسيقا الفرح وتزداد معها الهتافات الحماسية من الحاضرين دون توقف، حينها أخفيتُ سلاحي أسفل قميصي مرة أخرى، ومددت يدي وربتُّ بها على كتف آدم الواقف أمامي فأجفل، فقلت فرحًا في صوت عالٍ لعله يسمعني بين ذلك الضجيج:

- هذا صنيعك يا صديقي، لولاك ما رأينا هذه الفرحة على وجوه أهلنا مرة أخرى.

ابتسم وقال مازحًا بالصوت العالي نفسه:

- ما زلت أصر على ترقيتي.

فضحكت واحتضنته في سرور.



في ذلك اليوم استمرت احتفالات الجنود في ساحتنا حتى وقت متأخر من الليل بعدما انصرف أهل جويدا إلى بيوتهم، ولم تعرف مجالس المعسكر ليلتها إلا قصصًا كانت تتمحور جميعها عن لعنة باحة جويدا الغاضبة التي حوّلت النسالى الزائرين إلى بشريين مرة أخرى، فأخذت

أتنقل أنا وآدم من مجلس إلى آخر لنستمع إلى هرائهم ونحن نكتم ضحكاتنا داخل أنفسنا بعدما سمعنا أكثر من عشرة قصص مختلفة عمّا حدث صباح اليوم، حتى سأم آدم تلك القصص وأخبرني أنه سيخلد إلى النوم، فأومأت إليه برأسي إيجابًا وأكملت جلوسي مع جماعة أخرى من الجنود كانت لديهم قصة جديدة عمّا حدث ذلك الصباح، إلى أن جاءني جندي وهمس في أذني بأنه قادم إليّ من معسكر الباحة، فنهضت وتحركت معه بعيدًا عن الجنود، فقال بأن هناك من تم احتجازها في معسكرهم بعدما اُعتقلت وهي تتفحص جثث قتلى النسالى، ولا تنطق بشيء بعد اعتقالها سوى أنها تريد مقابلتي، فتعجبت من حديثه وسألته عاقدًا حاجبيَّ:

- من هي؟!

قال الجندي:

- الحقيقة أنني لم أرها .. قال قائدي الذي أرسلني بأنها لا تقول أي شيء سوى أنها تعرفك، وتلح بشدة كي تراك.

ضممت شفتي تعجبًا، ثم نظرت إلى الخيمة التي ينام فيها آدم وأخرجت زفيري، وقلت للجندي رغم إرهاقي الشديد:

- حسنًا، سآتي معك.

ثم ركبت حصاني وتحركت به وراء حصان الجندي نحو باحة جويدا، وحين وصلت إلى هناك وعبرت باب الخيمة المحتجز فيها تلك المرأة فوجئت بأنها السيدة سيرين، فتسمرت مكاني من المفاجأة غير المتوقعة، فقالت بمجرد أن رأتني:

- زهير.

قلت في نبرة مستغربة:

- خالتي سيرين!!

ثم أدركت في بالي سريعًا لماذا كانت تتفحص جثث قتلى النسالى، فسألتها في مكر:

- ما الذي جاء بكِ إلى جويدا؟!

نظرت إلى الجنود من خلفي وسكتت، فأمرتُ الجنود بأن يغادروا، فقالت على الفور بعدما غادروا:

- لقد كنت في الساحة الشمالية اليوم، ورأيت النسالى المحتجزين في الأقفاص وما حدث لهم.

ثم سكتت من جديد، فنظرت لها كي تكمل، فتابعت:

- لا بد وأنك تتذكر الأحلام التي كان يحكيها لك آدم في السنوات الماضية.

هززت رأسي إيجابًا، فقالت:

- إن صديق عمرك يحمل روحًا من تلك الأرواح الشريرة .. ثارت مرة من قبل عند قدوم النسلية الشريفة وطفلها إلى بريحا، وثارت مرة أخرى في الليلة التي سبقت يوم الغفران الماضي.

لم أنطق بشيء وتركتها تكمل:

- لقد رحل آدم عن بريحا بعدما ثارت روحه في المرة الأخيرة ولم يعد لها مرة أخرى .. لا بد وأنه انضم إلى النسالى في الجنوب.

وابتلعت ريقها وقالت:

- أرجوك، اجعلهم يتركوني لأذهب إلى الجنوب للقائه، لحسن الحظ لم أجده مع من تم إعدامهم في الساحة اليوم وكذلك لم أعثر على جثته بين قتلاهم، إنه يحبني كثيرًا وأستطيع أن أقنعه بأن يقنع الباقين منهم بالعدول عن حربهم، إنه يحمل روحًا من أرواح قادتهم كما حدثني أبي الذي كان يعرف عنهم الكثير، إنه من أخبر عمك السيد كيوان بأمرهم.

ثم اختلط صوتها بالبكاء وهي تقول:

- أرجوك يا زهير، لن تريد أن يموت صديقك مثل هذه الميتة التي رأيتها في الساحة اليوم، إنه ليس شريرًا كما تعرف ويحبك كثيرًا، وأنت تعلم أكثر مني أنه على استعداد بأن يضحي بحياته من أجلك إن استلزم الأمر ذلك، أرجوك اجعلهم يتركوني فحسب لأمضي إلى وديان النسالى، إنه بحاجة إلينا ..

وزادت في البكاء وهي تقول:

- أرجوك، إنه كل ما لديّ في هذا العالم.

قلت:

- ومن يعرف أيضًا عن أمر آدم خالتي سيرين؟

قالت على الفور وهي ترتشف دموعها:

- لا أحد، كان أبي فحسب، لا أحد يعرف سوانا.

وعادت إلى النشيج مرة أخرى وهي تقول:

- سأستطيع إقناعه بترك النسالى والرحيل معي عن چارتين بأكملها، إنني أعرفه جيدًا وأعرف أنه لن يريد أبدًا أن يكون في الجانب المعادي لك.

وسكتت وهي تمسح دموعها، ثم نظرت في عيني تنتظر إجابتي، فكرت قليلًا ثم قلت لها في صوت هادئ:

- لقد دمر عمي الموانئ، لن يستطيع أحد الرحيل عن چارتين خالتي سيرين، ولكن لا تقلقي سيدتي، لن نكون أعداءً في المعركة، إننا في الجانب ذاته، ولا يحتاج الأشراف إلى آدم كي يقنع النسالى بأن يعدلوا عن حربنا، سيحمي آدم هذا البلد وسيحقق لنا انتصارنا العظيم طالما لا يعرف أنه نسلي.

وتابعتُ بالنبرة الهادئة ذاتها بعد لحظة من السكوت:

- أو يُوجد من يخبره بأنه ينتمي إلى النسالى.

ثم أخرجتُ سلاحي الناري وصوّبته نحو رأسها، فنظرت في عيني بحدقتين متسعتين غير مصدقة، فقلت:

- آسف خالتي، لكنها الحرب.

بعدها ضغطت زناد سلاحي للمرة الأولى في حياتي، لتسقط أمامي في لحظتها جثةً مهشمة الرأس.



(٩)

غفران

لم أعرف ماذا حدث، انقلب كل شيء من حولي فجأةً، وفي لحظات وجدت كل من يرافقونني من النسالى الزائرين قد استعادوا صورتهم البشرية وسقطوا جميعًا في صرخات مكتومة بين قتلى وجرحى بينما كان الأشراف يواصلون الاقتراب منّا في سرعة وثقة كبيرتين يقودهم ذلك الفتى الجريء الذي أبطأ فجأة من سرعة حصانه قُبيل أن يحدث كل هذا، حاولت أن أُبطئ من حصاني أنا الأخرى لأستدير به من أجل الفرار، لكني لم أمتلك الوقت الكافي لذلك، وفي لحظة واحدة وجدت نفسي أسقط إلى الأرض لأرتطم بها بقوة وأتدحرج إلى الأمام بضعة أقدام بعدما تلقى حصاني طلقة نارية بين عينيه أردته قتيلًا في الحال، حاولت أن أنهض وأصوِّب طلقاتي النارية نحو الفرسان الراكضين تجاهي لكنَّ ساقي المُصابة من أثر سقوطي لم تُعنِّي، فارتكزت بيدي وركبتيَّ إلى الأرض وأنا أنظر إلى قتلى النسالى من حولي، ثم أغمضت عيني بعدما بدأ داخلي يشعر بأن الموت صار وشيكًا للغاية هذه المرة حتى وإن استطاعت البطانة المعدنية لسترتي الصمود أمام البارود الذي أصابها، إلى أن فوجئت بيعقوب الذي لم يفقد هيئته الزائرة ينتشلني فجأة قبل وصول الأشراف إليّ، ليضعني أمامه على حصانه ويحيط رأسي بذراعيه

القويتيّن قبل أن ينطلق بي بعيدًا وأنا أنظر غير مصدّقة إلى ذلك الشاب الذي هبط عن حصانه وظل ينظر نحونا ونحن نهرب دون أن ينضم إلى باقي الفرسان الذين واصلوا مطاردتنا بأسلحتهم النارية، حتى اختفى عن عيني فدسست رأسي في صدر يعقوب العاري الذي غُطي بدمائه الساخنة، ولم أرفعها عنه مجددًا إلا عندما قفز بحصاننا فوق متراس حديدي مرتفع أتاح لنا وجوده مزيدًا من الوقت للفرار من ملاحقينا الذين انتظروا إزالته عن الطريق.

بعدها خرجنا من المدينة إلى الصحراء الجنوبية عبر المدخل الذي كنت قد دلفت من خلاله مع النسالى، وأكملنا ركضنا نحو ممر جبلي في سرعة ظلت تتباطئ شيئًا فشيئًا مع خوار قوى يعقوب، ليقترب منّا فرسان الأشراف بصورة كبيرة من جديد، حتى صارت المسافة بيننا وبينهم لا تتجاوز أمتارًا قليلة فواصلوا تصويب نيرانهم إلى جسد يعقوب الذي بدأ يفقد سيطرته على حصانه ويضعف صوت زئيره بشكل ملحوظ، قبل أن يميل جسده فجأة إلى الجانب الأيمن من صهوة الحصان، فأمسكت به في صعوبة وأنا أصرخ فيه بأن يتماسك، لكنه سقط في النهاية بجسده الثقيل إلى الأرض بعدما أفلت من يدي، فالتفّ الفرسان بأحصنتهم من حولنا وتوقفوا عن إطلاق بارودهم، واقترب أحدهم للإمساك بلجام حصاني وكأنهم غيّروا قرارهم بقتلنا وعزموا على أسرنا مع قوانا الخائرة، لكننا تفاجئنا جميعًا بمن ظهروا فجأة ليهاجموهم دون رحمة .. كانوا الثلاثة النسالى الزائرون الذين كلّفتهم بإبعاد عربة الذخيرة إلى خارج جويدا، وكأن انفصالهم عنّا في ذلك الوقت قد جنّبهم لعنة التحول إلى بشريين، ليقفزوا من حصانٍ إلى آخر في سرعة رهيبة وينقضّوا بمخالبهم القاتلة على أعناق الفرسان ويسقطوهم جميعًا صرعى دون مقاومة تُذكر ..

لأهبط بعدها عن حصاني وأتحرك بصعوبة إلى يعقوب الذي كان يلتقط أنفاسه بمشقة في تلك اللحظات، قبل أن يستحيل إلى هيئته البشرية عندما وجدني بجواره ليظهر جسده الشاحب الممزق بثقوب الطلقات النارية، وقال بصوت خافت ضعيف:

- كنّا على وشك الانتصار لولا ظهور من يحمل روحًا للشامو بين الأشراف.

وتابع وهو يتألم:

- لم يستطع التحكم فيَّ، لكني لم أستطع منع النسالى الزائرين من الخضوع لأوامره، كانت روحه أقوى مني كثيرًا، إنني آسف لأنني خذلتكِ سيدتي.

مسحت على وجهه وأنا أقول له بعينين دامعتين:

- لم تخذلني يا يعقوب، لقد قمت بدورك على أكمل وجه.

أومأ برأسه إيجابًا، قبل أن تتوقف أنفاسه فجأة، وتكتسب شفاه اللون الأزرق مفارقًا الحياة.

عضضتُ على شفتي وأنا أغلق عينيه الغائرتين، ثم التفتُّ إلى الثلاثة الزائرين الذين وقفوا من خلفي ينظرون إليه في وجوم وصمت، وقلت لهم بصوت تخنقه الدموع:

- فلنحمل قائدكم معنا إلى الجنوب قبل أن يهاجمنا المزيد من الأشراف.

بعدها حمل أحدهم جثة يعقوب أمامه على حصانه، وجرّ الآخر حصانين من أحصنة الفرسان القتلى، فيما افترق عنّا الثالث بعدما

كلّفته بإخفاء عربة ذخيرة المدفع بمكان يستطيع الوصول إليه فيما بعد على أن يلحق بنا بعد انتهائه من ذلك، ثم امتطيت حصانًا أنا الأخرى وانطلقت مع النسليين الباقيين معي في صمت إلى الجنوب.

كان جسدي يتحرك جنوبًا أما عقلي فلم يغادر جويدا للحظة، وظلّت كلمات يعقوب الأخيرة لي تدق في رأسي طوال الطريق بالتزامن مع تفكيري في نظرات ذلك الفتى الذي أبطأ من سرعة حصانه حين اندفع الفرسان بأسلحتهم تجاهي للنيل مني، ليصرخ صوت في داخلي بأن ذلك الفتى هو ما لم أتمنه أن يكون قط .. آدم .. حامل روح نديم، وإن ظلّ جانب صغير في عقلي يردّد بأن هناك ثلاثة من حاملي أرواح الشامو لم نجدهم بعد.

لم يخرجني مؤقتًا من تفكيري إلا رائحة العشب المحترق وآثار البارود التي فاحت بقوة عند اقترابنا من مشارف الجبال الحمراء، وقتها تقدّم النسلي الذي يحمل جثة يعقوب ليقود طريقنا مُطلِقًا زئيره بين الحين والآخر في انتظار أن يأتينا أي زئير من الجانب الآخر يكون دليلنا إلى مكان باقي النسالى، وواصلنا طريقنا عابرين ممرات تلك الجبال واحدًا وراء الآخر، حتى جاءتنا الاستجابة الأولى أخيرًا مع اقتراب الشمس من غروبها، فأطلق النسليان الزائران معي زئيرهما الطويل بقوة، قبل أن نندفع بخيولنا في اتجاه ذلك الزئير الذي تواصل حتى أبصرت أولى النسالى الزائرين المتناثرين فوق قمة أحد الجبال، حينذاك سكت الزئير، وهبط إلينا أحدهم وامتطى حصانًا مما كانوا معنا، وتقدّم بنا عابرًا ممرين آخرين، لتظهر أمامي أولى تجمعات النسالى والذين نهضوا من

أماكنهم وحدّقوا بوجوه غير مصدقة فيَّ وفي جثة يعقوب الممزقة بثقوب الطلقات النارية ولسان حالهم يسأل عن باقي النسالى الزائرين الذين رحلوا معي فجرًا .. فأكملت طريقي في صمت مطأطأة الرأس حتى ظهر أمامي فاضل وريان والثلاثة شبان حاملو أرواح الشامو، وقتها هبطت عن حصاني بمساعدة أحد مرافقيّ من الزائرين والذي حملني ودلف بي إلى أقرب الخيم المنتصبة هناك بعدما أعاق تورم ركبتي قدرتي على السير.

سألني فاضل الذي دخل خلفي إلى الخيمة مع الباقين:

- ماذا حدث؟!

قلت في نبرة حزينة:

- لقد مات كل النسالى الزائرين الذين رافقوني عدا ثلاثة منهم .. احمرّت وجوههم جميعًا، فأسرع منذر متسائلًا:

- كيف حدث ذلك؟!

مسحت دمعة كادت تفر من عيني .. ثم بدأت أحكي لهم ما حدث، إلى أن أنهيت حديثي قائلة بنبرة جامدة:

- لن ننتصر أبدًا طالما يقف حامل تلك الروح إلى جانبهم.

خيّم عليهم الصمت كأن صاعقة أصابتهم، إلى أن قطع ريان ذلك الصمت وقال:

- سنجد حلًا سيدتي، أعدكِ بذلك، كان حظنا جيدًا بعدم استماعكِ إليّ عندما أردت الهجوم على جويدا بكل ما لدينا من نسالى زائرين.

بعدها طلب الانصراف نيابة عن الباقين، فأومأت إليه برأسي إيجابًا دون أن أنطق، فانصرفوا جميعًا عدا فاضل الذي بقي لفحص إصابات ركبتي اليمنى والتي آلمتني كثيرًا حين شرع في تحريك ساقي، حتى انتهى فقال:

- إنها كدمة قوية، سيزول ورمها في غضون أيام، سأعطيكِ أعشابًا تخفف من ألمها.

أومأت برأسي إيجابًا، فقال وهو يفحص الساق الأخرى:

- لم يكن عليَّ فقد آدم في ذلك اليوم.

قلت:

- لسنا متأكدين أنه هو بعد.

ثم تابعت مناقضة نفسي:

- كان الأجدر بي ألا أقتل نديم.

ربَّت على ساقي برفق وهو ينهض، وقال:

- لقد علَّمتِ الجميع ألا ييأسوا، وخسارة جولة لا تعني خسارة حربنا، استريحي الآن وسنجد حلًا قريبًا.

ثم همَّ بالمغادرة، فقلت:

- بمجرد أن يزول ورم ركبتي سأذهب مرة أخرى إلى كهف العجوز خشيب.

أومأ برأسه إيجابًا، ثم غادر.

في اليوم التالي عرفت أن فاضل وريان قاما بتقسيم النسالى إلى ثمانِ مجموعات تناثرت جميعها على مسافات متباعدة في الممرات الجبلية الضيقة التي انتشرت بكثرة في تلك المنطقة، قاد فاضل الجماعة التي كنت فيها، وقاد ريان أبعد الجماعات عنا، أما منذر وأصيل وبيجاد فقادوا ثلاثة جماعات مختلفة، بينما تولى ثلاثة من الزائرين الأقوياء غير حاملين لأرواح الشامو الثلاثة جماعات المتبقية، ومع ظهيرة ذلك اليوم بدأت جماعتنا تتحرك جنوبًا بعد سماعنا زئيرًا طال بعض الشيء، عرفت من فاضل بعدما ردّد أحد النسالى الزائرين معنا زئيرًا مشابهًا له بأنها إشارة التواصل المتفق عليها بين الجماعات للتحرك جنوبًا في آنٍ واحد بعدما أُجهضت خطة الطبول في يومها الأول مع وصول بعض قذائف مدافع الجدار إلى أقصى الجنوب.

في خلال ثلاثة أيام كنا قد تحركنا ستة أميالٍ فقط .. كان ذلك منطقيًا جدًا مع قلة الخيول معنا ووجود الكثيرين من الأطفال والنساء برفقتنا. في تلك الأيام لم تتوقف مدافع الأشراف عن قصفها الشديد لأماكن كانت بعيدة عنا نسبيًا، وإن كانت تقترب منا كل يوم عن اليوم الذي يسبقه، ثم هدأ قصفهم بعض الشيء في اليوم السادس وتوقف تمامًا مع اليوم التاسع، لم أعرف إن كان ذلك بسبب تحرك جنودهم جنوبًا أم أنهم قرروا أن يحافظوا مؤقتًا على ذخائر مدافعهم التي كانت تقلّ يومًا بعد يوم مع كل قذيفة تخطئنا.

في مساء اليوم العاشر أخبرت فاضل وهو يفحص ركبتي التي زال عنها ورمها بأن يستعد للذهاب معي إلى كهف العجوز خشيب، وافقني دون نقاش، واقترح بأن يرسل إلى منذر لينضم إلينا في طريقنا إلى هناك لعل روحه الزائرة ترشدنا إلى شيء قد يغفل عنه كلانا، فوافقته

على الفور بعدما كنت أفكر في الأمر ذاته، ثم تحركنا سويًا في فجر اليوم التالي يرافقنا منذر بهيئته البشرية ونسلي آخر زائر لا يحمل روحًا للشامو كان اسمه «بكير» قررتُ انضمامه إلينا في اللحظات الأخيرة قُبيل مغادرتنا من أجل تأمين خيولنا أثناء وجودنا داخل الكهف وتنبيهنا في حال اقتراب أي صحبة غير مرغوب فيها، لنسلك طريقنا إلى الشمال يقودنا فاضل الذي بدا ًأنه لم ينسَ الطريق إلى ذلك الكهف وإن مرّ على زيارته الأخيرة له ست سنوات كاملة.

إلى أن وصلنا إلى الجبل الذي قادنا إليه العجوز من قبل، فهبطنا عن أحصنتنا وتركناها برفقة بكير، وبدأت الصعود إلى الأعلى بمساعدة منذر، خلف فاضل الذي سبقنا بأقدام .. قبل أن ينتظرنا عند مدخل الكهف لندلف إليه سويًا، وهناك التقط الشعلة المُطفأة المُعلقة على جداره وأشعل نيرانها، ثم قادنا في حذر عبر الشق الضيق المنحدر إلى سرداب الكلمات المنقوشة، ومنه تقدمنا إلى غرفة الجداريات فغمس شعلته في أحواض الزيت الممتدة على امتداد حوائطها فاشتعلت نيرانها لتضيء الغرفة بالكامل في لحظات، لأجدها كما تركناها قبل ست سنوات، لا ينقصها إلا تمثال النسلي الزائر الذي حصلت سبيل على رأسه، ثم علّق فاضل شعلته جانبًا، وقال وهو ينظر إلى الجداريات:

- ظننت أن كيوان دمر الكهف وما يحتويه.

قلت:

- كان سيفعل ذلك كخطوة أخيرة بعد معرفة كل أسراره، لكن يبدو أن مفاجأة هجوم النسالى يوم الغفران الماضي سبقت تلك الخطوة منه.

كان منذر الذي ظلّ على هيئته البشرية ينظر في تمعن وشرود شديد إلى كل جدارية من الجداريات حولنا وخاصةً الجدارية التي رُسمت بها باحة جويدا وهي محتشدة بنساء النسالى الحوامل وأقفاص الحيوانات المفترسة، قبل أن يتحرك إلى الجدارية المُكبل بها النسلي الزائر بسلاسل جنود الأشراف ويتوقف أمامها، ثم وجدته يستحيل إلى هيئته الزائرة، وأكمل تحديقه في تلك الجدارية بأنفاس صاخبة، فسألته:

- أتتذكر شيئًا يخص هذه الجدارية؟

هز رأسه نافيًا، قبل أن يتحرك من أمامها ويعود ليحدّق في الجداريات الأخرى من جديد، ثم عاد إلى هيئته البشرية مرة أخرى، وقال في خيبة أمل:

- لم أتذكر أي شيء.

نظرت إلى فاضل في إحباط وقلت له:

- لا بد أن هناك نصًا في هذا الكهف نُقش عن صاحب تلك الروح التي تتحكم في كل هذا العدد من النسالى الزائرين.

قال:

- أتعتقدين أن خُشيب قد أخفى علينا شيئًا هامًا مثل هذا؟

أومأت برأسي نافية، وقلت:

- كان ذلك الرجل خبيثًا، لكن داخلي يميل أكثر إلى أن شيئًا قد فاته هنا هو الآخر.

قال:

- لسنا ماهرين في قراءة الچارتينية القديمة، ستأخذ مننا قراءة هذه النقوش وقتًا طويلًا قد يكون كافيًا لوصول الأشراف إلى النسالى في الجنوب.

زممت شفتي وقلت وأنا أنظر إلى جدارية النسلي المكبل التي عاد منذر ليقف أمامها:

- أعلم أنها محاولة يائسة، لكن دعنا نحاول بقدر ما نستطيع.

وأردفت إليه:

- على كل منّا أن يحمل شعلته، ويحاول افتراض أماكن النقاط فوق الحروف أو تبديل ترتيبها لاستنباط كلماتها.

لم يبدُ على وجهه الاقتناع، لكني لم يكن في يدي حيلة أخرى، فتابعتُ محاولةً تحميسه:

- هيا، لا يجب أن نضيع وقتًا.

وحملت شعلةً مُطفئة كانت معلقة على الحائط، وغمستها في حوض النيران فأُشعِلت، ثم اتجهت إلى سرداب جانبي، فتحرك فاضل هو الآخر وحمل شعلته التي تركها قبل دقائق، وتقدم إلى السرداب نفسه الذي توغلت بداخله، قبل أن ينعطف إلى أحد الممرات المتفرعة منه، فيما تركنا منذر بغرفة الجداريات لعل معجزة تحدث وتتذكر روحه شيئًا.

مرَّ الوقت ساعة وراء الأخرى وأنا أتنقل بين الجدران أحاول تفحص النقوش وفهمها، لكني لم أستطع قراءة كلمات جملة واحدة، ربما كان الأمر سيصبح سهلًا إن كانت تلك الكلمات مكتوبة بقلم على ورقة أما أن

تكون محفورة منذ مئات السنين بآلة حادة على جدار صخري فكان التنبؤ بها في ظل تشابه رسومات كثير من الحروف شيئًا يقارب المستحيل، ثم ناديت فاضل بعدما تملّك اليأس مني، وسألته إن كان قد توصل إلى شيء، فقال أنه لم يصل إلى شيء مطلقًا، فأخرجت زفيري في إحباط، وتنقلت بشعلتي إلى ممر آخر لعل جدرانه تحمل حروفًا وكلمات تكون أسهل مما قابلتني، لكنها لم تختلف كثيرًا عن غيرها، فعلّقت شعلتي جانبًا، وجلست على الأرض في ذلك الممر، بعدها جاء فاضل وجلس بجواري هو الآخر، فقلت في يأس:

- ظننت أنني قد أجد شيئًا تركه لنا مشيّدو هذا الكهف، لكن يبدو أنهم وجهوا رسائلهم إلى علماء الچارتينية القديمة فحسب.

وتابعت:

- كان خشيب محقًا عندما قال أنه أفنى عمره في فك لغز هذه النقوش.

ولاصقت برأسي الجدار من خلفي، وأكملت وأنا أنظر نحو النقوش:

- كان محقًا كذلك في اعتقاده باستحالة أن يكون مشيدو هذا الكهف من النسالى، كانوا أفرادًا من الأشراف تعلموا الچارتينية القديمة جيدًا.

وأغمضتُ عيني وقلت بنبرة مستسلمة:

- كان عليهم أن يسهّلوا الأمور قليلًا إن أرادوا في داخلهم مساعدة النسالى حقًا.

قال فاضل في هدوء:

- يكفي أننا عرفنا من هذا المكان سر الأرواح الزائرة في داخل أجساد النسالى.

قلت في وجوم شديد:

- لا بد وأن نجد طريقةً لمنع استجابة النسالى لحامل تلك الروح، وإلا ستعود الحرب من جديد لتكون بين جيشين .. أحدهما مسلح بأفضل العتاد، والآخر من العُزّل الذين لا يعرفون عن فنون المعارك شيئًا.

قال وهو ينظر إلى نقوش الجدار أمامنا:

- يراودني شعور كبير بأن ذلك الفتى هو آدم.

وأضاف بعدما نظر إليّ:

- قد نمتلك فرصة حقيقية إن استطعنا التسلل إليه وإخباره بحقيقته.

قلت:

- ربع فرصة، إن كونه آدم يبقى احتمالاً واحدًا من بين أربعة احتمالات مع عدم ظهور الثلاثة حاملي أرواح الشامو المتبقيين من الثمانية.

قال:

- وليكن .. إنها نسبة معقولة في ظل هزيمتنا المتوقعة.

وتابع بعد لحظة:

- لا يعرفني الكثيرون من الأشراف ولا أحمل وشمًا، ماذا لو استطعت التسلل إلى جيشهم لأصل إلى ذلك الفتى؟ إن كان آدم سيتذكرني.

قلت:

– فكرت كثيرًا في ذلك الأمر بالليالي الماضية، لكن ضع نفسك مكان كيوان ومعك سلاح بأهمية ذلك الفتى، هل ستسمح باقتراب أي شخصٍ غريب منه؟! إنه أهم للأشراف الآن من باحة جويدا، سيقتلونك لا محالة قبل أن تقترب منه ..

وأضفتُ بنبرتي اليائسة التي لم أستطع التخلص منها:

– وقد يكون شخصًا آخر في النهاية، ونخسرك أنت أيضًا إن كشفك أحدهم.

فنظر إلى النقوش أمامنا من جديد، ثم قال:

– إذن، ليس هناك أمل لانتصارنا في هذه الحرب إلا قتل ذلك الفتى.

وتابع بصوت هادئ بعدما سكت للحظة:

– حتى وإن كان آدم.

أومأت برأسي إليه موافقة له، وقلت وأنا أنهض من جلستي:

– فكرت في ذلك أيضًا، لكن السؤال الأهم الذي يجب أن نبحث عن إجابته، كيف نستطيع الوصول إليه بين تلك الآلاف من جنود الأشراف؟

نهض هو الآخر وقال:

– نعم، هذه هي الإجابة التي لا بد وأن ننقّب عنها جيدًا في أعماق عقولنا.

وتمتم إلى نفسه وهو يلقي نظرة أخيرة على النقوش:

– مقتل رجل واحد يساوي نجاة الآلاف من الموت.

ثم حمل شعلته من جديد وتحرك أمامي، فحملت شعلتي وسرت من خلفه من أجل مغادرة الكهف، وفيما كنا نعود عبر السرداب للوصول إلى غرفة الجداريات حيث تركنا منذر، توقفت مكاني مستغربة عندما لمع شيء كان يقبع في ممر جانبي مع ضوء شعلتي، فقلت لفاضل في استغراب:

- انتظر.

ثم تقدمت في حذر نحو ذلك الشيء، وقربت شعلتي منه فوجدته وعاءً معدنيًا صغيرًا يترسب في قعره بقايا من طعام، فالتفتُّ في دهشة إلى فاضل الذي اقترب مني وأخذ ذلك الوعاء ومد يده إلى بقايا الطعام ليتحسسها بأطراف أصابعه، ثم قرّبها من أنفه وشمّها، وقال:

- لم يمضِ على وجود هذا الطعام هنا أكثر من بضعة أيام.

وتابع متسائلًا في تعجب بالغ:

- ألم يُؤخذ العجوز خشيب إلى وادي حوران يوم الغفران الماضي؟!

نظرت إليه في التعجب ذاته، قبل أن يكمل تساؤله:

- أم أن هناك شخصًا آخر ترك هذا الكهف قبل قدومنا؟!!



(١٠)

غفران

قلت لفاضل:

– ربما استطاع خشيب الهروب من جنود الأشراف أثناء الفوضى التي أصابت جويدا يوم الغفران الماضي.

ضمّ شفتيه ثم قال بنبرة حائرة وهو يقلّب الوعاء بين يديه:

– ربما ..

ثم تحرك إلى داخل الممر مقربًا شعلته من الأرض بحثًا عن أي شيء آخر قد يؤكد لنا أنه ذلك العجوز، فتقدمتُ من خلفه باحثة بعيني أنا الأخرى، حتى وصلنا إلى نهاية الممر من غير أن نجد شيئًا، فسألته:

– هل تعتقد أن خشيب قد يساعدنا في البحث بين نقوش الكهف للوصول إلى ما عجزنا عن إيجاده ..

قال:

– علينا التأكد أولًا بأن صاحب هذا الوعاء هو خشيب، ليس غيره.

أومأت برأسي موافقة له، ثم خرجنا إلى الممرات المجاورة ودلفنا إليها واحدًا وراء الآخر باحثين في أرضها عن أي شيء قد يرشدنا إلى

صاحب وعاء الطعام .. إلى أن انتهت ممرات ذلك الجانب فعدنا إلى غرفة الجداريات من أجل إكمال بحثنا في الجانب الآخر منها .. لكن التعجب قد أصابنا بعض الشيء عندما لم نجد منذر، فناديت:

- منذر.

فلم أسمع إلا صدى صوتي يجيبني، ناديت مرة أخرى بصوت أعلى، فلم تأتنا أي إجابة، فنظرت إلى فاضل في تعجب يشوبه قلق، ثم تحركت بشعلتي إلى الباب المجاور لجدارية النسلي المُكبل والذي لم نكن قد فحصنا السراديب المتشعبة وراءه بعد، وقلت لفاضل الذي تقدم ورائي:

- لا بد وأنه هنا بمكان ما، ربما لا يصله صوتنا مع تشعبات السراديب الكثيرة بهذا الجانب.

وناديت من جديد، فبدأ فاضل في النداء هو الآخر، لكن نداءنا لم يلقَ إجابة واحدة، فواصلنا تقدمنا في حذر نفحص الممرات الجانبية على نحو سريع بدون الوصول إلى نهايتها، متجاهلين أمر وعاء الطعام مؤقتًا، إلى أن وصلت إلى الغرفة الدائرية التي رأيتها من قبل مع العجوز خشيب، تلك الغرفة التي رُسمت على كامل محيط جدرانها الجدارية العظيمة لجيش النسالى الزائرين، وهناك تسمرت مكاني بمجرد أن خطوت إلى داخلها بعدما وجدت منذر راكعًا على ركبة واحدة بهيئته الزائرة، ومُحنيًا رأسه في خضوع شديد أمام تلك الجدارية دون أن يصدر حركةً واحدة أو ينتبه إليّ أو إلى صوتي.

وقتها جاء فاضل إلى جواري ونظر إليه في دهشة قبل أن يناديه باسمه في صوت خفيض لكنه لم ينتبه إلينا .. لم أفهم حينذاك إن كان ما نراه يحدث أمامنا طقوسًا خاصة بالنسالى الزائرين لم نرها من قبل أم أن

هناك شيئًا ثمينًا كنا على أعتاب اكتشافه. حاولت أن أتقدم إليه لكن فاضل أمسك بيدي كي أتوقف وأتركه ينتهي مما يقوم به، فلزمت مكاني وواصلت وقوفي الصامت بجوار فاضل في انتظار انتهائه مما يفعله، ثم تنبهت بعدها إلى أنه يرتكز باتجاه معين أمام جانب الجدارية الذي رُسم فيه قائد النسالى الزائرين واقفًا أمامهم على رابية عالية رافعًا يده اليمنى بقبضة محكمة إلى السماء، فنظرت حينها بطرف عيني إلى فاضل الذي كان ينظر محدقًا في الجدارية هو الآخر، وكأنه كان يفكر فيما بدأ عقلي يفكر فيه.

لم يكن ذلك الخضوع الغريب الذي نراه من منذر أمام ذلك القائد المرسوم يحمل لعقلي إلا تفسيرًا واحدًا، أن تلك الجدارية لم تكن مجرد تخيل مرسوم لجيش النسالى حين تثور أرواحهم كما ظن العجوز خشيب، بل يبدو أنها رُسمت نسخًا لمشهد حقيقي حدث في يوم من أيام الماضي وأن ذلك القائد الذي يقف أمامهم بشموخه العظيم لا يحمل روحًا للشامو فحسب، بل بدا أنه يمتلك من القيادة والقوة ما يجعل الباقين خاضعين له، حينذاك تسارعت دقات قلبي عندما خطر في بالي أنه وإن كان بين الأشراف من يحمل روحًا زائرة تستطيع التحكم في مئات النسالى إلى الحد الذي يلقون فيه بأنفسهم إلى التهلكة طاعةً لأوامره فلن تكون إلا روح ذلك القائد، بعدها تناهت إلى مسامعي كلمات فاضل التي أكملت دائرة التفكير داخل عقلي عندما غمغم إلى نفسه بصوت مسموع وهو يحدق في الجدارية:

- النسلي الزائر الأول!!

بعد دقائق وجدنا منذر يرفع رأسه للمرة الأولى منذ دخولنا الغرفة، ثم التفت ناحيتنا ونظر إلينا بعينيه الحمراوين متعجبًا كأنه تفاجأ من وجودنا، قبل أن ينهض ويتحرك نحونا، فسألته على الفور:

- ماذا هناك يا منذر؟!

أكمل طريقه إلى خارج الغرفة بأنفاسه الصاخبة دون أن يعيرني أي اهتمام .. ثم استحال إلى صورته البشرية بعد ابتعاده عن الغرفة بخطوات .. فأعدت سؤالي إليه:

- ماذا هناك؟!

فالتفت إلينا وقال:

- لقد أعادت هذه الغرفة بعض الذكريات التي تحملها روحي فجأة إلى ذاكرتي.

وتابع بوجوم لم أره على وجهه من قبل:

- إن هناك خطأ ما، إن سيدي يقف بالجانب الخاطئ من المعركة ..

فسأله فاضل في ترقب:

- تقصد ذلك القائد الذي يقف أمام النسالى؟

أومأ برأسه وقال:

- نعم، لا يستطيع غيره فعل ما حدث للنسالى الزائرين قبل عشرة أيام.

فسأله فاضل من جديد بنبرة الترقب ذاتها:

- كيف يستطيع إخضاع النسالى إلى هذا الحد؟

صمت قليلًا ثم قال:

- إنه سيد أرواحنا، لقد اتخذت أرواح النسالى الزائرين عهدًا قديمًا بطاعة أوامره أيًا كانت، لم يُحَل من هذا العهد إلا أصحاب أرواح الشامو الذين لا يخضعون لأحد، لذلك لم يستجب له يعقوب.

فقلت:

- منذر، هل حضرت لك هذه الذكريات بعد رؤيتك لهذه الجدارية أم أنك قرأت هذا على أي جدار منقوش هنا؟

قال:

- حين رأيت الجدارية ومضت بعض المشاهد في رأسي.

فنطقت إليه بما كنت أفكر فيه ليؤكد لي ظنوني:

- هذا يعني أن هذه الجدارية ليست مجرد صورة تعبيرية رسمها شخص ما تخيّل جيش النسالى الزائرين اعتمادًا على الجدارية المُكبل بها النسلي؟

سكت مفكرًا ثم هزَّ رأسه نافيًا، وقال:

- إنها مشهد حقيقي، كنت ضمن الواقفين بين النسالى في ذلك اليوم.

نظرنا إليه غير مصدقين، وأسرع إليه فاضل متسائلًا:

- تقصد أن النسالى الزائرين قد ثارت أرواحهم من قبل تحت قيادة ذلك القائد؟!

قال:

- نعم، لكن ذاكرتي لم تستدعِ شيئًا أكثر من ذلك، حاولت أن أتذكر أي تفاصيل أخرى لكني فشِلت.

قلت:

- هل تستطيع معرفة نفسك بينهم؟

قال:

- نعم.

فقلت:

- أرجوك .. تعالَ معي.

ثم دلفت إلى الغرفة مرة أخرى، فدلف من ورائي هو وفاضل، فسألته وأنا أنظر إلى النسالى المرسومين:

- أيهم أنت؟

فاقترب من الحائط ودون تردد أشار إلى نسلي زائر كان يقف بالصف الأول أمام الرابية التي يقف عليها قائد النسالى، وطرق عليه بإصبعه وهو يقول:

- هذا.

فنظرت إلى النسلي الزائر الذي أشار إليه، لم يكن يشبهه على الإطلاق، كان ذلك منطقيًا في ظل انتقال الروح من جسد لآخر، لكني فحصت تفاصيل جسده جميعها بدقة حتى وصلت إلى ما كنت أسعي إليه من سؤالي عن معرفته لحامل روحه بين الواقفين عندما تنبهت إلى سوارٍ كان يلتف حول ذراع النسلي الذي أشار إليه يتدلى منه نابٌ كبير، وبعدها نظرت إلى مجاوريه بالصف الأول والذين حملت أذرعتهم السوار ذاته، وقلت مغمغمة:

- أربعة.

ثم تفحصت بعيني على نحو سريع كافة النسالى المرسومين بحثًا عن آخرين يحملون ذلك السوار، لكني لم أجد غيرهم، فقلت لفاضل بعدها:

- إنهم أربعة فقط!

نظر فاضل إلى الجدارية، فتابعت وأنا أشير إليهم واحدًا وراء الآخر:

- الذين يلتف السوار حول أذرعتهم.

ونظرت لمنذر وسألته وأنا واثقة بأن إجابته ستتفق معي:

- حاملو أرواح الشامو، أليس كذلك؟

هز الشاب رأسه إيجابًا، فتساءلت إليهما بعدها متعجبة:

- لماذا لم يُرسم ثمانية مثلما قالت الجداريات؟!

ووجهت سؤالي إلي منذر:

- أين الباقون؟!

قال:

- لم أتذكر شيئًا عن ذلك اليوم إلا ذلك الاصطفاف أمام القائد.

فنطق إليه فاضل بما غمغم به قبل قليل:

- النسلي الزائر الأول، أليس كذلك؟

قال منذر:

- بلى، كانت روحه أقدمنا.

قلت:

- ألم تختفِ روحه كما ظنت الجداريات، وظن النسالى قبل إتمامهم العهد الدموي؟!

قال:

- لا أعرف شيئًا عن هذا سيدتي.

فقال فاضل:

- لا عليك، ألم تتذكر مرة واحدة لم يستطع فيها ذلك القائد إخضاع النسالى الزائرين؟

قال:

- نعم لم أتذكر.

قلت:

- أرجوك .. حاول التذكر، قد يجنبنا هذا هزيمة قاضية.

قال وهو ينظر إلى القائد المرسوم:

- إن قواه تفوق قوة كل نسلي زائر.

وتابع:

- ليت الأمر يتوقف عند أمره للنسالى الزائرين بالتخلي عن أرواحهم الزائرة فحسب، بل لديه المقدرة على أمرهم بمهاجمة باقي النسالى البشريين إن فطن حامل روحه لهذا الأمر.

وأضاف بنبرة واجمة وهو ينظر في أعيننا:

- في لحظة ما، قد نجد أنفسنا في مواجهة الأشراف والزائرين غير حاملي أرواح الشامو إن التقي الجيشان، وقتها لن يستمع باقي الزائرين إليَّ أو إلي أصيل أو إلى بيجاد كما حدث مع يعقوب ..

زمَّ فاضل شفتيه، ثم قال:

- إذن كما اتفقنا، لا مفر من قتل حامل تلك الروح وإلا كان البديل موتنا جميعًا.

هز الشاب رأسه موافقًا، ثم نظر إلى صورة قائده من جديد، وقال:

- بل يجب علينا الإسراع في وضع خطةٍ محكمة لذلك.

بعدها غادرنا الكهف عائدين جميعًا إلى الجنوب عدا بكير الذي تركناه بأسفل ذلك الجبل من أجل ترقب ظهور محتمل لصاحب وعاء الطعام وإحضاره إلينا سواءً كان العجوز خشيب أو غيره، على أن يقتات من الصيد إن استلزم هذا الأمر مزيدًا من الأيام، ثم حلَّ الظلام من فوقنا، فقاد منذر طريقنا حتى وصلنا إلى جماعتنا من النسالى مع منتصف الليل، فوجدنا ريان ومعه أصيل وبيجاد بهيئتهما البشرية في انتظارنا .. وعلى الفور سألنا بيجاد:

- هل وجدتم شيئًا؟!

فبدأ منذر يحكي عما رآه وتذكره، فارتسمت علامات الدهشة على وجه أصيل وبيجاد، فسألتهما:

- ألا تتذكرا شيئًا عن هذا؟

أومآ برأسيهما نافيين، وقال أصيل:

- ربما نتذكر شيئًا إن رأينا تلك الجدارية.

قلت:

- حسنًا، سيرافقكما الطبيب إلى هناك بعد نيله قسطًا من الراحة.

أومآ موافقين ومعهما فاضل، فتابعت:

- لكن مع وجود احتمالية كبرى بعدم تذكركما شيئًا أكثر مما تذكره منذر، علينا التفكير الآن في كيفية قتل حامل تلك الروح قبل أن يسلب النسالى الزائرين قوتهم في ميدان المعركة.

نظروا إليَّ جميعًا صامتين، حتى نطق ريان:

- إنني أمتلك خطةً بالفعل قد نستطيع من خلالها اصطياد ذلك الشاب أو قتله.

قبل أن يصمت لهنيهة ويكمل وهو ينظر إلى الثلاثة حاملي أرواح الشامو:

- لكنها قد تكلفنا نصف ما لدينا من نسالى زائرين.



(١١)

غفران

سألت ريان على الفور:

- ماذا تعني؟

تحرك أمامنا في الخيمة، ثم قال:

- سأشرح لكم ما أقصده.

ثم وجَّه سؤاله لي:

- لماذا نجا الزائرون الثلاثة الذين عادوا معكِ من جويدا؟

قلت:

- لم يكونوا معنا أثناء مواجهتنا لحامل روح القائد.

قال وهو يواصل تحركه أمامنا:

- هذا يعني أن ذلك الشاب لا يؤثر إلا في النسالى الزائرين الذين يراهم بعينيه.

فكرت قليلًا، ثم قلت:

- أعتقد ذلك.

قال:

- إننا نتفق جميعًا أن خطوتنا الأولى للانتصار على الأشراف هي تحديد حامل تلك الروح واقتلاعه من بينهم، سواءً بقتله أو اصطياده، ولكن ذلك لن يتم إلا من خلال معركة أخرى مفتوحة بيننا نجد فيها طريقة للكشف عن هويته دون أن نخسر ما تبقى لدينا من النسالى الزائرين.

قلت:

- هذا صحيح، لكن تطبيقه على أرض الواقع غير مناسب، إن أقرب ممر جبلي إلى جويدا يفصله عن الباحة مساحة شاسعة من الأرض المسطحة المكشوفة، يستطيع من خلالها حامل تلك الروح التأثير على كافة النسالى الزائرين قبل أن يقتربوا من سور الباحة الجنوبي.

فجلس على مقعد بجواره وقال:

- لم أقل أن المعركة ستكون في جويدا هذه المرة، ستكون بأرضنا في الجنوب.

فقال فاضل:

- كيوان ليس بهذا الغباء كي يطاردنا بجيشه في الشقوق والممرات الجبلية الملتوية التي نتنقل عبرها الآن وهو يعلم أننا أكثر خبرة وتحمّلًا من جنوده في مثل تلك الظروف، سيتركنا نواصل تحركنا وتنقلاتنا مكتفيًا بإطلاق قذائفه المطاردة لنا حتى يموت الكثيرون مِنَّا تعبًا أو يصيبنا اليأس في النهاية فنهاجم جويدا فيحقق نصره المُنتظر على أعتابها بمساعدة حامل روح القائد النسلي.

وصمت للحظة ثم تابع:

- لن يدفع بجيشه جنوبًا إلا مع استقرارنا جميعًا بمكان يؤمِّن لنا المعيشة لفترة طويلة، وفي الوقت ذاته لا يستطيع الوصول إليه بقذائفه، وكما رأينا مدى مدافع الجدار الرهيب، لن يفلت سهلًا واسعًا أو واديًا من قذائفها مهما ابتعدنا جنوبًا.

أخرج ريان من ثيابه صدفة بحرية في حجم كف يده، ثم تحرك نحونا ووضعها على الطاولة أمامنا، وقال:

- إن هناك منطقة مؤمَّنة بالفعل من مدافع الجدار.

نظرنا إليه جميعًا مشدوهين، فأخرج الكتاب الذي كان برفقته دائمًا، وبحركة واحدة فتح أوراقه إلى صفحة مطوية في منتصفه فردَها أمامنا لتظهر لنا خريطة مرسومة، وقال:

- خريطة چارتين وتضاريسها.

نظرنا بتمعن إلى الخريطة التي رُسمت، كما عرفتها دومًا، كحبة كمثرى مقلوبة تنبعج من الشمال لتحتوي مدن بلادي الأربعة عشرة وتضيق جنوبًا عند صحرائها الجنوبية التي تحتوي وديان النسالى والجبال الحمراء والجبال الصلدة، وقال بعدما التقط الصدفة البحرية بيده اليسرى وأشار إلى موضع في الخريطة بيده اليمنى:

- لقد عُثر على هذه الصدفة هنا.

نظرت إلى الموضع الذي أشار إليه وتعجبت بعدما كان بعيدًا كل البعد عن المناطق المجاورة لجدار چارتين القريبة من بحر أكما، فتركناه يكمل ما يقصده دون أن يقاطعه أي مِنّا، فأشار إلى خط رفيع منبثق من آخر

سميك طويل يشق الخريطة من جنوبها إلى شمالها كنت أعرف أنه يمثل النهر الجاف، وقال:

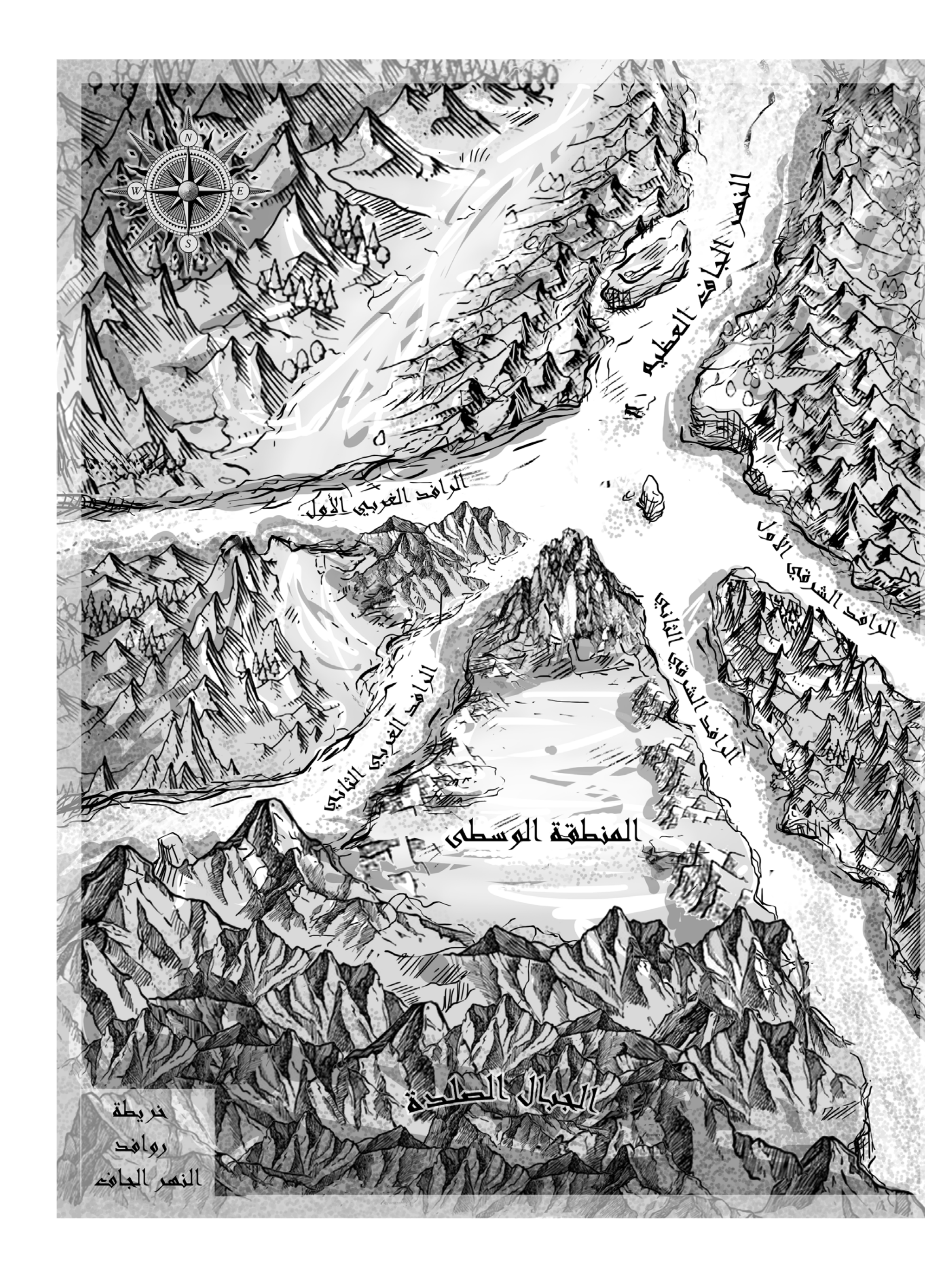
- أترون روافد النهر الجاف التي تلتحم لتكوِّن مجراه العظيم؟ إنَّ كل رافد منها ترك بعد جفافه أخدودًا عميقًا قد يصل عرضه إلى ثلاثين مترًا على الأقل.

وحرك إصبعه على الخريطة وأكمل:

- كما ترون، إنها أربعة، اثنان ينحدران من ناحية الشرق، وآخران ينحدران من ناحية الغرب، يلتقون جميعهم عند هذه النقطة التي تمثل بداية النهر الجاف العظيم الذي يواصل طريقه حتى شمال چارتين.

ثم أشار إلى أول الروافد غربًا وقال:

- كانت جماعتي تتحرك في الأيام الماضية بالممرات والدروب الجبلية القريبة من ذلك الرافد دون دراية مني، ثم فقدنا أحد الأطفال قبل خمسة أيام، تسلل من أمه مع غروب الشمس للحاق بأرنب بريٍّ حتى فقد جماعتنا، وقتها أوقفت التحرك جنوبًا من أجل البحث عن ذلك الطفل إلى أن وجده أحد شبابنا مع عصر اليوم التالي في أخدود ذلك الرافد، ظن ذلك الطفل أنني غاضب منه لتسببه في تأخير تحركنا يومًا كاملًا، فجاء إليَّ مع أمِّه وأعطاني هذه الصدفة قائلًا ببراءة أنه عثر عليها وأراد إعطاءها لي كي تكون تميمة حظي في حربنا ضد الأشراف، ولتؤنس وحدتي ليلًا عندما أضعها على أذني وأستمع إلى صوت البحر بداخلها، لم أعطِ اهتمامًا للأمر في البداية وأمرت الجميع بالاستعداد للتحرك



N
W
E
S
النهر الجاف العظيم
الرافد الغربي الأول
الرافد الشرقي الأول
الرافد الغربي الثاني
الرافد الشرقي الثاني
المنطقة الوسطى
الجبال الصلدة
خريطة
روافد
النهر الجاف

مع صوت الزئير القادم، لكني نهضت من نومي ليلتها فجأة بعدما وثب إلى رأسي تساؤل عن وجود ذلك النوع من الصدف البحري في رافد جاف كان من المفترض أنه نهر للمياه العذبة، وظل ذلك التساؤل يؤرق نومي ليلتها إلى أن أخذت كتابي وركبت حصاني مع الفجر وتحركت إلى أخدود ذلك الرافد .

كان تلٌّ منخفضٌ يمتد على امتداد ضفة الأخدود فعبرته قبل أن أترجل وأنزل جارًّا حصاني إلى قاعه العميق بحذر، ثم تحركت متفحصًا أرضه الجافة بدقة شديدة إلى أن عثرت على بعض الأصداف البحرية صغيرة الحجم محشورة في شقوقها الضيقة، وقتها تأكدت أن الطفل قد عثر على هذه الصدفة هناك بالفعل، فركبت حصاني وركضت به في ذلك الرافد تجاه الجنوب متجاوزًا انعطافاته واحدًا وراء الآخر لعلي أجد شيئًا يفسر لي سبب وجود ذلك الصدف بأرضه إلى أن توقفت بعد أربعة أو خمسة أميال عندما وجدت الرافد أمامي مغلقًا بما لم أتوقعه قط، سدٌ صخري كبير مبني بصخور ضخمة مستطيلة الشكل تشبه الصخور ذاتها التي تبني جدار چارتين، لتصبح حيرتي حيرتين.

تركت حصاني وصعدت مترجلًا إلى ضفة الرافد لأرى ما يوجد بعد ذلك السد، كانت تكملة قصيرة له لا تتجاوز نصف ميل، كان عمقها يتدرج إلى أعلى حتى اندمج مع جبل صخري منحدر أدركت أنه منبع ذلك الرافد قبل آلاف السنين، هبطت بعدها إلى حصاني مرة أخرى لأقطع الأخدود عائدًا بالاتجاه الذي جئت منه وعبرت المكان الذي بدأت بحثي عنده، وأكملت طريقي حتى وصلت إلى النقطة التي التقت فيها الروافد الأربعة لتصب في النهر الجاف،

ثم انحرفت إلى أخدود الرافد الثاني، وفي أرضيته الجافة لمحت أيضًا بعض الصدف والمحار البحري، فأكملت طريقي فيه إلى أن وصلت في النهاية إلى سد صخري مماثل لسد الرافد الأول.

عزمت وقتها أن آتي إليكما مباشرةً لأخبركما عما عثرت عليه لعل أحدكما يرى في ذلك شيئًا هامًا، لكني قررت إكمال بحثي أولًا بالرافدين الآخرين لعلي أعثر على شيء إضافي يكون ذا جدوى، وأكملت طريقي عبرهما بالفعل، كانا أكثر عمقًا من أول رافدين وأكثر طولًا لكنهما كذلك انتهيا بسدين مشابهين للسدين الآخرين.

حينذاك وقفت أمام سد الرافد الأخير الذي ارتفع أمامي لعشرة أمتار تقريبًا وأخرجت زفيري في خيبة أمل بعدما لم يهدني تفكيري لأيِّ شيءٍ ثم استدرت كي أعود أدراجي، لكن بعد ركوبي حصاني للحظة خطرت في بالي هذه الخريطة التي تفحصتها عديد المرات بالشهور الماضية، ربما لم تُظهر بوضوح تلك الروافد لكنها بالطبع أظهرت امتداد النهر الجاف من الجنوب إلى أقصى الشمال حيث مصبه في بحر أكما قبل بناء جدار چارتين، وفكرت فيما أخبرني به الطبيب عما رآه في كهف العجوز قبل ست سنوات بشأن تحمل النسالى عبء بناء جدار چارتين وعبء إصلاح جزئه المنهار، حينها نظرت إلى السد المبني من خلفي وإلى صخوره الضخمة التي تختلف في هيئتها عن صخور ضفتي الرافد والتلال القابعة على امتدادها، وبدأت أفكر في أمر لم أفكر فيه من قبل وهو كيف استطاع النسالى بأجسادهم البشرية نقل صخورٍ تزن الواحدة منها أطنانًا من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال،

ليثب في رأسي افتراض فسَّر لعقلي وجود الصدف البحري في أرض الروافد، وهمست إلى نفسي متعجبًا:

- لقد استعملوا مياه بحر أكما نفسها لملء النهر الجاف من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، لذلك بنوا تلك السدود التي أغلقت الروافد كي يحكموا ملئها، لقد استعملوا مجرى النهر الجاف وروافده كقناة بحرية صناعية تجري فيها السفن حاملة للصخور من الجنوب إلى الشمال.

هنالك وجدت الأفكار والتساؤلات تنهال على رأسي تباعًا، ليدق في بالي التساؤل الأهم:

إن كانت سواحل چارتين التي تمتد لمئات الأميال قد أُحيطت بأكملها بجدار شاهق يبلغ ارتفاعه عشرات الأمتار من تلك الصخور، كم احتاج النسالى من جبالٍ لإتمام بنائه؟ عشرات الجبال؟ مئات؟ آلاف؟ مناطق جبلية اُقتلعت قلعًا من الأرض؟!

ونظرت حينها إلى خريطة كتابي مرة أخرى باحثًا عن منطقة بين الجبال الصلدة تكون خاوية من الجبال، أو بمعنى أدق أُخليَت من الجبال، لكني لم أجد، فقلت لنفسي:

ربما لم تكن الخمسون عامًا التي يعيشها الأشراف والعشرينات التي يعيشها النسالى كافية لإعادة النظر في صحة هذه الخريطة.

ومع تلك التساؤلات التي دبت في داخلي ركضت بحصاني نحو الجبال الصلدة القريبة من منابع النهر الجاف لأتنقل بين ممراتها التي تنحدر مباشرةً إلى روافد النهر دون أي عوائق طبيعية ورأسي تتخيل أمامي قدامى النسالى وهم ينقلون الصخور

عبرها إلى الروافد، وواصلت تنقلي من ممر إلى آخر ومن منبع إلى آخر، لأجد في النهاية بين الرافدين الأوسطين ملاذنا الآمن أيها السادة، الجبال المُقببة.

نظرت إليه في تعجب واستغراب شديدين، وسألته:

- الجبال المُقببة؟!

قال:

- نعم، لم تخطئ الخريطة هنا، توجد جبال الصخور الصلدة بالفعل دون فراغات بينها، لكنَّ افتراضي كان سليمًا تمامًا أيضًا، لقد جوّف النسالى باطن تلك الجبال لاستخدام صخورها في بناء الجدار مع الحفاظ على إطارها الخارجي السميك، لتبدو من الخارج سلسلة من الجبال المتجاورة لكنها مجوّفة من الداخل ذات مداخل ضيقة، تستطيع القول بأن كل جبل منها يخفي في باطنه ساحة واسعة تسع لمئات النسالى.

حين ترون تلك الجبال ستدركون من اللحظة الأولى أن أسقفها السميكة ستصمد أمام ألف قذيفة من مدافع الجدار، لم يكن النسالى القدامى ماهرين للغاية في بناء جدار چارتين فحسب بل صنعوا بمهارتهم الفريدة ما قد ينجي أحفادهم بعد قرون.

وابتسم وهو يضيف:

- لسنوات طويلة ابتعدتْ وديانُ النسالى وسكانُها عن هذه المنطقة بأكملها ظنًا منهم أن صخورها صلدة كالفولاذ لا تصلح لإقامة أيِّ حياة، لكنَّ الخبرَ السارَ أيُّها السادة أنَّ هناك ينابيعَ عذبةً تشبه

ينابيع المياه الموجودة في وديان الجبال الحمراء ، أعتقد أنَّ النسالى القدامى قد استعملوها خلال سنوات عملهم الكثيرة هناك.

ثم قال بصوت هادئ مبتهج:

- لم نعد في حاجة إلى الترحال من مكان إلى آخر، وإن كان كيوان ينتظر استقرارنا في مكانٍ يؤمّن لنا المعيشة لفترة طويلة كي يهاجمنا بجيشه فسنحقق له هذه الرغبة.

انفرجت أسارير وجهي من الثقة التي كان يتحدث بها ، فقال بحماس أكبر:

- والآن نأتي للجزء الهام أيها السادة.

فانتبهنا إليه جميعًا، فأخرج ورقة أخرى مُطبَّقة وفردها أمامنا، فوجدنا بها خطوطًا مرسومة بدا أنه قام برسمها قبل مجيئه إلينا ، وقال:

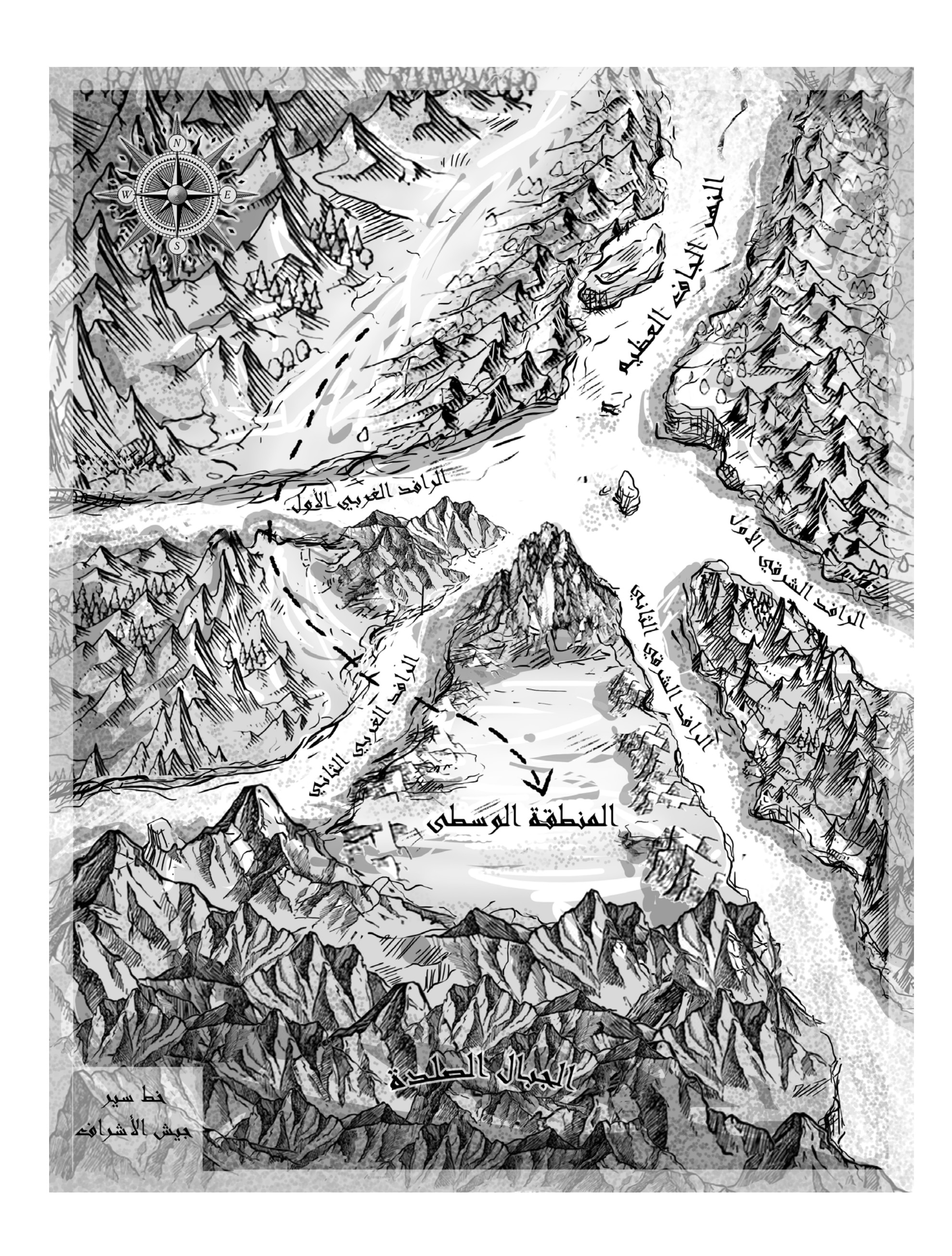
- لقد قمت برسم مُخطط واضح لروافد النهر الجاف وانعطافاته كي تفهموا جيدًا ما سأتحدث بشأنه.

وأكمل وهو يشير إلى رسمته كقائد حربي:

- كما أخبرتكم، يتكون المجرى الرئيسي للنهر الجاف من التحام أربعة روافد كبرى، اثنان غربًا واثنان شرقًا، لكن هناك شيئين هامين للغاية لا بد وأن نأخذهما في الاعتبار.

ونظر إلينا وقال:

- الشيء الأول، أن التلال الصخرية المنخفضة تمتد على جانبي كل رافد منها ، نعم ارتفاعها أقدام فقط عن الأرض، لكنها تبقى تلالًا في النهاية، وسنعود إلى أهمية هذه النقطة لاحقًا.


N
W
E
S
النهر الجارف العظيم
الرافد الغربي الأول
الرافد الشرقي الأول
الرافد الشرقي الثاني
الرافد الغربي الثاني
المنطقة الوسطى
الجبال الصلدة
خط سير
جيش الأشراف

ثم عاد وأشار إلى الرافدين الأوسطين برسمته، وقال:

- الشيء الآخر، أن المنطقة الواقعة بين الرافدين الأوسطين ذات أرض منبسطة بعض الشيء، تتسع كما ترون مع ابتعاد الرافدين عن بعضهما جنوبًا إلى أن تنتهي بالجبال الصلدة التي توجد بينها جبالنا المقببة.

وطرق بإصبعه بين الرافدين الأوسطين مؤكدًا وقال في حماس:

- ستكون هذه المنطقة هي أرض معركتنا القادمة مع الأشراف، وسنسميها من الآن المنطقة الوسطى.

ثم سألني فجأة:

- إن فعلها كيوان وأتى بجيشه إلى الجنوب بعد فشل قذائفه في تهديدنا، فماذا سيكون غرضه الأوحد من ذلك؟

قلت:

- قتلنا بالطبع.

قال مؤكدًا:

- إبادتنا عن بكرة أبينا دون ترك نسليٍّ واحد على قيد الحياة هذه المرة، لذلك سيكون همُّه الأول هو حصارناً داخل الجبال المقببة حتى يتمكن حامل الروح الزائرة معه من تحويل كافة النسالى الزائرين إلى نسالى بشريين ومن ثّمَّ الفتك بنا.

في البداية سيؤّمن طريقه قبل الوصول إلينا، ستدك مدافعه كل الدروب والممرات الجبلية المؤدية إلى المنطقة الوسطى، وكذلك المنطقة الوسطى نفسها تحسبًا لأي فخ ننصبه له، لكن بمجرد

وصول جيشه إلى منطقة الروافد لن يستخدم مدافعه مجددًا، إما لكونه مع المهاجمين أو لوجود معهم صاحب الروح النسلية الذي تبقى قيمته أقوى من قيمة المدافع، وهنا سيكون وجود حامل الروح بينهم ميزة لنا، لذا لن نبرح مكاننا بالجبال المقببة وسننتظر فحسب لنرى أي طريق سيسلكه للوصول إلينا، إما أن يأتي بقواته من دروب مختلفة لتحاصر منطقة الروافد بأكملها ومن ثَمَّ يحاصر الجبال المقببة وسيكون ذلك خطأً ساذجًا منه لأن دروب هذه المنطقة ستؤدي به في النهاية إلى تقسيم جيشه إلى أربعة جماعات على الأقل مفصولة بالروافد الجافة التي يصل عرض الواحد منها ثلاثين مترًا، وهذا سيسهل علينا الأمور كثيرًا، ولا أتوقع أنه سيفعلها.

لكن ما أتوقعه أنه سيأتي بجيشه عبر درب واحد يؤمنه جيدًا بمدافعه قبل وصوله تجنبًا لتفرقة جيشه بين الدروب، وقتها سنواصل انتظار تقدمه إلينا دون أي رد فعل على الإطلاق، حتى يصل إلى هنا.

قالها وهو يشير إلى الرافد الغربي الأول، وأكمل:

– سيبدأ جيشه في العبور عبر الرافد الأول ثم الرافد الثاني ليصل إلى منطقتنا المفضلة، المنطقة الوسطى، لفرض حصاره على الجبال المقببة.

ونظر إلينا وقال:

– مع أعداد جيشه الكبيرة، ستأتي اللحظة التي ينقسم فيها جيشه مع عبور أول المجموعات الرافد الثاني إلى ثلاثة أجزاء، الجزء

الأول عبر إلى المنطقة الوسطى بالفعل، الجزء الثاني لا يزال بين الرافدين الأول والثاني، والجزء الأخير لم يعبر الرافد الأول بعد، وفي هذه الوقت ستدق طبولنا العظيمة ليكون ظهورنا الأول على الساحة.

سنستخدم ذخائر المدافع المحترقة التي خزنّاها في ملاذنا الأول بسهل الجبال الحمراء عبر أحصنة تحملها وتركض في تلك الأخاديد لتُحدث تفجيرًا عظيمًا بكل رافد يزيد من إبعاد جماعاتهم عن بعضها البعض، وفي هذه اللحظة سيظهر رجالنا في جماعات ثلاثة تواجه كل جماعة واحدةً من جماعات الأشراف، حينها سينصب تركيز كلِّ جماعة منهم على مواجهة النسالى القادمين إليهم أكثر من إكمال العبور إلى المنطقة الوسطى وخاصةً مع استمرار ركض الخيول بالذخائر في الأخاديد.

ونظر إلى الثلاثة شبان حاملي أرواح الشامو، وقال:

- ستكون إحدى الجماعات سيئة الحظ لأنها ستواجه الجماعة التي يُوجد فيها حامل الروح النسلية، لكن مع وجود التلال الممتدة على جانبي الأخاديد لن يتمكن حامل الروح من إبصار كافة النسالى الزائرين وإخضاعهم لتأثيره، ومن ثَمَّ ستصبح لدينا فرصة إهلاك ثلثي جيشهم وفي نفس الوقت نستطيع كشف صاحب الروح الذي سيعمل على التنقل من جماعة لأخرى لإنقاذها من الزائرين، وقتها يتولى منذر وأصيل وبيجاد أمره.

أعلم أن هذه الخطة قد تكلفنا عددًا كبيرًا من الزائرين، لكني أرى أنها أفضل من الانتظار حتى يسلبنا جميع زائرينا.

وسكت، لم ينطق الشبان حاملو أرواح الشامو، أما فاضل فقد بدا على وجهه أنه اقتنع ولو مبدأيًا بخطة ريان، ونطق إليه قائلًا:

- أعتقد أنها بحاجة إلى بعض التعديلات، ربما تطرأ على رؤوسنا أفكار بعد انتقالنا إلى الجبال المقببة.

فنظر ريان إلى النسالى الزائرين منتظرًا تعليقهم، فقال منذر:

- ليس لدي مانع أن أموت في سبيل انتصارنا، وأعتقد أن كل النسالى الزائرين سيتفقون معي.

وصمت للحظة ثم قال:

- قد تكون خطة عظيمة تُحوِّل مجرى الأمور فعلًا، لكنك بنيتها على افتراض تقدم كيوان بجيشه إلينا، ماذا لو لم يأتِ طالما لم نقترب من جويدا من جديد؟

فسكت ريان وكأنه لم يجد جوابًا، فقلت:

- سيأتي، وإن لم يُرِد، سنجعله يضطر إلى المجيء.



(١٢)

غفران

سألني منذر مستغربًا من الثقة الكبيرة التي نطقت بها:

- كيف؟!

قلت:

- على قدر ما اكتسب كيوان من ثقة أهل چارتين بعد انتصاره علينا في المعركة الأخيرة على قدر ما سيمثّل ذلك ضغطًا هائلًا عليه مع كل يوم يستمر فيه وجودنا.

وتابعت مفسرة:

- عامة الأشراف وقد رأوا بأعينهم أن بإمكان جنودهم الانتصار علينا، ومع الرعب الشديد القابع في قلوبهم من زائرينا سيكون كل تأخر من كيوان عن إبادتنا، في نظرهم، تقاعسًا منه، لذا ستكون أولى خطواتنا بعد استقرارنا في الجبال المقببة هي تكثيف ذلك الضغط منهم عليه ليصل إلى الحد الذي يكون فيه زحفه إلينا هو الطريقة المثلى لمنع انفجارهم في وجهه.

ونهضت من جلوسي وتحركت أمامهم، وقلت:

- قبل إنشاء مدرستنا في وادي النسالى كان شبان النسالى يرتكبون أكبر حماقاتهم الإجرامية في مدن چارتين دون أن يعبئوا بالإعدام الذي ينتظرهم في باحة جويدا إن أُمسِك بهم، أليس كذلك؟

أومأوا برؤوسهم متفقين معي، فقلت:

- الآن، وبعد عثورنا على ملاذنا الجديد، حان الوقت لاستعادة بعض من تلك الحماقات لنرسل إلى الأشراف رسالة واحدة ، أننا ما زلنا موجودين، وأن وجودنا هذا سيطول.

ونظرت إلى فاضل وقلت:

- لقد ارتكب كيوان خطأً جسيمًا بتدميره لموانئه وهو يعلم أن بلاده لا تنتج ما يكفيها من غلال وزيوت للمشاعل وتعتمد اعتمادًا كبيرًا على جلبها من البلدان الأخرى ، سيتسلل رجالنا البارعون إلى مدن چارتين البعيدة عن جويدا وسيهاجمون مخازن الغلال بها لإتلافها، كذلك سيهاجمون قوافل الغذاء والزيوت المتنقلة عبر الطرق الممتدة بين المدن لإهلاكها هي الأخرى، ليشعر كل شريف داخل نفسه بأن الأسوأ قادم وأن شبح الجوع والظلام يقترب منهم كل يوم عن اليوم الذي يسبقه طالما نحن موجودون، بمعنى أوضح سنعمل على أن تكون الفترة القادمة بمثابة حرب استنزاف لهم ، وفي الوقت ذاته ستواصل طبولنا العملاقة دقّها جنوبًا مع سكون ليلهم، لنجعلهم نائمين مفتوحي الأعين خوفًا من إغلاقها لحظة لا يفتحونها بعدها أبدًا.

ثم جلست من جديد، وأكملت بصوت هادئ:

- إن العامة عادةً لا يحبون أوقات الحروب التي تحرمهم من ممارسة حياتهم العادية، وفي بلد مثل بلدنا تحدد قواعدها عمرًا لا يتجاوزه أحد سيكون كل يوم يعيشونه في ذلك التوتر خطوة إضافية نحو انهيار نفوسهم، لتبدأ ألسنتهم في التذمر والتلاسن عن تقاعس قادتهم وعن عجز مدافع الجدار عن تدميرنا بل وإهدار ذخائرها الثمينة بلا قيمة، سينتقل التذمر بعدها إلى الجنود أنفسهم ليتهامسوا فيما بينهم عن خوف قادتهم الغير مبرر من التحرك جنوبًا، وعمَّا إن كان الانتصار الماضي الذي حققوه انتصارًا حقيقيًا أم حدث صدفة، ومع كيوان الذي نعرفه ونعرف مدى اغتراره بنفسه لن يسمح لأحد بأن يشكك في قدراته القيادية، سيتحرك بجنوده إلينا ومعه حامل الروح النسلية ليسكت كل الألسنة، لتكون معركة كبرى تُحوِّل وجه چارتين إلى الأبد.

سيأتي لا محالة أيها السادة، وحتى تأتي هذه اللحظة علينا أن نستعد لها جيدًا.

ونظرت إلى الثلاثة شبان وقلت:

- سننتقل إلى الجبال المقببة مع شروق الشمس، وبعد استقرارنا هناك سيختار كل قائد منكم من رجاله من لديه القدرة على تنفيذ ما تحدثت بشأنه.

أومأوا جميعًا موافقين، بعدها بقليل غادروا جميعًا الخيمة كي يعودوا إلى جماعاتهم من أجل إخبارهم بالاستعداد للتحرك إلى منطقة الروافد مع شروق الشمس، وكذلك انتقل ريان إلى خيمة الطبيب لينال قسطًا من الراحة قبل انطلاق زئير التحرك.



مع شروق الشمس تحركت الجماعات شرقًا نحو منطقة الروافد متخذين أكثر الممرات ضيقًا وانعطافًا خشية أن تعاود مدافع الأشراف قصفها العشوائي، وهو ما لم يحدث، وواصلت جماعاتنا طريقها دون أي تهديد حتى انخفضت ارتفاعات الجبال بشكل تدريجي ولاحت في الأفق أمامنا منطقة التلال الصغرى، فقال ريان الذي كان يمتطي حصانًا بجواري أنا وفاضل:

- يقع الرافد الأول خلف هذه التلال.

قلت:

- إذن سيمر جيش الأشراف من هذا الدرب الذي نسير فيه في حال مجيئهم إلينا.

قال:

- نعم، أو دعيني أقل على الأرجح.

وأردف وهو يشير جانبًا:

- كما ترون تتناثر التلال بكثرة على جانبي أول الروافد، لن يغامر بعبور الرافد من مكان آخر تحسبًا لتفرقة جيشه بين التلال.

قلت في نبرة متفائلة:

- أتمنى ذلك.

ثم لكزت حصاني بقدمي في حماس ليركض إلى الأمام ويصعد بي تلًا صغيرًا، توقفت بأعلاه عندما ظهر أمامي على بعد أمتار أخدود الرافد الأول بعرضه الواسع وعمقه الكبير، ثم لحق بي فاضل وريان ووقفا بجواري، قال فاضل الذي بدت على وجهه كل علامات الدهشة هو الآخر:

- لو أردنا أن نحمي أنفسنا بحفر خندق يحيط بنا لما استطعنا حفر ربع ذلك العمق والاتساع، تواصل چارتين إبهارها لي.

ابتسم ريان الذي شعر بعظم اكتشافه، وقال في ثقة:

- إنني أثق تمامًا سيدي بأن خطتي ستكون طريقنا للانتصار المحقق على الأشراف.

قال فاضل :

- وأنا أخبرك بأنني صرت أكثر تفاؤلًا الآن .

فقلت:

- حسنًا أيها المتفائلان، لنجعل جماعتنا تعبر في حذر، ولنكن آخر من يعبر إلى الضفة الأخرى.

اتفقا معي في ذلك، وبدأ مرافقونا من النسالى البشريين في اجتياز التلال الصغيرة للوصول إلى ضفة الرافد الجاف والهبوط إلى قاعه الصخري قبل صعود منحدر الضفة الأخرى، أما النسالى الزائرون فقد تولوا أمر عبور عربات الغلال والخيام بعد انتهاء عبور النسالى البشريين، إلى أن انتهى الجميع من العبور فهبطنا أنا وفاضل وريان عن أحصنتنا وبحذر شديد نزلنا إلى قاع الرافد وصعدنا إلى الجانب الآخر ثم عبرنا صف التلال المجاور له، لنواصل تحركنا بعدها مع الباقين إلى التلال المطلة على الرافد الجاف الثاني، لنعبره بالطريقة ذاتها التي عبرنا بها الرافد الأول ونصل إلى المنطقة الوسطى ذات الأرض المنبسطة الواسعة وهناك كان باقي الجماعات في انتظارنا، ثم أشار ريان بعيدًا نحو جبال لاحت في الأفق جنوبًا على بعد لا يقل عن ميلين، وقال في بهجة:

- تقبع الجبال المقببة خلف تلك الجبال.

فصاح شبان النسالى القريبون منا في حماس وفرحة، ولكني على عكس السعادة التي غمرتهم وجدت القلق يساورني بعدما كانت تلك المنطقة منبسطة للغاية وغير محمية بالجبال مثل طرقنا الضيقة الأخرى، وهذا ما يجعل المسافة إلى الجبال التي أشار إليها ريان مجازفة غير آمنة بالمرة من قذائف كيوان إن صادفت واستهدفت هذه المنطقة في تلك الأثناء، لكني فوجئت بريان يكمل حديثه إلينا بنبرة رسمية وكأنه أعد خطة لذلك:

- سيستحيل النسالى الزائرون جميعهم إلى هيئتهم الزائرة ليحملوا من لا يستطيع الركض من النساء والأطفال، ويركضوا بهم دون توقف نحو الجنوب، أما الخيول فستُترك جميعها للنسالى البشريين على أن يركب الحصان الواحد اثنان أو ثلاثة، ستحمل كل عربة من عربات الغلال خمسة أو ستة أفراد إضافيين، أما الباقون فسيركضون معي على أقدامهم إلى أن نصل تلك الجبال، سنتحرك جميعًا بمحاذاة تلال الضفة، هيا أسرعوا.

فانقسم الجميع في دقائق إلى ثلاث جماعات متتالية، الجماعة الأولى من الزائرين الراكضين بالنساء والأطفال وكانت الأسرع بيننا والجماعة الثانية ضمت عربات الغلال وراكبي الخيول، كنت أنا في مقدمتهم بحصاني ومن خلفي ركبت بتول، بينما حمل فاضل امرأة وطفلها خلفه على حصانه، أما المجموعة الأخيرة فكانت من شبان النسالى الأقوياء ممن لا يحملون أرواحًا زائرة وفي الوقت ذاته لديهم القدرة على الركض أكثر من الباقين كان بينهم ريان الذي ترك حصانه لشاب وامرأتين أخريين، لنقطع المنطقة الوسطى نحو الجنوب في تتابع وقلبي يدق قلقًا ورأسي يتلفت بين الحين والآخر إلى السماء خشية أن تلاحقنا القذائف،

حتى تنفست الصعداء مؤقتًا بعدما رأيت جماعة الزائرين تدلف عبر ممر ضيق بين الجبال التي نقصدها قبل أن يخرجوا إلينا مرة أخرى بعدما تركوا من يحملونهم، وأسرعوا راكضين إلى الجماعة الأخيرة ليحمل كل واحد منهم شابًا أو اثنين ويركض به من جديد نحو الجبال، لنصل جميعًا إلى ذلك الممر دون أن نفقد فردًا واحدًا وهناك هبطت عن حصاني وأغمضت عيني وأنا أملأ صدري بالهواء بعدما حلّ القلق عني للمرة الأولى منذ بلوغنا المنطقة الوسطى، بحثت بعيني عن ريان، كان يقف جانبًا يلتقط أنفاسه ويمزح مع جماعته من الراكضين، فسِرت نحوه وسألته:

- كم يتبقى على الجبال المقببة؟

قال:

- حركتنا بمحاذاة تلال الرافد أبعدتنا عنها بعض الشيء، سنقطع هذا الدرب في اتجاه الشرق لمسافة تقارب نصف ميل، وبعدها سنجدها.

نظرت إلى السماء، كانت الشمس تنتصف السماء، فقلت له وأنا أربت على كتفه:

- أحسنت فيما فعلته، هيا لنقودَ النسالى إلى ملاذهم الجديد.

فأومأ برأسه إيجابًا باسمًا، ثم استعاد حصانه من جديد وتحرك بين النسالى إلى مقدمة الحشد، فتقدمت بحصاني وراءه، وتحرك النسالى من خلفنا، لنواصل تحركنا متخذين مسارًا محددًا بين تشعبات الممر المتشابكة، إلى أن صاح ريان في سرور وهو يشير أمامنا:

- إنها هناك، أولى الجبال المقببة.

وانطلق أمامنا بحصانه نحو جبل كبير كان يقبع بالجانب الأيمن من الدرب على بعد ثلاثين مترًا منّا، وانحرف بممر ضيق بجواره، فأشرت للنسالى بيدي كي يتوقفوا عن التقدم ثم انطلقت بحصاني مع فاضل والثلاثة شبان حاملي أرواح الشامو وراء ريان، وانحرفنا بالممر الضيق ذاته والذي التف بنا حول سفح الجبل إلى جانبه الآخر لنجد ريان واقفًا في انتظارنا عند فتحة كبرى تشبه بابًا صخريًا كبيرًا منحوتًا بمهارة في الجبل نفسه، فهبطت مسرعة عن حصاني وخطوت إلى الداخل دون أن أتحدث إلى أحد، لأفتح فاهي دهشةً عندما وجدت باطن الجبل أمامي قد استحال إلى باحة دائرية عظيمة مستوية الأرض يصل قطرها إلى مائتي متر على أقل تقدير، ترتفع جدرانها الصخرية المكونة من الجبل ذاته لتتلاقى بالأعلى في سقف يرتفع عن الأرض عشرات الأمتار تتخلله ثقوب تمرر الهواء والضوء لتضيئها كليًا مع نور النهار، فالتفتُّ إلى حاملي أرواح الشامو وفاضل وريان من خلفي، فوجدت الثلاثة شبان قد انتشروا بأرجائها يتفقدون جدرانها الملساء وأرضها المستوية فيما وقف فاضل بمنتصفها ناظرًا إلى السقف ترتسم على وجهه كل علامات الدهشة، أما ريان فكان يقف على بعد خطوات مني فقلت له في حالة من الانبهار:

- كم جبل لدينا من هذه الجبال؟!

قال فرحًا من نبرتي المبتهجة:

- ما يكفي لإيواء جميع النسالى سيدتي، سبعة وعشرون جبلًا.

فاقترب منا فاضل وقال وهو ينظر إلى ثقوب السقف بالأعلى:

- أعتقد أن هذه الجبال تُكمل قصة جداريات الكهف، يبدو أن النسالى القدامى قد توقعوا خيانة الأشراف للعهد الدموي وفرَّغوا

الجبال من صخورها بهذه البراعة وشيّدوا هذه الباحات من أجل التحصن بها إن لم تثر أرواح زائريهم، لكن الأشراف لم يمهلوهم وباغتوهم باجتياحهم في وديانهم القديمة، لتظل هذه الجبال وباحاتها سرًا طوال هذه القرون.

فقلت بلهجة سارَّة وأنا أنظر إلى الثلاثة شبان الزائرين:

- احتمال وارد حقًا.

وأضفت فرحة:

- لن نجد ملاذًا خيرًا من هذه الجبال المحمية شمالًا وشرقًا وغربًا بأخاديد الروافد الجافة، وجنوبًا بالجبال الصلدة، لقد أنصفت أرض چارتين النسالى من جديد.

ثم اقترب منا منذر وبيجاد وأصيل فقلت لهم في حماس:

- أيها السادة فلنسرع بتوزيع النسالى على باحات الجبال المقببة وخاصةً القريبة من ينابيع المياه قبل حلول الليل.

في ذلك المساء استغرق تقسيم النسالى بين الجبال وقتًا أقل كثيرًا مما كنت أتوقع بعدما أبدى أهل كل وادي من الوديان القديمة رغبتهم في المكوث سويًا نساءً وشبان وأطفالًا، فوافقتهم على ذلك، حتى أن الجبال سُميت سريعًا ليلتها بأسماء وديان ساكنيها، كان نصيب وادينا «وادي النسالى الأكبر» أربعة جبال متجاورة، يجاورنا ثلاثة جبال من نصيب نسالى وادي مُريان، يجاورهم جبلان من نسالى وادي عقيل، يجاورهم نسالى الوادي الغربي، ووُزِّعت أربعة جبال أخرى بين سكان الأربعة وديان

المتبقية، أما جبال الأطراف فتُركت خاوية لتكون أماكن تجمع المحاربين سواءً زائرين أو بشريين حين تدق أبواق الحرب، وتركنا باحة الجبل الأوسط لتكون حانة النسالى الجديدة ومكانًا مجمعًا لتناول الطعام، ثم خلد جميعنا للنوم بعد ذلك اليوم الشاق.

في الصباح التالي كانت المهمة الأولى لكافة النسالى هي تقسيم الباحات بالصخور الصغرى إلى صفوف من غرف متجاورة تشبه في مساحتها أكواخ ودياننا القديمة، يفصل كل صف منها عن الآخر ممر يصل عرضه إلى ثلاثة أمتار، كان فاضل هو صاحب تلك الفكرة، كما اقترح إنشاء كوخ في باحتنا أوسع قليلًا من باقي الأكواخ سُمِّي كوخ القيادة .. أما منذر فاقترح أن تُغلق أبواب الأكواخ بقطع قماشية من أقمشة الخيام كي يستقل كل كوخ بخصوصيته، كذلك اقترح أصيل بناء أحواض كبري لتخزين المياه علي مسافات متساوية أمام الأكواخ، لتصبح الجبال المقببة مع اشتعال المشاعل ليلًا واديًا مجمعًا لكل وديان النسالى.

في تلك الليلة دقت موسيقا رقصة الشامو القديمة في الحانة الجديدة لأول مرة بعد غياب طويل، ليركض الشباب والفتيات من باقي الجبال إلى الحانة صارخين فرحًا، وما لبثوا أن اجتمعوا وتعالت الموسيقا حتى بدأوا رقصتهم المعتادة في ثنائيات وإن تخلى بعضهم عن عصبة عينه القماشية، كنت أنظر أنا وفاضل إليهم في فرح بالغ بعدما كست وجوههم علامات السعادة بعد أيام الترحال الشاقة الماضية، غير أنني لم أرقص معهم هذه المرة، وتحججت إليهم بألم ساقي فيما تراقص فاضل بشعره الطويل مع بعض الفتيات اللاتي لم يتوقفن عن إلحاحهن بطلب الرقص معه، وإن ظلّت عينه مُعلقة بي في خجل وهو يراقصهن.

في النهار التالي بدأ عملنا الجاد من جديد لإكمال ما خططنا له، رحل فاضل مع أصيل وبيجاد إلى كهف العجوز خشيب لعلهما يتذكرا شيئًا كما تذكر منذر، فيما قاد ريان ثلاثين شابًا من راكبي الخيول وانطلقوا شمالاً من أجل إحضار ذخائر المدافع المحترقة المخبأة في كهوف الجبال الحمراء، فكرت أيضًا في إحضار عربة ذخائر مدافع الجدار التي خرجنا بها يوم هجومنا الأخير على جويدا وخبأها النسلي الزائر الناجي بمعرفته، لكني فضّلت عدم المجازفة بالاقتراب من جويدا في هذا الوقت والاكتفاء بذخائر السهل.

أما أنا فركبت حصاني بعد مغادرتهم وركضت به إلى المنطقة الوسطى لأهبط إلى أخدود الرافد الثاني وأواصل ركضي بحصاني عبره وعقلي يفكر مع كل منعطف عن أماكن إخفاء الخيول التي ستحمل الذخيرة في حال اتباعنا خطة ريان، حتى وصلت إلى نقطة التقاء الرافد مع النهر الجاف فصعدت إلى ضفة الرافد الشرقية وانطلقت بمحاذاة التلال عائدة إلى الجبال المقببة، وهناك تجوّلت لبعض الوقت بين النسالى الذين كانوا يكملون بناء الأكواخ المصغرة في باحات جبالهم، ثم توجّهت لأسقي حصاني من ينبوع مائي قريب قبل أن أتحرك لأواصل تجوالي بين الجبال، لكني وجدت منذر يأتي إليّ، ويخبرني بأن ثمّة شيء عليّ أن أراه، فسألته:

- أي شيء؟

قال:

- كنا نتفقد أنا وبعض الشبان الجبال التي لم تُسكن، ووجدنا داخل أحدها ما قد يثبت صحة افتراض ريان بشأن امتلاء النهر الجاف بماء بحر أكما.

وتابع:

- رسمتان، الأولى لمركب وحيد ذي مجاديف كثيرة وطويلة، والأخرى لمراكب كثيرة متراصة، منقوشتان بحرفية في ذلك الجبل، وهناك جملة منقوشة بالچارتينية القديمة لم نستطع قراءتها ..

فتحركت معه على الفور نحو الجبل الذي يقصده، ودلفنا عبر باب باحته، كان أربعة من الشبان يقفون بداخلها، فواصلنا تقدمنا عبر الباحة إلى أن أشار بيده أمامي إلى جدار الجبل الداخلي، وقال:

- هناك.

ثم أشار بعيدًا عمّا أشار إليه بأمتار وقال:

- وهناك.

وأردف:

- كانت الرسومات والكلمات تظهر بوضوح كبير مع سقوط أشعة الشمس عبر الفتحات العليا عليها.

فاقتربت أكثر وأكثر نحو ما أشار إليه، وفي الوقت ذاته اقترب أحد الشبان بشعلة من الجدار لأرى بوضوح ذلك المركب الذي حدثني عنه، حاولت أن أبحث بعيني عن شيء غريب به، لكني لم أجده سوى مركب شراعي منقوش ينزلق من جانبه اثنا عشر مجدافًا طويلًا، فتحركت إلى الرسمة الثانية، كانت مراكب مشابهة للمركب المرسوم وحيدًا لكنها كانت أصغر حجمًا وكثيرة للغاية ومتراصة في صفوف منتظمة كالأسطول، وفي أسفلها نُقشت كلمات الچارتينة القديمة التي حدثني عنها منذر، زممت شفتي في خيبة أمل بعدما لم أستطع تفسيرها أنا الأخرى، ثم قلت لمنذر وأنا أنظر إلى السفن المنقوشة من جديد:

- ألا تتذكر روحك بشأن هذه المراكب؟

هز رأسه نافيًا، فقلت وأنا أنظر إلى الكلمات من جديد:

- كأنهم أرادوا تدوين مرحلة بناء السفن قبل نقل الصخور.

ثم سألته:

- هل هناك رسومات أو نقوش أخرى؟

قال:

- لا، بحثنا بجدران باقي الجبال جميعها قبل مجيئي إليكِ ولم نعثر على شيء.

وتابع:

- لكن إن جد جديد سأخبرك به سيدتي.

فشكرته على ذلك، ثم عدت بعدها إلى كوخي وعقلي ينشغل كليًا بذلك الاكتشاف وتلك الكلمات المبهمة، ولم أخرج منه إلا مع ظهيرة اليوم التالي عندما عاد فاضل وأصيل وبيجاد.

قال فاضل حين لاقيته بمفرده في كوخ القيادة:

- كما توقعنا، لم يتذكر الشابان شيئًا أكثر مما تذكره منذر.

فسألته:

- وصاحب الوعاء .. هل هناك جديد بشأنه؟

قال:

- ما زال بكير هناك في انتظار ظهوره.

زممت شفتي .. ثم قلت:

- عثر منذر داخل أحد الجبال على رسمة منقوشة للمراكب التي حملت الصخور إلى الشمال ومعها كلمات أخرى بالچارتينية القديمة لم نستطع قراءتها.

قال:

- نعم رأيتها قبل مجيئي إلى هنا ولم أستطع تفسيرها أنا الآخر..

وأخرج زفيره وأضاف:

- ليتهم تركوا لنا تلك المراكب، كانت تكفي لحملنا جميعًا إلى خارج چارتين.

ابتسمت وقلت وأنا أجلس:

- وإلى أين نذهب؟

ضحك وقال:

- سنترك بحر أكما يوجّهنا إلى حيثما شاء، سيكون أي مكان أفضل من كيوان وقوانين هذه البلد المجحفة.

قلت باسمة:

- حسنًا، إن قُدِّر ووجدناها يومًا ما سأحقق لك هذا الحلم، بشرط أن تملأ لنا النهر الجاف بالمياه من جديد.

قال ضاحكًا:

- قذيفة واحدة من مدافع الجدار تستهدف جدار چارتين نفسه وسيأتيكِ الماء الذي تريدينه وأكثر.

ضحكت وقلت:

- ونُغرق مدن چارتين وأهلها كي ننجو؟! لا لا .. لن نكون سببًا في قتل الأبرياء أيها الطبيب الشرير.

ضحك وقال:

- لو علم أهل چارتين بحرصك على عدم إيذائهم لصنعوا لكِ تمثالًا في باحة جويدا.

قلت:

- لا أريد شيئًا، أريد أن أنهي القواعد فحسب، وليعش الجميع في سلام.

قال:

- ومن لا يتمنى ذلك؟

ثم بدّل مجرى الحديث وقال:

- متى يعود ريان ورفاقه؟

قلت:

- مع ثقل الذخائر والحذر أثناء نقل عرباتها في أرض الممرات الصخرية غير الممهدة قد يستغرق الأمر عشرة أيامٍ على الأقل.

ثم تابعت:

- بمجرد أن يعود سنبدأ خطة استنزافنا للأشراف.

أومأ برأسه متفقًا معي، قبل أن نخرج سويًا لتفقد النسالى والتحدث إلى الكثيرين منهم وطمأنتهم بأن انتصارنا قادم وإن تأخر .. لم يكن يعلم أحدنا أن ما خططنا له قد صار في مهب الريح، ووجدنا ريان يعود

إلينا بعد أربعة أيام فقط من حديثي أنا وفاضل بدون الذخيرة وبدون نصف العدد الذي غادر به، لينطق إلينا لاهثًا بمجرد أن خرجنا إليه مستغربين من عودته المبكرة ومن الهيئة المتربة التي أتى عليها هو ومن معه:

- لقد تقدم جيش الأشراف إلى الجبال الحمراء، سقط نصف رجالي في كمين أعده لنا طلائعه هناك، واستطعت الهروب بأعجوبة مع النصف الآخر.

ونظر في عيني وهو يردف قائلًا:

- لسنا في حاجة إلى استفزازهم ليأتوا إلينا، إن تقدم طلائعهم كل هذه المسافة يعني أن معركتنا الكبرى التي ننتظرها ستكون في غضون أيام.

(١٣)

زهير

عدت إلى المعسكر الشمالي مرة أخرى بعدما تأكدت بنفسي من دفن جسد السيدة سيرين بمكانٍ بعيد جنوب الباحة، كان آدم لا يزال نائمًا في ذلك التوقيت فرقدت بجواره وأغمضت عيني لأنام دون عناء وكأن شيئًا لم يحدث، لم أكن أعرف أن النهار التالي سيحمل منعطفًا كبيرًا بالنسبة لي بعدما أيقظني فارس من حراس عمي الذين أعرفهم وأخبرني بأن عمي في انتظاري على وجه عاجل جدًا، سألته بعينين شبه مغلقتين عن السبب، فأجابني في اقتضاب:

- أخبرني فحسب أن آتي بك في الحال ولو بالقوة.

أدركت لحظتها أن عمي عرف بما حدث، فنظرت إلى آدم الذي كان قد استيقظ ووقف وراء الفارس يراقب حديثنا في تعجب، ثم سألت الفارس في اضطراب:

- هل أبي هناك؟

هزَّ رأسه نافيًا، فنهضت وغسلت وجهي على نحو سريع بماء كان في إناء بجواري، ثم ركبت حصاني وتحركت به خلف الفارس بعينين حمراوين منتفختي الأجفان، أقلّب في رأسي كل الكذبات التي قد أبرر بها

لعمي ما فعلته بعدما وعدت أبي بعدم إخباره بأمر آدم، وإن ظل داخلي واثقًا بأنه في أسوأ الحالات لن يعاقبني بعدما أقدمت على ما فعلته الليلة الماضية من أجل چارتين وجيشها.

عندما وصلت إلى دار الأمن وصعدت إلى قاعة مكتبه ودلفت إليه مباشرةً، كان واضحًا أنه ينتظرني خصيصًا، نظر في عيني بعينيه القويتين، وقال دون مقدمات:

- تعرف أن قوانيننا تنص على إعدام من يقتل أي شريف حتى لو كان ابن أخ كبير الضباط.

ابتلعت ريقي في ارتباك وشعرت أن دماء جسدي قد اندفعت جميعها إلى وجهي، فواصل تحديقه في عيني وبدأ ينقر بأصابعه على مكتبه دون أن ينطق بشيء آخر، فقلت بعدما تيقنت أن أبي لن يتواجد لينقذني من ذلك الموقف:

- فعلتها من أجل چارتين.

واصل صمته ونظراته القوية في عيني، فقلت:

- أعلم أنك لا تصدق هراء الجنود المنتشر عن انتصارنا على النسالى أول أمس، لكني كنت أنا وأبي سببًا مباشرًا فيه بعدما حقق لنا صديقي آدم هذا الانتصار.

وبدأت أحكي له في رعب ما حدث منذ إخبار مساعده لي أعلى السجن عن استحالة كون آدم حفيد خشيب إلى قتلي للسيدة سيرين خشية أن تتسبب في فقداننا ذلك السلاح الهام المتمثل في قدرة آدم على إخماد أرواح النسالى المتوحشين، ثم سكتُّ وأنا أنظر في عينيه، لم ينطق بكلمة، وكذلك لم يظهر على وجهه أي انطباع، فقط أشاح لي بيده كي أنتظر

خارجًا، فخرجت في صمت وانتظرت على مقعد بالخارج يهتز جسدي بقوة من الرعشة التي سَرَت فيه، ويدق قلبي خوفًا مما قد يتخذه من قرار في قادم اللحظات حفاظًا لكبريائه، لم يكن عمي ذلك الرجل الذي يسمح لأحد بأن يشعره بأنه مغفل قط وإن كان أخاه أو ابن أخيه.

بعد دقائق وصل أبي مهرولًا وبدا على وجهه المرتبك أن عمي قد استدعاه على نحو عاجل هو الآخر، نظر إليَّ مستغربًا حين وجدني أجلس بقاعة الانتظار فضممت له شفتي معلنًا دون حديث مني بأنني قد بُحت بكل شيء، فأكمل طريقه إلى مكتب عمي لأسمع صوت نقاشهما العالي بعد لحظات، قبل أن تهدأ نبرة صوتيهما ويستمر نقاشهما بالداخل حتى منتصف النهار إلى أن فتح أبي باب الغرفة وأشار لي كي أنضم إليهما، فوقفت أمام عمي مطأطأ الرأس كالمذنبين، فسألني في اقتضاب:

- كم تثق في ذلك النسلي؟

قلت:

- بعد ما فعله أول أمس أثق فيه تمامًا، كان عليك أن ترى حماسته الشديدة لإنقاذ جنودنا، قبل أن يغيّر مصير تلك المعركة، لولاه لاستولى النسالى على مدافع الجدار جميعها وحققوا انتصارًا كاسحًا علينا.

نظر أبي إلى عمي، فأدركت أنه حدثه بالمنطق ذاته، فقال عمي:

- حسنًا، ستنتقل أنت وهو إلى معسكر الباحة لتنضموا إلى الجنود الذين يستعدون للزحف نحو الجنوب، إن تقديراتنا لأعداد النسالى جميعهم لا تتجاوز عشرة آلاف غير زائر وثمانمائة زائر متبقين من الألف إن كانوا قد ثاروا جميعًا،

أما جنودنا فتصل أعدادهم إلى أربعة وعشرين ألفًا. حين تحين اللحظة المناسبة ستتقدم أنت وذلك النسلي إلى الجنوب مع ثلاثة آلاف فقط من جنودنا المجهزين بأفضل العتاد، سيكفي ذلك العدد للقضاء على النسالى العُزَّل إن أكمل صديقك ما فعله أول أمس.

وسكت للحظة نظر فيها إلى أبي كأنهما اتفقا على شيء قبل دخولي، ثم أكمل:

- أما إن لم يفعلها صديقك وكان ذلك فخًا منه لجنودنا من أجل استدراجنا إلى معركة بالجنوب فستتكفل مدافع الجدار بإبادة الطرفين في المعركة حين يحتدم الاشتباك، سأضحي بالثلاثة آلاف جندي مقابل من تبقى من الزائرين.

نظرت إلى أبي وقلت مستهجنًا لقرارهما:

- وأنا بينهم؟!!

نظر إليَّ أبي دون أن يقول شيئًا، فنطق عمي وقال بنبرة جافة:

- نعم، مثلك مثل باقي الجنود، على صديقك أن ينقذكم جميعًا من الموت.

نظرت إلى والدي غير مصدق بأنه وافق على مثل هذا القرار، فنظر بعينيه إلى الأرض، فأردف عمي آمرًا:

- عد الآن إلى صديقك واستعد للانتقال إلى معسكر الباحة مع صباح الغد، ولا تنسَ أن إخبارك لأي أحد بما ننوي فعله سيعد خيانة لن أغفرها أبدًا.

هززت رأسي إيجابًا بغير أن أقول شيئًا، ثم ألقيت تحيتي العسكرية بطريقة رسمية واستدرت لأغادر الغرفة بخطوات عسكرية لأعود إلى المعسكر الشمالي من جديد، وهناك سألني آدم بمجرد أن التقيته:

- ماذا حدث؟! ولماذا أصر الفارس على اصطحابك إلى عمك في هذا التوقيت المبكر؟

قلت:

- لقد عرف عمي بشأن قدراتك، وكان يتأكد مني أنك من حققت لنا انتصارنا العظيم أول أمس فأكدت له ذلك.

وتابعت بعد لحظة:

- لكنه شدَّد على أن يبقى الأمر سرًا كي لا يتم استهدافك من الخائنين، لذلك آثر ألا يتم ترقيتك الآن.

ابتسم وقال:

- نعم، أتفهم ذلك.

ثم سألني مستغربًا:

- لكن لماذا أشعر أنك لست على ما يرام؟

اصطنعت الابتسامة وقلت:

- لا، إنني بخير، لم أنم جيدًا بالأمس فحسب.

وقبل أن أكمل الطريق إلى خيمتي بعدما أردت البقاء وحيدًا قلت له:

- سننتقل إلى معسكر الباحة مع الغد للانضمام إلى الجنود هناك، يتوقع عمي منك الكثير من العمل للقضاء على ما تبقى من أولئك الوحوش.

ابتسم من جديد وقال:

- وأنا على أتم الاستعداد لفعل أي شيء يتطلبه انتصار بلادنا يا صديقي.

فربتُّ على كتفه باسمًا، ثم أكملت الطريق إلى الخيمة.

في اليوم التالي، انتقلت أنا وآدم إلى معسكر الباحة وبمجرد وصولنا هناك انضممنا مباشرةً إلى تدريبات الرماية المخصصة للجنود الجدد في المرج الشرقي المجاور لذلك المعسكر، وهناك أبدى آدم مهارة عالية في التصويب، كنت أعرف أن عمله في ورشة صناعة الأسلحة في بريحا كان سببًا مباشرًا في تلك المهارة، قبل أن نأوي إلى إحدى الخيام المنتصبة في الباحة بعدما أخبرنا الفارس الشاب المكلّف بتدريبنا بأن تدريباتنا تلك ستستمر طوال أيامنا هناك.

كان ذلك المعسكر أكثر ضجيجًا من المعسكر الشمالي خاصةً مع استمرار عبور القذائف المدوية من فوقنا تجاه الجنوب دون توقف خلال أيامنا الأولى هناك، سمعت أحد الفرسان يتحدث إلى آخر في يومنا الخامس هناك عن تحرك طلائع جيشنا إلى الجنوب لرصد حركة النسالى وتبين مدى نجاح قذائفنا في حصدهم قبيل الزحف الأكبر من جنودنا نحو الجنوب، ليزداد القلق القابع في صدري مع انقضاء كل نهار كان يقربنا من ذلك اليوم، على عكس آدم الذي بدا هادئًا كثيرًا، مثله مثل باقي الجنود.. ينتهي من تدريباته صباحًا ثم يأوي إلى خيمتنا دون حديث كبير، أو يجلس ليلًا أمام قائم جانبي مُعلّقة عليه إحدى الرايات يظل ينظر إليه شاردًا وكأنه في عالم آخر حتى يغلبه النعاس، ثم توقف

قصف مدافعنا مع اليوم العاشر .. فأدركت أن موعد زحفنا قد اقترب للغاية.

بعد ذلك اليوم بسبعة أيام قدم أبي أخيرًا إلى معسكر الباحة، واجتمع بي على انفراد بعدما أمر بانصراف كل جنود الخيمة بما فيهم آدم، سألني عن آدم في البداية، فأخبرته بأن كل شيء كما هو، فقال:

– رصدت طلائعنا حركة النسالى على مقربة من منابع النهر الجاف ذات الأرض الصلدة في أقصى الجنوب الشرقي، وضع الفئران أنفسهم في مأزق، إنها منطقة جبلية مغلقة الممرات جنوبًا، قامت مدافعنا بمهمتها بتوجيههم إلى هناك على أفضل نحو، وحان الآن زحف جنودنا لحصارهم هناك قبل إدراكهم المأزق الذي وضعوا أنفسهم فيه.

قلت:

– متى سيتم التحرك؟

قال:

– الليلة.

دق قلبي متسارعًا، وبعدما فشلت في إخفاء ارتباكي سألته:

– هل ستقصفون الجانبين حقًا إن لم يفعلها آدم؟

سكت للحظات، ثم قال:

– إنه احتمال أخير، لن نلجأ إليه إلا لو كانت الخسارة حتمية من الزائرين.

قلت بنبرة جادة للغاية:

- لا أريد مرافقة الزاحفين جنوبًا.

قال:

- إن وجودك هناك بجوار آدم أمر ضروري عُلقنا فيه، لو كان صديقي الذي يثق بي لذهبت أنا، كما أن خطأك بقتل امرأة شريفة لا بد من تكفيره بمساعدة الأشراف.

فصرخت فيه حانقًا:

- فعلتها من أجلنا جميعًا، ألا تعرف ذلك؟!

سكت من جديد، ثم قال بعد فترة من الوقت طالت هذه المرة:

- إن شعرت أن الهزيمة صارت على وشك الحدوث فاسلك بحصانك أخدود النهر الجاف نفسه، سيكون آخر مكان أوجّه له قذائفنا، ولكن احذر منحدرات أرضه، إنها شديدة الانحدار وصعبة للغاية على الخيول كما أخبرنا خبراء التضاريس، كذلك ستجد طوله ثلاثة أضعاف المسافة التي ستسلكونها جنوبًا مع كثرة التواءاته، لكنه يبقى الحل الوحيد لنجاتك إن لجأنا لاستخدام قذائفنا.

فقلت له في غضب شديد:

- لن أسامحك على هذه الفعلة أبدًا يا أبي.

هزَّ رأسه دون قول شيء، ثم غادرني متوجهًا إلى باقي قادة المعسكر ولم أره بعدها إلا مع اصطفافنا مساءً إيذانًا ببدء تحركنا إلى الجنوب.

كانت أعدادنا المصطفة للتحرك ثلاثة آلاف من راكبي الخيول كما قال عمي مسبقًا، كنت أنا وآدم في الصف الثاني من صفوف الجنود

خلف صفوف الفرسان الأولى، تقدمنا فور انتهاء المدافع من قصفها الشديد نحو الجبال المُطلة على الممرات التي سنقطعها، ثم انضمت إلينا بعض الطلائع التي كانت ترصد تحركات النسالى في الأيام الماضية بعد اجتيازنا أول ميل في طريقنا، عرفنا من ثرثرة بعضهم أنهم لاحقوا بعض النسالى قبل أيام وقتلوا منهم خمسة عشر نسليًا كانوا على مقربة من الجبال الحمراء، كذلك قال أحدهم بأنهم كُلفوا في الأيام الأخيرة بوضع شعلات ضخمة مُطفأة فوق قمم بعض الجبال في طريقنا وتركوا مع كل شعلة منها جنديًا مسئولاً عنها، وانضموا إلينا كي يواصلوا نثر تلك الشعلات حتى أرض المعركة المنتظرة، فأدركت داخل نفسي أن اشتعال تلك الشعلات سيكون إذنًا للمدافع ببدء دكِّها لأرض الاشتباك في حالة خيانة آدم لنا.

ونظرت إليه حينها وقلت في سري:

- أتمنى ألا تخذلني يا آدم.

عند مرورنا بالقرب من أطلال وادٍ محترق من وديان النسالى، قال أحد الجنود بجوارنا ضاحكًا:

- لطالما شهد هذا الوادي أفضل ملذاتنا.

وبدأ يروي لنا عن حانة ذلك الوادي ونسائها البارعات في الرذيلة، ومن خلال حديثه عرفت أن ذلك الوادي هو الذي سكنته الرامية لأعوام، قبل أن ينضم إليه جنودٌ آخرون ليتحدثوا عن تجاربهم مع عاهرات النسالى حتى شعرت أن هؤلاء الجنود إن أرادوا شيئًا من حربنا المقبلين عليها ضد النسالى فسيكون سبي نسائهم من أجل إكمال ملذاتهم، على كل حال لم نكن لنجد أفضل من تلك الحكايات البذيئة لتنسينا مؤقتًا

مصيرنا المجهول الذي نتقدم نحوه، ثم توقفنا للراحة أخيرًا مع عبورنا ذلك الوادي، كان آدم في تلك الليلة أكثر صمتًا من أي ليلة أخرى، فسألته عن سر صمته، فقال بأنه يشتاق إلى خالته سيرين، فأخبرته بأننا سنعود سويًا إلى بريحا بعد انتهاء حربنا مباشرةً إن كانت قد عادت إلى هناك، فربت على فخذي شاكرًا لي، قبل أن يتركني ويخلد إلى النوم.

في اليوم التالي مررنا بالجبال الحمراء، كانت المرة الأولى التي أرى فيها تلك الجبال لأدرك مدى عظم طبيعة چارتين المُهمَلة في الجنوب، قضينا يومًا كاملًا في عبورها بعدما اتخذنا ممرات واسعة ملتفة كانت أكثر طولًا من الممرات المباشرة الضيقة بين الجبال الشاهقة؛ تجنبًا لأي فخ من فخاخ النسالى، لنكمل طريقنا نحو الجنوب الشرقي قاطعين الطرق والممرات واحدًا وراء الآخر بين فترات من المضي وأخرى من الراحة وفق خطة بدت لي أنها وُضعت بحرفية للتنسيق بين تحركاتنا وقصف المدافع الذي يؤمن طريقنا، وإن كنت قد استغربت بعض الشيء عندما رُفعت راية عمي لتتقدم رايات جيشنا رغم عدم وجوده معنا، ثم كثَّفت المدافع قصفها بصورة ملحوظة في صباح اليوم التاسع من التحرك نحو منطقة كانت تبتعد عنا بضعة أميال، وغادرنا أكثر من جندي من جنود الطلائع حاملين شعلاتهم نحو قمم الجبال المجاورة، كذلك واصل القادة مرورهم بيننا للتأكد من إحكامنا لدروعنا وخوذاتنا بشكل سليم وأمروا كل منا بالتأكد من حشو سلاحه بطلقاته النارية فعلمنا أن معركتنا الحاسمة قد دنت للغاية، ثم انتهت المدافع من قصفها فدقت طبول قواتنا للمرة الأولى لتتقدم بنا الخيول نحو منطقة من التلال في ممر وحيد كان يتسع عرضه لاثني عشر من الفرسان المتجاورين بأحصنتهم على الأكثر ما إن قطعنا ميلاً واحدًا منه حتى وصلنا إلي أخدود الرافد الأول للنهر الجاف

وقتها تسارعت دقات طبولنا وأُطلقت الأبواق، فتوقفت صفوف الفرسان من أمامنا وتوقفنا بدورنا خلفهم، وبدأ القائد يعلن للجميع عن خطة هجومنا، نظرت حينها إلى آدم كان ثابتًا كما عرفته دومًا، ثم نظرت إلى باقي الجنود، فوجدت وجوههم الضاحكة طوال الطريق قد تبدلت إلى وجوه عابسة مرتبكة تنظر في قلق واضح إلى التلال المطلة علي ضفة ذلك الرافد، وكأنهم توقعوا ما كان على وشك الحدوث.



(١٤)

غفران

رغم أننا كنا نسعى لاستدراج كيوان وجيشه إلى منطقة الروافد إلا أنني لا أنكر أن الارتباك قد أصابني كليًا حين عاد ريان مع من نجوا معه ليخبرونا أن طلائع جيش كيوان قد تقدمت بالفعل نحو الجبال الحمراء.

قال فاضل عندما اجتمعنا في كوخ القيادة بعدها:

- هذا يعني أننا سنواجه جيش الأشراف بدون الذخيرة التي كان من المفترض أن تحملها الأحصنة في الخنادق.

أومأت برأسي إيجابًا وأنا أفكر في حل لإيجاد بديلٍ لتلك الذخائر، فقال بيجاد:

- لا أعتقد أننا كنا في حاجة ماسة إلى تلك الذخائر، كان الهدف منها هو توسيع المسافات بين جماعات الأشراف الثلاثة لكننا نستطيع فعل الأمر ذاته عن طريق الزائرين أنفسهم، جميعنا يعرف أن قلوب الأشراف تهابنا إلى درجة الرعب حتى وإن حققوا انتصارهم السابق علينا، سنستغل هذا جيدًا هذه المرة. نستطيع أن نستبدل الخيول المحملة بالذخيرة بخيول يمتطي سروجها زائرونا، ومع عامل المفاجأة وظهور رجالنا لهم من العدم سيهرع

جنودهم إلى الابتعاد عن الأخاديد سواءً بالمضي قدمًا لمن أوشكوا على العبور أو بالتراجع لمن لم يعبروا بعد، ومن ثَمَّ تتكفل باقي الجماعات بمهاجمة الجبهات الثلاثة.

قال ريان:

- أعتقد أن ذلك الحل سيكلفنا إحدى جماعات الزائرين الراكضين في الأخاديد إن استطاع حامل الروح بين الأشراف الركض سريعًا إلى ضفة أقرب الأخاديد إليه وإخماد أرواحهم الزائرة، ليحصدهم بارود الأشراف الواقفين في مستوى أعلى منهم دون عناء، ستكون تضحية ساذجة منا فحسب، لن تكلفنا إلا ارتفاع الروح المعنوية للأشراف في بداية المعركة.

قال منذر:

- إنني أتفق مع ريان، لذلك أرى أن نكتفي بالأخاديد وتلالها كفواصل طبيعية بين جماعات الأشراف دون الحاجة إلى توسيع المسافة بينهم طالما لم يعد بيدنا استرجاع الذخائر.

قلت:

- وأنا أتفق معك يا منذر، سنواصل خطتنا للإيقاع بحامل تلك الروح كما هي دون تغيير.

فوجدت الموافقة على وجوههم جميعًا عدا بيجاد الذي بدا أنه كان مُصرًا على فكرته، لكنه أومأ برأسه موافقًا في نهاية الأمر، فقلت بعدها:

- سيتحرك النسالى الزائرون جميعهم من اليوم إلى الجبل المقبب الذي خصصناه لتجميع المقاتلين.

أومأ الثلاثة شبان أصحاب أرواح الشامو، وكدت أكمل ولكن فاضل قاطعني متسائلًا:

- وشبان النسالى ممن يستطيعون القتال؟

صمت قليلًا ثم قلت:

- إن أسلحة الأشراف النارية متطورة للغاية، لن تفيد أمامها قدرة شبابنا الجسدية طالما ليس لدينا أسلحة كافية لهم، لن يكون الدفع بهم إلى القتال دون تسليحهم إلا تضحية بهم.

وتابعت:

- لدينا ما يقرب من مائتي سلاح ناري اغتنمناها يوم الغفران، ستُوزع هذه الأسلحة بين جماعات النسالى الزائرين بالتساوي حتى إن استحالت إحداها إلى هيئتها البشرية يستطيع رجالها الذود عن أنفسهم حتى آخر نفس لديهم.

فبدا الاقتناع على وجه فاضل، فقلت:

- هناك شيئان علينا أن نعمل عليهما الآن، الشيء الأول والذي قد يكون قريبًا للغاية، أننا في انتظار موجة مكثفة من قصف مدافع كيوان وأعتقد أنها ستستمر حتى قدوم قواته إلينا، لذا سيوزَّع الطعام بأكمله في أسرع وقت بين الجبال المأهولة بالنسالى، وسيعمل قاطنو كلِّ جبل على تخزين ما يكفيهم من مياه الينابيع لمدة شهرين على الأقل، الشيء الآخر أننا سنستخدم الشبان البارعين في الهروب والذين كنا ننوي اختيارهم للدخول إلى مدن چارتين في خطتنا السابقة كطلائع لنا يسكنون جبالًا تبتعد عن منطقة الروافد بمسافة كافية وفي الوقت ذاته تكون مطلة على الطرق المؤدية إلى هنا لرصد اقتراب جيش الأشراف.

قال ريان في حماس:

- رائع، فكرت في هذا الأمر أيضًا.

فصحت في حماس أنا الأخرى:

- هيا، لم يعد هناك وقت لنضيّعه.

بعدها خرجنا إلى جبل الحانة الذي كنا قد خزنًّا فيه ما لدينا من حبوب وطرائد مجففة، وبدأنا في تقسيمها إلى أكوام متفاوتة الأحجام حسب عدد سكان كل جبل، وفي خلال ساعتين كانت الممرات بين الجبال المقببة تزدحم بالشبان الراكضين ذهابًا وإيابًا لينقلوا أجولة الحبوب إلى جبالهم فيما تولّت الفتيات والنساء نقل قدور المياه من الينابيع إلى الأحواض المبنية داخل الجبال، ليستمر ذلك العمل حتى منتصف الليل تقريبًا، بعدها أوت كل جماعة إلى جبلها وانضممت أنا وفاضل إلى جبل النسالى الزائرين بعد تنبيهنا على الجميع بعدم مغادرة جبالهم بأي حال من الأحوال، ثم انضم إلينا ريان بعد اطمئنانه إلى رحيل الشبان السبعة المختارين كطلائع لنا، ليجلس ثلاثتنا في حالة من الصمت ناظرين إلى الفراغ أمامنا شاردي الذهن، لتمضي ساعات تلك الليلة واحدة وراء الأخرى دون أي جديد، قبل أن تدوي أولى القذائف من فوقنا مع شروق شمس النهار التالي ومعها اهتزت الأرض من أسفلنا هزة خفيفة، فهاجت الأحصنة بشدة واستحال الزائرون إلى هيئتهم الزائرة، نظرت إلى فاضل وريان في أنفاس محتبسة، كانوا مثل الباقين ينظرون إلى السقف الصخري من فوقنا في ترقب شديد، كان ذلك الاختبار الأول لصلابة جبالنا، أو بمعنى أدق؛ الاختبار الأول لرهاننا الأكبر على ذلك الإرث الذي تركه لنا قدامى النسالى المتمثل في تلك الحصون الجبلية، ثم سكتت أصوات القذائف لدقائق لم نسمع فيها إلا صوت أنفاسنا

وزفرات الأحصنة، قبل أن يتواصل القصف العنيف المتتابع من جديد ليتسمر كل واحد منا في موضعه مُحدّقًا بالأعلى يراقب في حذر مدى تحمل جبالنا لتلك القذائف المتتالية وخاصةً مع تلك الهزات الخفيفة التي كانت تسري أسفل أقدامنا كالرعشة التي تسري في الأبدان، حتى تحولت النظرات المترقبة على وجوهنا إلى أخرى منبهرة واثقة بعدما لم تسقط قشرة صخرية واحدة من سقف الباحة الجبلية مع تتابع تلك القذائف عليها لتعلن لنا مدى أمان حصننا، إلى أن توقف القصف مرة أخرى لفترة طالت هذه المرة، فزأر جميع النسالى معلنين فرحتهم بصلابة جبالنا، بعدها لم تعاود القذائف دويها من جديد إلا مع شروق شمس النهار التالي.

على مدار الأيام التالية استمرت مدافع الجدار في قصف جبالنا بدون توقف، غير أن ذلك لم يغيّر من نمط حياتنا داخل الجبال وكأن شيئًا لا يحدث في الخارج، حتى أنه في اليوم الرابع للقصف واصل الكثيرون من النسالى الزائرين نومهم بهيئتهم البشرية رغم دوي القذائف فوق الجبال، بل تساءلوا بعدما استيقظوا إن كان القصف قد حدث ذلك الصباح أم لا. في تلك الأيام قسّمنا النسالى الزائرين إلى ثلاثة جماعات بالتساوي، كل جماعة كانت تقارب المائتين، تناوبت على تدريبهم أساسيات الرماية بالأسلحة التي لدينا دون استخدام الذخيرة الحية لقلّة ما نمتلكه منها، كذلك حرصنا على إخبار الجميع بسرعة اغتنام أسلحة الأشراف الذين يسقطونهم لاستخدامها في حال فقدان قوة الروح الزائرة، ثم بدأنا نسمع أصوات دوي القذائف يدوّي في مناطق بعيدة عنا ويقترب كل يوم عن اليوم الذي يسبقه، فأدركنا أن جيش الأشراف يتقدم في طريقه إلينا.

في اليوم السابع من سماعنا ذلك القصف البعيد عادت طلائعنا إلينا، وأخبرونا بأن جيشًا يتألف من حوالي ثلاثة آلاف فارس يخيّمون على بعد عشرين ميلًا شمال غرب الرافد الأول، يقودهم كبير ضباط چارتين الضابط كيوان بنفسه، وتحدثوا عن الرايات الكبرى التي يحملها بعض الفرسان في الصفوف الأولى، تعجبت من قدوم كيوان مع هذا العدد القليل مقارنة بجيش چارتين، لكن ذلك كان منطقيًا للغاية في ظل وجود حامل الروح النسلية بينهم، لن تحتاج إلى أكثر من ثلاثة آلاف سلاح ناري لقتل ستمائة أعزل، ثم ركّزنا في حديثنا عن الجانب الإيجابي لقدوم كيوان، قال ريان:

- هذا يمنع قصف أرض الاشتباك إن حققنا هدفنا من المعركة.

وقال منذر:

- سنضرب أكثر من عصفور بحجر واحد عندما ننتصر، نقتل النسلي وكيوان معًا.

أما فاضل فبدا أنه يركّز على خطتنا الأصلية حين قال:

- على الأقل عرفنا الآن أن صاحب الروح سيكون بين الجماعة الأولى التي تعبر إلى المنطقة الوسطى بدلًا من حيرتنا المتوقعة عن أي جماعة سيكون بها، سيكون ذلك الشاب أقرب الفرسان إلى كيوان.

قال بيجاد:

- وما الذي يجعلنا متيقنين من ذلك؟

أجابه فاضل:

- إن الطبيعة البشرية هي ما تؤكد لنا ذلك، لو كنت قائد ذلك الجيش وقدمت إلى هنا ومعي سلاح جئت معتمدًا عليه كليًا لن أكون غبيًا لأضعه بعيدًا عني وأنا على علم بأن حياتي قد تنتهي بضربة مخلب في لحظة، سأضعه بكل تأكيد على مقربة مني لحمايتي قبل أي شيء.

قال بيجاد:

- هذا منطقي فعلًا.

فقال فاضل:

- لذا أجد أنه من الأفضل أن تُوزَّع الأسلحة جميعها على الجماعة المكلّفة بمهاجمة الأشراف العابرين إلى المنطقة الوسطى، على أن نزيد من تأكيدنا لباقي الجماعات بسرعة اغتنام أسلحة جنود الأشراف لكسب أطول وقت ممكن في حال تمكن النسلي من إخماد أرواحهم الزائرة، إلى أن نتمكن من تحديد هويته والتخلص منه.

فقلت:

- إنني أتفق مع فاضل في هذا الأمر، لسبب آخر أيضًا؛ لطالما ضمت مقدمة الجيوش خيرة فرسانها، لذا بقاء رجالنا المهاجمين لهم مسلحين من البداية أمر ضروري طالما تغطي أسلحتنا أعدادهم، كذلك خطَر في بالي أمر ما والطبيب يتحدث.

وأردفت:

- لا نعرف بعد كيف يتحكم النسلي في زائرينا، قال لي يعقوب قُبيل موته أنه طالبه بالتخلي عن روحه الزائرة لكنه لم يستجب له، لا أعلم إن كان ذلك نوعًا من الهمس في آذان الزائرين أم

وسوسة أم شيئًا آخر، فماذا لو استخدمنا طبولنا العملاقة على امتداد الأخدودين كمحاولة للتشويش على أي همسات من ذلك النوع، يستطيع عشرة من زائرينا الركض بالطبول في كل أخدود بالتزامن مع هجوم رجالنا والبدء في ضربها بطاقتهم الكاملة لتغلّف دقاتها العالية أجواء المعركة.

قال فاضل الذي بدا وكأن فكرتي أحضرت في ذهنه فكرة أخرى:

- يمكنني كذلك وضع حشوات قماشية صغرى في آذان رجالنا لتمنع عنهم الأصوات الهادئة فلا يستطيعون سماع غير أصوات الطبول الصاخبة.

قال أصيل:

- حسنًا، لنستخدم كل هذا، رُب نجاح فكرة واحدة منها يجنبنا قتل زائر واحد.

قال فاضل متحمسًا:

- سأعمل عليها في الحال.

وبالفعل بدأ بعد انتهائنا من اجتماعنا في تقطيع قطعة قماشية من قماش الخيام إلى قطع صغيرة للغاية، وتحرك بين صفوف النسالى الزائرين الواقفين بهيئتهم البشرية ليغرس في أذن كل واحد منهم قطعةً منها.

بعد منتصف الليلة التالية تحركت جماعاتنا مغادرةً جبل المقاتلين، لتتوارى الجماعتان الأولى والثانية في منطقة التلال غرب وشرق الرافد الأول على بعد مسافة كافية من المسار الذي سيسلكه الأشراف، أما الجماعة الثالثة المسلحة فاتخذت أماكنها في كهوف الجبال الصلدة

المطلة على المنطقة الوسطى، أما أنا وفاضل ومنذر وبيجاد وأصيل فتحركنا إلى كهف صغير بأقرب الجبال الصلدة إلى الرافد الثاني، كان ارتفاعه يمكِّننا من رؤية مسار الأشراف المتوقع وكذلك نطاقات الاشتباك الثلاثة بأعيننا المجردة وإن قرّبت نظارة ريان المُعظِّمة التي كانت بحوزتي الرؤية كثيرًا، رافقنا في الجبل ذاته أيضًا نسليان زائران مع طبولهما العملاقة، سكنا كهفًا كان يعلو يسارنا بأقدام قليلة في انتظار إشارتي لهما لبدء الدقات اللاتي ستكون إيذانًا باندفاع رجالنا إلى المعركة، أما ريان فقررت بقاءه في الجبال المقببة ليقود خطة هروب باقي النسالى في حال ساءت أحوالنا وانقلبت أمورنا رأسًا على عقب، فوافق بعد جهدٍ كبير، مع طلوع النهار تأكدت من حشو مسدسي وبندقيتي بطلقاتهما النارية، كذلك أحكمت إغلاق سترتي ذات البطانة المعدنية الرقيقة قبل أن أعلّق بندقيتي على ظهري وأدس مسدسي في جرابه الجلدي المعلّق بساقي اليمنى بينما كان الطبيب يحدق في الأفق بعيدًا نحو المنطقة الوسطى وكأنه يلقي نظرة أخيرة على أرضها الحجرية الساكنة، ثم بدأ قصف المدافع لمنطقة التلال والمنطقة الوسطى، فنظر لي وقال:

- لقد أوشك ضيوفنا على الوصول.

ابتسمت، ثم نظرت في النظارة المُعظِّمة إلى أماكن قصف المدافع وقلت:

- تسري الأمور كما توقعناها حتى الآن، أتمنى أن تكمل سريانها هكذا حتى ينتهي الأمر.

سألني منذر مترقبًا:

- هل اقتربت القذائف من أماكن اختباء رجالنا؟

قلت وأنا أحرّك النظارة المعظمة قليلًا نحو اليسار:

- لا، إن القذائف مركزة على قمة الرافدين من ناحية النهر الجاف، بعيدة عن رجالنا.

ثم توقف القصف، ولم يبقَ من أثره إلا خيوط الدخان التي تصاعدت إلى السماء، بعدها سمعت آذاننا أصوات دقات طبول منتظمة الإيقاع تأتي من خلف الجبال المجاورة لمنطقة التلال، فنظرت إلى النسليين الزائرين الواقفين بهيئتهما البشرية بالكهف أعلى يسارنا وأشرت لهما بألا يدقا الطبول، فأومأ أحدهما برأسه طاعةً، ثم دوّت أبواق الأشراف الحربية، فقال فاضل:

- يا له من إعلان بائس عن قدومهم.

فضحكت وأنا أواصل النظر عبر النظارة نحو التلال، إلى أن ظهرت أمامي للمرة الأولى طلائعهم، عشرات من الخيَّالة يجرّون أحصنتهم ليعبروا الرافد الأول قبل أن يركبوا متونها ويواصلوا الركض إلى الرافد الثاني ليعبروه هو الآخر إلى المنطقة الوسطى. حين رآهم الشبان بجواري تحوّل بيجاد إلى هيئته الزائرة وأطلق زمجرةً غاضبة، فأمسكت بساعده كي يهدأ، ثم اقتربوا بجيادهم من جبالنا، فاستحال الشابان الآخران، فقلت:

- إنهم مجرد طلائع لتأمين طريق قواتهم، سيعودون بمجرد الاطمئنان من خلو المنطقة الوسطى من أي مخاطر.

ولم يمضِ على كلامي بضعة دقائق حتى استدار أولئك الخيالة بخيولهم وعادوا من جديد ناحية قمة المنطقة الوسطى ليطلقوا أبواقهم، فظهر الصف الأول من الفرسان غرب الأخدود الأول، كان يتكون

من عشرة فرسان عبروا ذلك الأخدود بالطريقة ذاتها التي عبر بها الطلائع، ثم تلاهم عشرة فرسان آخرون، ثم عشرة آخرون كان بينهم حاملو الرايات، فأمعنت النظر في النظارة المُعظِّمة، لم تمكنِّي من رؤية الوجوه لكني رأيت راية كبير الضباط واضحة للغاية بين باقي الرايات، فهمست إلى فاضل:

- إن هدفنا يعبر أول الأخاديد الآن.

بعدها توالى عبور مقاتلي الأشراف صفوفًا وراء أخرى، إلى أن توقف من عبروا ليجمّعوا صفوفهم بعد الأخدود الأول، فأحصيت أعداد صفوفهم بعيني سريعًا، وقلت غير موجهة حديثي إلى أحد ممن معي:

- عبر ما يقرب من ستمائة راكب للخيل، وما زال الباقون يواصلون العبور.

ثم تقدمت تلك الصفوف نحو الأخدود الثاني وبالطريقة ذاتها بدأوا يعبرونه هو الآخر ليتلقاهم طلائعهم الذين اعتلى نصفهم التلال المطلة على الرافد الثاني بينما كان نصفهم الآخر يتحركون جيئة وذهابًا بخيولهم في المنطقة الوسطى على مسافة مائتي متر تقريبًا، ثم بدأ من وصلوا إلى المنطقة الوسطى في تكوين تشكيل حرب مستطيل الشكل، كان الصف الواحد منه يتكون من مائة فارس تقريبًا، واصطف حاملو الرايات في الصف الثالث بينهم بمجرد عبورهم الأخدود الثاني، قال فاضل الذي كان يرى اصطفافهم بعينه المجردة:

- إنهم منظمون للغاية.

قلت:

- من يعبرون إلى المنطقة الوسطى فقط، أما من يواصلون العبور بين الرافدين لايزالون في فوضى عارمة، أعتقد أن الصفوف الوسطى والخلفية تتكون من جنود حديثين أُجبروا على المجيء إلى هنا رغم قلّة خبرتهم.

قال وهو ينظر بعيدًا نحوهم:

- هذا جيد لنا.

ظلت أعداد صفوف العابرين إلى المنطقة الوسطى تتزايد بشكل تدريجي فيما كان النسليان المكلّفان بدق الطبول يحدقان بي في انتظار إشارتي إليهما لبدء دقاتهما، لكني واصلت انتظاري ومراقبتي لعبور الأشراف، إلى أن صار العدد أمامي يقترب من الألف وبدأت طلائعهم تتخلى عن أماكنها أعلى التلال بعد اطمئنانها إلى عبور ثلث قواتهم تقريبًا، فقلت لفاضل والشبان بجانبي:

- ها قد حانت اللحظة يا رجال.

ثم نظرت إلى أعلى يسارنا وأشرت للنسليين بيدي اليمنى كأنني أحمل عصا طبلة في يدي وأدق بها في الهواء، فاستحالا إلى هيئتهما الزائرة في الحال، وفي خلال لحظات كانت دقات طبولهما تدوّي في الأفق، لتنطلق جماعاتنا الثلاثة من مخابئهم نحو جماعات الأشراف .. كذلك انطلق الشبان المكلّفين بدق الطبول في الأخاديد، لترجّ أصوات طبولهم كافة الأرجاء وتهتاج أحصنة الأشراف وتتعاظم الفوضى في صفوف من لم يعبروا الرافدين الأول أو الثاني، أما الصفوف المنتظمة في

المنطقة الوسطى أمامنا فكانت أكثر ثباتًا، رد الفعل الوحيد الذي حدث هو اتساع المسافة أمام الصف الثالث قليلًا لتبدأ الرايات في حركتها يمينًا ويسارًا وكأن كيوان بدأ في تحميس جنوده وحثّهم على الثبات قبل أن يفلت زمامهم.

كانت جماعة النسالى الأولى الراكضة غرب الرافد الأول أول الواصلين لصفوف الأشراف تلتها المجموعة الثانية الراكضة بين الرافدين الأول والثاني، كان ذلك منطقيًا مع قرب أماكن اختبائها من ممر الأشراف على عكس الجماعة الثالثة التي اختبئت بأقرب الجبال الصلدة وواصلت ركضها بمحاذاة التلال مستغلة انعراج الرافد بتلاله نحو الغرب، ليظهروا فجأة على مقربة من صفوف الأشراف ويطلقوا زئيرهم العالي وهم يندفعون نحوهم كالسيل دون مهابة، ليتخلى الأشراف عن انتظامهم في الحال بعدما اخترق الزائرون عمق صفوفهم بسهولة، وبدأوا يقفزون عن أحصنتهم ضاربين بمخالبهم أعناقهم وأعناق خيولهم، فقلت للثلاثة حاملي أرواح الشامو بجواري وأنا أنظر في النظارة المعظمة وأرى حاملي الرايات يحيطون بثلاثة من الفرسان كانوا يتقهقرون بسرعة إلى الصفوف الخلفية:

– قبل أن يزول أثر المفاجأة، إن هدفنا يرافق حاملي الرايات، لا تنشغلوا بأي شيء آخر سوى القضاء على كيوان وكل من يرافقه من فرسان، سيكون حامل الروح النسلية بينهم.

أومأوا برؤوسهم موافقين، ثم استحالوا إلى هيئتهم الزائرة، وهبطوا على الفور جانب الجبل في وثبات متتالية، ثم رأيتهم يركضون بأحصنتهم تجاه المعركة بسرعة كانت أكبر كثيرًا من سرعة الجماعات التي سبقتهم، بعدها نظرت إلى أماكن الاشتباك الثلاثة فوجدت زائرينا

جميعهم لا يزالون على هيئتهم الزائرة وهم يواصلون اقتحام صفوف الأشراف والفتك بهم، فقلت لفاضل في سرور:

- لم يفقد أحد من جماعاتنا هيئته حتى الآن، كانت فكرة الطبول وحشوات الأذن رائعة للغاية.

هز رأسه إيجابًا بابتسامة خفيفة وهو ينظر مترقبًا نحو ما يدور على أرض المنطقة الوسطى أمامنا وإلى منذر وأصيل وبيجاد وهم يندفعون نحو حاملي الرايات الذين كانوا يركضون مبتعدين نحو المرتفعات المطلة على نقطة التقاء الروافد، وقال:

- يحاول ذلك الشاب اعتلاء جبال النهر الجاف من أجل الابتعاد عن ضجيج دقات الطبول.

فقلت وأنا أنظر إلى الشامو الثلاثة الذين صاروا على قرابة ثلاثمائة متر فقط منهم:

- أتمنى أن ينال منه رجالنا قبل أن نفقد زائرًا واحدًا.

لكني فوجئت وأنا أحرّك نظارتي لأرى الاشتباك القائم بالمنطقتين الأخريين بخط دخان يتصاعد نحو السماء فوق قمة أحد الجبال البعيدة غرب منطقة التلال اندفعت معه الدماء إلى وجهي بعدما ثار في داخلي قلق غريب، لأفاجئ بعدها بجموع النسالى الزائرين بين الرافدين الأول والثاني يستعيدون هيئتهم البشرية، فدق قلبي منتفضًا وأنا أقول لفاضل في ذعر:

- إنه لم يعبر إلى المنطقة الوسطى، إنه لا يزال بين الرافدين الأول والثاني.

وقبل أن يقول فاضل أي شيء فوجئنا بقذيفة تسقط من السماء إلى المنطقة الوسطى لتحدث تفجيرًا عظيمًا تطايرت معه أشلاء جميع من تواجدوا في محيطها، ولم تمر دقيقة حتى سقطت خمسة قذائف أخرى دفعة واحدة في المكان الذي يركض به حاملو الرايات ومن خلفهم منذر وأصيل وبيجاد لتسحقهم جميعًا سحقًا بعدما أحدثت أعظم تفجير رأيته في حياتي، فصرخت إلى فاضل وأنا أمسك رأسي في ذهول:

- إنه فخ من كيوان لقتل حاملي أرواح الشامو، لقد مات الشبان الثلاثة!

بعدها واصلت القذائف سقوطها على المنطقة الوسطى لتقضي على جميع المشتبكين من الجانبين، لأهوي على ركبتي غير مصدقة ما أراه، ثم تمالكت نفسي لحظيًا ونظرت إلى المتشابكين في منطقة التلال بين الرافدين، كان القتال على أشده وإن تحوّل الزائرون إلى بشريين بعدما نجحوا في اقتناص أسلحة قتلاهم في بداية هجومهم، فقلت لفاضل:

- عد إلى الجبال المقببة الآن، سأحاول الوصول إلى الجماعة الأولى غرب الرافد كي ينسحبوا قبل أن ينتقل إليهم حامل الروح، إن الرجال يبلون بلاءً حسنًا بين الرافدين، قد يعطينا هذا مزيدًا من الوقت لكنهم لن يصمدوا كثيرًا أمام أعداد الأشراف التي تفوقهم.

كاد يتحدث عن مخاطر ذهابي إلى ساحة المعركة فصرخت فيه:

- هيا يا فاضل، لا يوجد وقت لنضيّعه.

ثم هبطت الجبل ركضًا إلى حصاني لأحلّ عنانه المربوط في نتوء صخري، وأركض به نحو الرافد الغربي القريب مني، وهناك وثبت من

فوقه إلى الأرض وهبطت مترجلة إلى قاعِه جارَّة له، ثم صعدت ضفته الأخرى، وامتطيت متنه من جديد لأركض به بين التلال ناحية الرافد الغربي الأول، أتوسل داخل نفسي إلى النسالى المقاتلين بين الرافدين كي يصمدوا لأطول وقت ممكن من أجل إنقاذ الجماعة الباقية، وأصرخ إلى حصاني كي يسرع وهو يتخطى المرتفعات واحدًا وراء الآخر، إلى أن وصلت إلى الرافد الثاني فلم أنتظر حتى أعبر إلى الجهة الأخرى وهبطت جارَّة حصاني إلى قاعِه ثم ركضت به في أرضه شمالًا نحو المعركة القائمة.

كان صوت البارود المستمر يتقاطع مع صوت زئير النسالى فأدركت أن النسلي الخصم لم يتحرك بعد إلى غرب الرافد الأول، فواصلت ركضي بالسرعة القصوى لحصاني إلى أن لاح أمامي بعض المتشابكين يشتبكون في الأخدود نفسه، فصعدت بحصاني مباشرةً منحدر ضفة الأخدود دون أن أهبط عن متنه، ثم عبرت التلال إلى أرض الاشتباك، كان النسالى الزائرون قد أسقطوا أغلب جنود الأشراف صرعى وجرحى وحصدوا أسلحتهم وعلّقوها على ظهورهم العارية، فيما لم أرَ إلا بضعةً تعد على الأصابع قد لقوا حتفهم من زائرينا، فركضت خلف النسالى المحاربين أصرخ فيهم كي نتراجع إلى التلال ومنها إلى الجبال المقببة، لكنهم لم يستجيبوا لي وواصلوا مطاردة الأشراف، فصرخت إليهم بصوت أعلى كي يتركوا من تبقى من الأشراف ويتبعونني نحو ممرات التلال لكن ذلك لم يُجدِ معهم، بل وجدتهم يضربون الأعناق بحماس أكبر، فصرخت في نفسي بأنفاس لاهثة بعدما تنبهت إلى الأمر:

– لا يسمعون ما أقوله بسبب حشوات آذانهم، يظنّون أنني أحمّسهم على القتال.

إلى أن ظهر فجأة على أحد التلال المطلة على الرافد الشاب ذاته الذي كان يركض في الجانب الآخر من شارع المدينة عندما استحال من معي إلى بشريين، عرفته من اللحظة الأولى، كان يقف بحصانه ينظر إلى المتقاتلين من الجانبين دون أن يرتدي خوذة فوق رأسه، وبجواره وقف فارس شاب في مثل عمره كان يحاول تعديل وضعه المائل على سرج حصانه، فصرخت في النسالى في يأس كي يتراجعوا، لكنهم واصلوا زئيرهم وانقضاضهم على الأشراف، ثم وجدت التلال إلى جانبي هذين الشابين قد بدأت تحتشد بالفرسان الصاعدين من الرافد الأول والذين تزايدت أعدادهم بسرعة كبيرة ليصطفوا في دقائق على امتداد تلك التلال، فعرفت أن جميع النسالى المقاتلين بين الرافدين قد لقوا حتفهم، فصرخت من جديد في النسالى من حولي كي يتراجعوا للفرار بين التلال، لكنهم لم يسمعوني، حاول جنديٌّ تصويب سلاحه نحوي فأسقطته قتيلًا بطلقة واحدة من مسدسي، بعدها بدأت سرعة انقضاض النسالى بجانبي تقل كثيرًا، وانخفض صوت زئيرهم بشكل ملحوظ، فبدأت أطلق بارود سلاحي في يأس نحو من يحاول الاقتراب منا، وأنا أتراجع مهرولة بظهري، إلى أن استحالت أول جماعة من الزائرين إلى هيئتهم البشرية، سقط منهم أربعة قتلى في الحال بعد قنص رؤوسهم، وركض الباقون متراجعين وهم يصوّبون أسلحتهم النارية نحو الأشراف ويطلقون نيرانها بصورة عشوائية، ومن بعدها بدأت باقي الأجساد القوية الزائرة تستعيد هيئتها البشرية تباعًا ليسقط من يتم قنصه منهم قتيلًا ويهرب من يستطيع تفادي الطلقات النارية أو يستخدم جسد أحد الأشراف الساقطين كدرعٍ له قبل أن يبدأ في استخدام سلاحه.

في تلك اللحظات فقط استوعبوا هدف وجودي بينهم للمرة الأولى، وأسرعوا بإخراج الحشوات القماشية من آذانهم، فصرخت فيهم كي نتراجع إلى التلال، وإن كان داخلي بدأ يدرك وأنا أرى الأشراف يهبطون نحونا من أعلى التلال في ثقة كبيرة أن كل شيء قد انتهى وأنها مسألة وقت لا أكثر حتى وإن استطعنا الفرار لبعض الوقت بين التلال، لكني لم يكن بيدي حيلة أخرى .. وتراجعت معهم فارين نحو الجنوب بين التلال ليسقط منا من تصبه طلقة نارية في ظهره أو مؤخرة رأسه حتى صار عدد الباقين معي أقل من مائة نسلي مقابل أكثر من خمسمائة جندي شريف يلاحقوننا بأسلحتهم، ثم اختبأت خلف تلٍّ منخفض وحاولت التصويب نحو الجنود المتقدمين إلينا، فأسقطت اثنين منهم قبل أن تنتهي ذخيرة مسدسي، فجذبت بندقيتي المعلّقة على ظهري وأطلقت نيرانها نحو جندي كان يمد رأسه من خلف صخرة كبرى فسقط صريعًا، كذلك كان النسالى بجواري يواصلون إطلاق نيرانهم نحو الأشراف المدرعين المتقدمين نحونا في تشكيلٍ نصف دائري كان يضيق علينا أكثر وأكثر مع كل دقيقة تمر، ثم سقط ثلاثة نسالى بجواري قتلى بعد إصابات مباشرة في رؤوسهم فحملت مسدس أحدهم وحاولت مواصلة الفرار نحو الجنوب، لكني رأيت شابًا نسليًا لا يبلغ السابعة عشرة من عمره يرقد مسندًا ظهره العاري لصخور تلٍ مجاور، كان وجهه يعتصر بشدة من الألم وهو يمسك بساقه اليمنى التي كانت تنزف بغزارة، فركضت محنية الظهر نحوه وجلست بجواره مسندة ظهري إلى صخور التل أنا الأخرى، وقلت له:

– لا عليك، ستكون بخير أيها الفتى.

ثم خلعت سترتي المبطنة بالحلقات المعدنية اللينة ووضعتها فوق جرحه النازف وربطت كُميّها حول ساقه وعقدتهما بقوة محاولة إيقاف نزيفه، وضع الشاب يده على سترة ساقه وتحسس حلقاتها المعدنية، ثم نظر إلى سترتي القماشية المنزوعة الأكمام التي كنت أرتديها أسفل سترتي الواقية، ونظر في عيني كأنه أدرك أنها لن تستطيع وقايتي من رصاصة واحدة، وكاد ينطق، فربتُّ على ساقه السليمة في ابتسامة، لم أكن أعرف إن كان ذلك استسلامًا مني باقتراب النهاية وعدم جدوى سترتي الواقية على أي حال، أم أنه تفضيل مني للموت عن الاعتقال على أيدي الأشراف، ثم تفحصت حشو مسدسي فوجدت به أربعة طلقات نارية فقط فهززت رأسي أسفًا وأسندتها إلى الصخور، لأستمع بأنفاس محتبسة إلى وقع الأقدام التي كانت تقترب خلف التل تسحق الحصي أسفل أحذيتها الثقيلة، ويواصل أصحابها إطلاق بارودهم ناحيتنا دون توقف، قال الفتى بصوت ضعيف وهو يشير إلى تلٍّ قريب:

- عليكِ الهروب سيدتي إلى ذلك التل، سأحاول تعطيلهم.

قلت:

- لن أتركك يا فتى.

قال متوسلًا:

- أرجوكِ سيدتي، لن أنجو بكل حال، عليكِ الهروب.

ربتُّ على يده وقلت:

- سننجو سويًا.

كنت أعرف داخل نفسي أنني أكذب عليه، لم يكن هناك مجال لهروبي أو لنجاتنا سويًا مع عدم امتلاكي سوى أربعة رصاصات في سلاحي واقتراب جنود الأشراف منا إلى أقل من عشرة خطوات، فقال الفتى:

- كنت في باحة جويدا حين زأرت روحي للمرة الأولى من أجل إنقاذك سيدتي، كان انتصارًا عظيمًا ستفتخر به أرواحنا إلى الأبد.

ونظر لي وأكمل:

- ليس على الأبطال أن يحققوا الانتصار كل مرة طالما نالوا شرف المحاولة، أليس كذلك؟

هززت رأسي باسمة وقلت:

بلى يا صديقي.

فابتسم وأغمض عينيه وأسند رأسه إلى الصخور، لكنه فتحها مجددًا وحركها إليَّ في دهشة كبرى عندما سمعنا دقات طبول الشامو تدوّي في الأفق من جديد يرافقها جلبة شديدة من صياح حماسي وصهيل للخيول كانت تأتي من ناحية الشرق، توقفتْ معها الأقدام المحاصرة لنا عن التقدم، مثلما توقفتْ أنفاسنا غير مصدقين ما يحدث.

كانت الطبول تواصل دقّها فيما كان الصياح القادم يقترب بسرعة كبرى نحونا، نهضت بجذعي ومددت رأسي في حذر كي أرى ما يحدث، كان جنود الأشراف قد عادوا مسرعين لينظّموا صفوفهم أمام التلال المطلة على الرافد الأول وعلى وجوههم ارتسمت كافة علامات الترقب والاستغراب، ثم كانت المفاجأة التي اقتلعت قلبي، حشودٌ من النسالى البشريين يركضون عابرين تلال الأخدود بصدورهم العارية يحمل بعضهم أسلحة نارية من أسلحة قتلى المعركة، ويحمل آخرون أسلحة

بيضاء، سكاكين وخناجر وفؤوس، وآخرون يحملون أقواسًا مشدودة الأوتار بسهامها، وآخرون تحمل أياديهم صخورًا صغرى وتحمل ظهورهم أجولة منبعجة كان باديًا أنها تمتلئ بتلك الصخور، يندفعون جميعًا كالسيل الجارف نحو صفوف الأشراف دون ذرة خوف أو تردد بينهم فاضل وريان.

في ظروف أخرى كانت الكلمة العليا ستكون للسلاح الناري في يد الأشراف، لكن مع خمسة آلاف نسليٍّ ليس لديهم ما يخسرونه، يركض جميعهم دون توقف غير عابئين بمن يتساقط منهم وتصرخ حناجرهم بصيحاتهم المرعبة من أجل الانتقام فحسب وجد الاضطراب طريقه إلى قلوب الأشراف، وبدأت أرجلهم تتقهقر في ذعر إلى الخلف، وتلعثمت أياديهم وهي تُلقِّم أسلحتهم، لتتلقى رقابهم بارود النسالى وسهامهم، ويتساقطوا واحدًا وراء الآخر، قبل أن يصطدم بهم سيل النسالى ليقتلعوهم من الأرض اقتلاعًا، ثم تجمّع النسالى الذين كانوا يفرّون معي نحو التلال، وبدأوا في تصويب نيرانهم نحو الفرسان الذين صاروا مشتتين في كل اتجاه يلاحق الواحد منهم العشرات من النسالى حاملي السكاكين والفؤوس، بعدها رأيت الفتى الذي كان يقف مجاورًا للشاب الذي اعتقدت أنه حامل الروح النسلية يمتطي حصانًا محاولًا الفرار، فانتبهت حينها إلى الشاب نفسه الذي كان يركب حصانًا آخر يبتعد عنه بعض الأمتار ويحثّه على الإسراع، لينطلقا فارين، فركضت نحو أقرب الأحصنة لي، حاول أحد جنود الأشراف إصابتي لكنه أخطأني فأطلقت بارودي نحو رأسه فسقط صريعًا، ثم نظرت من جديد نحو الشابين فوجدتهما قد اختفيا، فوثبت إلى متن الحصان سريعًا، وركضت به شاقةً حشد النسالى الغفير أمامي للحاق بهما، فوجدتهما قد ابتعدا

عني بمسافة كبيرة وأوشكا على الخروج من ممر التلال، فصرخت في حصاني كي يسرع، ثم ابتسم الحظ لي عندما سقط الفتى الذي يرتدي خوذةً حين حاول مجاراة السرعة الرهيبة التي يركض بها صديقه وفرَّ حصانه مبتعدًا، فأعطاني ذلك فرصة عظيمة لأقلّل المسافة بيني وبينهما بعدما اضطر صديقه إلى العودة إليه ليركبه خلفه ويواصلا ركضهما، ثم خرجا من ممر التلال إلى الطريق الجبلي الممتد بمحاذاة الجبال المطلة على النهر الجاف، فلكزت حصاني كي يسرع أكثر من ركضه حتى خرجت أنا الأخرى إلى ذلك الطريق، لأواصل ملاحقتهما على مسافة لا تزيد عن خمسين مترًا، ثم فكرت في تصويب بارودي نحوهما عندما صار الطريق مستقيمًا دون انعطافات، لكنني تذكرت أن سلاحي ليس به سوى ثلاث طلقات نارية فحسب في الوقت الذي لم أعد فيه تلك الرامية ذات دقة التصويب الأفضل في مدرسة الضباط، فآثرت أن أنتظر حتى أدنو منهما بمسافة أقرب تزيد من ضمان إصابتي لهما، إلا أنني بدأت أشعر أن الحصان الذي أركبه يبطئ من سرعته، فتذكرت يعقوب حين كان يهمس إلى الخيل وجال في ذهني أن يكون ذلك الإبطاء بتأثير من الشاب الذي ألاحقه، وبدأت مخاوفي بفقده تتعاظم بعدما تزايدت المسافة بيننا بعض الشيء، فرفعت سلاحي، وهمست إلى نفسي مشجعة لها:

- لطالما كنتِ الأفضل في چارتين يا غفران.

ثم صوّبت سلاحي نحو قائمة حصانهما الخلفية اليسرى، وضغطت زنادي .. فسقط الحصان في الحال ومن فوقه سقط الفتيان بأجسادهما ليرتطما بالأرض بعيدًا عنه وخاصةً الفتى الأول الذي تدحرج بجسده كثيرًا، واصلت تقدمي نحوهما ثم هبطت عن حصاني، كان الفتى صاحب الخوذة قد تقهقر بجسده خائفًا إلى جانب الطريق ثم نهض وركض في

شق ضيق بين جبلين، تركته ومضيت قدمًا نحو الآخر، كان راقدًا على ظهره يتألم بشدة من أثر سقوطه، ويمسح بذراعه الدماء التي سالت على وجهه، واصلت تقدمي نحوه وأنا أمسك مسدسي في يدي، إلى أن وقفت أمامه، رفع حينها رأسه نحوي للمرة الأولى، ونظر في عيني وأنا أرفع سلاحي نحوه في صمتٍ لأصوّبه بين حاجبيه.

(١٥)

غفران

كان صدري يعلو ويهبط بأنفاس عميقة متباطئة وأنا أقف على بعد ثلاث خطوات من ذلك الشاب مُصوِّبة سلاحي نحو رأسه من أجل إنهاء ذلك الأمر، قبل أن يرفع عينه إليّ وينظر في عيني مباشرةً، لأشعر أن جسدي قد جُمد كليًا وسَرَت فيه رعشة لم أعهدها منذ زمن بعيد عندما رأيت في عينه النظرة ذاتها التي نظر لي بها نديم على منصة الباحة قبل سبعة عشر عامًا والتي لم أستطع نسيانها قط، لأحدّق في عينه في ذهول وأبتلع ريقي في توتر بعدما شعرت لوهلة أن المشهد نفسه يتكرر بحذافيره من جديد، وأنَّ من يرقد أمامي هو نديم نفسه، وأحسست أنه لو فتح فاه ونطق، لصرخ فيَّ متوسلًا بصوت نديم:

– لن أفعلها مجددًا، أعطني فرصة واحدة فحسب، أقسم لكِ بأنني سأحافظ على وعدي.

لتتسارع دقات قلبي وتندفع الدماء إلى وجهي ويومض في عقلي كل ذلك العناء الذي عانيته بعد قتلي لنديم، قبل أن يثب في رأسي فجأة مشهد يعقوب وهو يموت بين يدي، ومشهد النسالى الزائرين وهم يتحولون إلى هيئتهم البشرية ليحصدهم بارود الأشراف، ومشهد القذائف وهي

تتساقط فوق حاملي أرواح الشامو لتقتلهم في الحال؛ ليصرخ صوت قوي في داخلي بأن أضغط الزناد وأنهي ذلك الأمر، نظرت في عينه من جديد، كان يواصل تحديقه فيَّ دون أن ينطق بينما يسيل خط من الدماء على جبهته، حاولت أن أضغط الزناد، لكني لم أستطع، ووجدت عيني تمتلئ بدموعها لتتساقط على وجنتيّ وأنا أنظر في عينه، بعدها هبطتْ يدي بالمسدس إلى جانبي، نظر نحو وشم كتفي ونظر في عيني من جديد، ثم نهض في هدوء عن رقدته، واستدار بجسده وبدأ يركض مبتعدًا عني، لأقف مكاني أنظر إليه دون أن أحرك ساكنًا حتى صار على بعد مائة متر مني فاستحال إلى هيئته الزائرة وأطلق زئيرًا عاليًا، قبل أن يتابع ركضه الواثب بتلك الهيئة حتى اختفى عن أنظاري، فجلست مقرفصة على ركبتيّ يهتز جسدي اضطرابًا، ودسست وجهي في كفيّ لأواصل نشيجي بقوةٍ لم تحدث لي منذ تلك الأيام التي تلت قتلي لنديم.

بعد قليل من الوقت وصل فاضل بمفرده، هبط عن حصانه وأسرع إليّ حين وجدني أجلس على الأرض في تلك الحالة المضطربة على بعد أمتار من الحصان الجريح الذي كان يحمل الشابين فيما كان حصاني يقف يرعى على جانب الطريق، وسألني في ترقب عندما وجد عيني محمرتين من أثر البكاء:

- ماذا حدث؟!

قلت:

- إنه آدم.

وتابعت بعد لحظة حاولت فيها تمالك نفسي ولكني لم أستطع:

- كان باستطاعتي قتله، لكني لم أقوَ على فعلها.

وبدأت في نشيجي من جديد، ضم رأسي إلى صدره، فواصلت بكائي، إلى أن هدأت بعض الشيء فقال:

- لنعد إلى النسالى، لقد قضوا على ما تبقى من جنود الأشراف.

هززت رأسي إيجابًا، ثم امتطيت حصاني وتحركت به على مهل خلف حصانه، أفكر فيما حدث منذ شروق شمس ذلك اليوم ومقتل أكثر من تسعين في المائة من زائرينا بينهم حاملو الشامو حتى ما حدث في نهايته وعدم قتلي لمن تسبب لنا في كل هذه الخسارة عندما كنت قادرة على ذلك مُضيّعة دماء من قُتِلوا هباءً، لأكون صريحة إلى نفسي هذه المرة بيقين لا شك فيه، أنني لا أصلح لقيادة النسالى، وأن وجودي بينهم لم يسبب لهم إلا مزيدًا من الدماء والدمار بعد عيشة كانوا يألفونها، وفكرت أن أوقف حصاني وأستدير به لأركض إلى مكان آخر بعيدًا عنهم، لكن فاضل أبطأ من سرعة حصانه حتى صار بجواري وأمسك بيدي كأنه أدرك ما أفكر فيه، نظرت إليه بعين دامعة، وهززت رأسي آسفة، فقال:

- سيصبح كل شيء على ما يرام.

ثم وصلنا إلى منطقة الروافد، كان عدد صغير من النسالى ينتشر بين التلال التي شهدت المعركة، قال فاضل:

- لقد كلفنا بعضهم بالبحث عن أي أسلحة أو ذخيرة.

وأشار نحو نسلي يحمل درعًا وخوذة وقال:

- وكلفنا آخرين بتجريد جثث الأشراف من دروعهم وخوذاتهم وإحضارها إلينا.

هززت رأسي إيجابًا دون أن أقول شيئًا، وواصلت طريقي معه عابرة الرافدين حتى وصلنا إلى المنطقة الوسطى التي تناثرت في أرضها الحُفر

من أثر القذائف، فأغمضت عيني كي لا أرى الأشلاء المحترقة، ثم انطلقنا إلى الجبال المقببة، وهناك تلقاني كثير من النسالى بأعين مترقبة لا أعلم إن كانوا يتساءلون إن كنت قد قتلت حامل الروح أم لا، لم أكن أحتاج إلى أن أجيبهم، كانت الملامح المنطبعة على وجهي المنكس إلى الأرض كفيلة بإخبارهم أنني خذلتهم كالعادة، وأكملت طريقي إلى خيمتي في صمتٍ شديد تعصف برأسي كافة الأفكار والمشاهد في آن واحد، القذائف وهي تسقط فوق حاملي أرواح الشامو لتقتلهم في الحال، النسالى الزائرون وهم يتساقطون بجواري واحدًا وراء الآخر بعدما استحالوا إلى هيئتهم البشرية، آدم وهو ينظر في عيني دون أن يقول شيئًا، آدم وهو يستحيل إلى هيئته الزائرة بعدما ابتعد عني، نديم وهو يتوسل إليّ قبل ذبحي له، النسالى الزائرون وهم ينقذونني من الإعدام في باحة جويدا، آدم من جديد، ثم بدأت التساؤلات والخيالات الوهمية تتقافز صارخةً في ذهني المشوش، لماذا لم ينطق إليّ بشيء؟ لماذا لم يستحل إلى هيئته الزائرة قبل أن أهاجمه وأصبح على وشك قتله طالما استطاع فعل ذلك بعدما تركته يمضي؟ لماذا استسلم لي إلى هذا الحد؟ لماذا فعل كل هذا بنا؟! لماذا خان بني جنسه؟! ثم صرخت إلى نفسي بصوت عالٍ:

- لماذا لم تقتليه؟! لقد مات نديم منذ سنوات، لماذا تحكمتْ بكِ المشاعر من جديد؟! لماذا أضعتِ حق من ماتوا هباءً أيتها البائسة؟!

قبل أن أنهار وأواصل بكائي من جديد، دلف إليَّ ريان بعدما بدا أن بتول أسرعت بإخباره بما يحدث لي، وحاول تهدئتي، فقلت باكية:

- لم أكن أهلًا قط لهذه المسئولية، لم أكن أهلًا لها قط.

قال:

- إنها مسئوليتنا جميعًا سيدتي، لقد كنت من اقترح هذه الخطة منذ البداية، ووافقنا عليها جميعًا، ووافق عليها ثلاثي الشامو رغم علمهم بخطورة مواجهتنا للأشراف وبينهم حامل الروح النسلية. لكن لم يكن بيدنا شيء آخر، ولم نكن لننتظر في جبالنا حتى يتقدم إلينا الأشراف ليحصدونا بداخلها.

وسكت قليلًا ثم تابع:

- حين عاد إلينا الطبيب يخبرنا بما حدث في المعركة، توقعت أن يلملم الجميع أغراضهم من أجل الهروب سريعًا، لكني وجدتهم ينظرون إلى بعضهم البعض ويقررون في لحظة الاندفاع إلى ميدان المعركة من أنفسهم لإنقاذك وإنقاذ من تبقوا من الزائرين.

ربما فقدنا قوة الزائرين اليوم لكنا ربحنا آلاف المقاتلين الشجعان بينهم على الأقل ألفا مسلح ومدرع، لن يكونوا صيدًا سهلًا أبدًا لكيوان في معركتنا القادمة.

ثم أردف حين وجدني أنظر إلى الأرض في شرود كبير:

- لم تقتلي النسلي! لم يعد لقتله معنى، لقد كان الهدف من قتله حماية الزائرين منه، والآن صار عدد ما لدينا من الزائرين أربعين فقط لا يقوون على استرجاع أرواحهم الزائرة، لن يفيد مقتله في شيء، دعيه لكيوان سيقتله هو بعدما يعرف أنه أنجز مهمته، لا تحملي نفسك أكثر من طاقتها سيدتي، إنني أكثر من يعرف هنا عن معاناتك بعد موت سيدي، وأدرك ما شعرت به حين كان بمقدورك قتل الفتى، إننا بشر في النهاية سيدتي وأَنتِ نقية القلب وجميعنا يعرف هذا، وكل واحد هنا يعرف ما عانيتِه في كل

دقيقة من السبعة عشر عامًا التي قضيتِها بيننا ومن ينكر ذلك سأشق رأسه نصفين، لستِ أنتِ من ينكّس رأسه سيدتي.

وهدّأ من نبرة صوته وقال:

- لقد كانت رحلة طويلة بدأناها معًا وسنكملها معًا حتى النهاية، كان شرف لي أن أكون برفقتك طوالها وشرف لأي فردٍ هنا، ولحسن حظنا أن نهاية هذه الرحلة ستكون مريحةً لنا في الحالتين؛ إما أن يقتلنا كيوان ونرتاح أخيرًا من ذلك الشقاء، وإما أن ننتصر ونزيل القواعد التي سبّبت لنا كل تلك المتاعب، لا نفكر في نهاية ثالثة سيدتي، لست من أقول ذلك، بل من يقفون في الخارج، لقد عرف النسالى أن حقهم لن ينالوه إلا بأنفسهم، ليس بالنسالى الزائرين، وأدركوا أنهم لا يملكون خيارًا آخر سوى أن يحاربوا من أجله حتى آخر نفسٍ فيهم، عليكِ أن ترتاحي سيدتي وتطرحي همومكِ جانبًا، إن لدينا الكثير من العمل في الأيام القادمة، لا بد وأن كيوان قد علم بما حدث ويجهّز جيشه الأكبر للتقدم إلينا وهو مطمئن القلب بأنه لن يجد زائرين، علينا أن نثبت له أننا لن نكون لقمة سائغة أبدًا.

ونهض كي يغادر، لكنه وقف قبل أن يخرج وقال باسمًا:

- آه، هناك فتى مصاب بالخارج يحكي لشبان النسالى ما فعلتِه معه في أرض المعركة وكيف أوقفتِ نزيف ساقه، لا يتنازل قادة كثيرون عن سترهم الواقية من أجل رجالهم، والرجال يقدّرون ذلك كثيرًا.

ثم قبَّل رأسي، وغادر، بعدها دلف إليَّ فاضل الذي بدا وأنه كان ينتظر في الخارج وآثر ألا يقطع حديث ريان معي، وأعطاني شرابًا عشبيًا قال بأنه وجد أعشابه أثناء ترحالنا في ممرات الجبال، حين تناولته لم يأخذ الأمر مني دقائق حتى غبت في سُبات عميق.

في اليوم التالي اتخذت قراري بابتعادي عن قيادة النسالى وأبلغت ريان وفاضل بذلك، حاولا أن يثنياني عن الأمر لكني كنت قد فكّرت مليًا في الأمر قبل مجيئهما إليّ واتخذت قراري باقتناع تام، حاول آخرون من النسالى التحدث إليّ عندما عرفوا بالأمر لكني أصررت على موقفي وأخبرتهم أن الوقت قد حان لاختيار قائد جديد من بينهم ليقودنا في الأيام القادمة، وأعلنت لهم بأنني سأكمل تدريبي للشبان على الرماية مثلما فعلت سابقًا مع النسالى الزائرين فأعلنوا احترامهم لقراري، قال لي ريان بعد ذلك بأنهم اختاروه مؤقتًا ليكون قائدًا لهم بعد ظهور بعض الخلافات على من يصلح لقيادتهم وكاد الأمر يتطور إلى شقاق بين أهالي الوديان لولا تدخل الطبيب في هذا الأمر، الغريب في الأمر أن مدافع كيوان لم تقصفنا خلال تلك الأيام، لا أعلم هل أدرك أن جبالنا ستصمد إلى أبد الدهر ضد قذائفه وأنه يهدر ذخائره هباءً فوق صخورها أم كان يحضّر لشيء آخر نجهله، غير أن ريان ألزم الجميع باتخاذ أماكنهم داخل الجبال وعدم الخروج إلى ممراتها إلا للضرورة القصوى تحسبًا لأي قصف مفاجئ، أخبرني فاضل أن محاولات الأربعين المتبقين من النسالى الزائرين لاستعادة أرواحهم الزائرة باءت جميعها بالفشل وكأن أرواحهم أُخمدت للأبد، ليكون آخر زئير شهدته جبالنا هو

زئير النسالى صباح يوم معركة الروافد، لتنتهي بذلك حقبة النسالى الزائرين التي لم تدم سوى أربعين يومًا دون أن نحسن استغلالها.

أدركت خلال اليوم الأول من تدريبي للنسالى على التصويب أن ريان وفاضل لم يخبرا أحدًا بشأن إفلاتي لآدم حيًا كي لا تهتز صورتي في أعين النسالى، فشكرتهما كثيرًا على ذلك وأنا في طريقي لآوي إلى كوخي حيث غصت من جديد بين أفكاري وخيالاتي محاولةً افتراض أي تفسير يفسّر لي عدم قيام آدم بمهاجمتي بصورته الزائرة، لكني لم أصل إلى شيء، ولم أجنِ من هذه الخيالات إلا مزيدًا من الإرهاق الذهني، ذهبت إلى الجبل المنقوش به رسومات السفن وقضيت ساعات أحاول فك طلاسم النقوش أسفلها لكني لم أستطع، فعدت إلى كوخي خائبة الرجاء لأغوص بين خيالاتي من جديد، لتمضي تلك الأيام واحدًا وراء الآخر في أسوأ اضطراب نفسي حدث لي منذ سبعة عشر عامًا، إلى أن جاء صباح اليوم الثامن بعد معركة الروافد وكنت في جبل المقاتلين أدرّب النسالى على الرماية حتى تناهى إلى مسامعنا فجأة صوت زئير قادم نحو جبالنا، نظرت في تعجب إلى فاضل وريان اللذين كانا يقفان بجواري، ثم نظرت إلى الشبان الأربعين حاملي أرواح الضواري الخامدة والذين كانوا يصطفون بين المتدربين فوجدتهم لا يزالون على هيئتهم البشرية، ينظرون إلى بعضهم البعض في استغراب شديد .. قبل أن يحمل ريان سلاحه الناري ومعه فاضل وبضعة رجال، ويخرجوا إلى الخارج في حذر، اضطرب داخلي والزئير يتقدم نحونا أكثر فأكثر، وتساءلت بيني وبين نفسي إن كان آدم قد عاد إلينا، لأخرج بعدهم في ترقب وحذر يدق قلبي في اضطراب شديد، إلى أن لاح أمامنا صاحب ذلك الزئير، لم يكن آدم كما خيّل لي عقلي، كان آخرًا نسيناه تمامًا، بكير، ذلك النسلي الزائر

الذي تركناه عند كهف الجداريات من أجل مراقبة صاحب وعاء الطعام، وأفلت من إخماد روحه في معركة الروافد، تقدم إلينا مترجلًا حتى وقف أمامنا، فاستحال إلى هيئته البشرية وقال:

- لقد وجدت صاحب الوعاء سيدتي.

قلت:

- من هو؟

نظر خلفه نحو حصان كان يتقدم تجاهنا ببطء في الممر الرئيسي بين الجبال المقببة، شعرت حين أبصرته أن كل حواسي قد جُمدت تمامًا عندما وجدت ذلك الحصان يحمل على صهوته سبيل ومن أمامها طفلها الشريف حيدر صاحب الستة أعوام.

لوهلة شعرت أنني لا أصدّق عيني، طفل سبيل لا يزال على قيد الحياة؟!!

واصل الحصان تقدمه نحونا حتى صار على بعد بضعة خطوات منا، فأوقفته سبيل ثم ترجلتْ بعدما ناولت طفلها إلى بكير الذي أنزله إلى الأرض برفق، نظرتُ إلى ريان وفاضل لعل أحدهما يخبرني بأن هذا الطفل الهزيل الذي يقف أمامي بثيابه البالية والحبل الذي يرتديه في رقبته كعِقد ليس إلا خيالاً من الخيالات التي أصابتني في الأيام الماضية، لكن ريان تقدم إلى سبيل وقال في دهشة وهو ينظر إلى الطفل:

- ألم تذبحي طفلك؟!

هزّت رأسها نافية، وقالت بنبرة خائفة مرتبكة وهي تنظر إلى النسالى المحتشدين خلفنا:

- لم أقوَ على فعلها.

لينظر الجميع نحوها ونحو طفلها وعلى وجوههم السؤال ذاته الذي نطق به ريان إليها:

- إذن، كيف ثارت أرواح النسالى الزائرين؟!

قالت:

- لا أعرف.

نظر لها ريان حائرًا، ثم التفت ونظر إليَّ وإلى فاضل وإلى النسالى الذين بدأوا يهمهمون إلى حد الضجيج، ثم أمر إحدى الفتيات بنبرة قيادية بأن تصحب سبيل وطفلها إلى باحة جبلنا كي ينالا راحتهما، فأومأت الفتاة في طاعة، ثم تحرك إلينا وقال بعدما أمر الباقين بالعودة إلى تدريباتهم:

- إذن كل ما ظنناه خلال الفترة الماضية كان اعتقادًا خاطئًا تمامًا منا.

قال فاضل الذي كان ينظر إلى سبيل وطفلها وهما يبتعدان وراء الفتاة:

- هذا لا يترك لنا إلا تفسيرًا واحدًا، أن هناك من استدعى الأرواح الزائرة من أجلنا.

ونظر لي. كان ذلك التفكير قد خطر إلى ذهني في الحال بمجرد أن رأيت سبيل وطفلها، فقلت:

- هل يكون هو من فعلها؟!

قال فاضل:

- قال خشيب غير مؤكدٍ أن حاملي أرواح الشامو قد يكون لديهم القدرة على ذلك، ولكن بعد معايشتي ليعقوب ومنذر وأصيل وبيجاد فكرت في أنه أساء فهم النقوش، كان للشبان قدرات أقوى من غيرهم حقًا لكن أن يستدعوا أرواحًا خامدة لتثور!، لا أظن أنهم كانوا يستطيعون ذلك، وإلا كان يعقوب استطاع منع الزائرين من الانصياع لآدم يوم هجومكم الأول.

وسكت لبرهة وأكمل:

- بعدما رأينا قدرة آدم على إخماد كل أرواح النسالى يوم معركة الروافد، أعتقد أنه الوحيد الذي كان بمقدوره استدعاء أرواحهم.

هززت رأسي إيجابًا وقلت:

- جال في بالي هذا الأمر في الأيام الماضية بعدما لم يهاجمني رغم قدرته على التحول إلى نسلي زائر.

قال ريان:

- إن كان قد استدعاهم من أجل إنقاذك أو إنقاذنا يوم الغفران قبل الماضي مما أراد كيوان فعله، فلماذا يساعد الأشراف؟ لماذا أصر على قتل جميع النسالى الزائرين؟ لماذا لم ينضم إلينا إن كان يعرفك حقًا؟

وأخرج زفيره وقال:

- صار الأمر معقدًا أكثر مما كنت أعتقد.

لم أكن أمتلك أي إجابة أجيبه بها، كذلك فاضل، فقلت لريان:

- احرص على حماية طفل الفتاة، قد يفكر البعض في إيذائه، قال خشيب أن قوى الزائرين حتى وإن استدعاها حامل روح الشامو لن تكتمل قواها إلا إن ذُبح الطفل على صخور حوران، وأعتقد أن هذا الكلام قد تناقل كثيرًا بين النسالى بعد ثورة الأرواح الزائرة، ربما يفكر البعض الآن في إيذاء الطفل كي يستعيد الأربعون الذين خمدت أرواحهم قدراتهم، أو من أجل استدعاء المائتين المفقودين منذ ثورة تلك الأرواح.

قال:

- سأحرص على ذلك سيدتي.

قال فاضل:

- يبدو أن الأيام القادمة ستحمل لنا مزيدًا من المفاجآت.

قلت:

- أتمنى أن تكون مفاجآت سارَّة، وإن أصبحت أخشى أن أجزم بشيء من كثرة ما صار يحدث لنا.

وتابعت:

- سأذهب إلى الفتاة بعد أن تنال راحتها، لا بد أنها في حاجة إلى من يطمئنها أن فتاها سيكون بخير هنا، كذلك نحن في حاجة إلى أن نعرف تفصيلاً ما حدث لها خلال الفترة الماضية.

في المساء دلفتُ إلى سبيل في الكوخ الذي خصصه لها ريان، نظرتْ نحوي مترقبةً ما سأنطق به، فجلستُ وسألتُها دون مقدمات:

- لماذا لم تعودي إلينا منذ دُمرت ودياننا يا سبيل؟

قالت:

- هربت بطفلي منذ حصلنا على رأس التمثال سويًا، وعشت على مقربة من الوادي الذي كنت قد انتقلت إليه بعد إعدام حيدر زوجي، قبل أن أغادره حين اشتد الخناق من جنود كيوان على كافة الوديان بحثًا عني، كنت أنوي حقًا ذبح طفلي من أجل استدعاء أرواح الزائرين، وأبلغت ريان بذلك حين لاقاني وأخبرني عن خطة الطبيب الذي أعدّها قبل رحيله عن وادي النسالى، لكني

حين صرت أمام ذلك الأمر لم أستطع فعلها، بعدها عرفت ما حدث يوم الغفران في الباحة ورأيت بعيني نسليًا تثور روحه أمامي ويركض بعيدًا عني، فأدركت أن النسلي الذي يحمل روح حبيبك قد فعلها واستدعى أرواحهم من أجلك، فكرت أن أعود إليكِ لكن جال في ذهني كلمة العجوز خشيب بأن قوى النسالى لن تكتمل إلا بذبح حيدر فخشيت أن أعود خوفًا عليه من النسالى الزائرين أنفسهم، وآثرت أن أكمل ترحالي وحيدة أتنقل من وادٍ إلى آخر أحصل على طعامي من بقايا الطعام في الوديان المهجورة البعيدة.

ونظرتْ إلى الأرض وقالت في خِزي:

- كذلك تخلصت من رأس التمثال كي لا يفكر أحد في إيذاء طفلي.

ثم نظرت إليّ من جديد، وتابعت:

- إلى أن استقر بي الحال في كهف الجداريات، كنت على مقربة منه حين بدأ قصف الجنوب المفاجئ فلجأت إليه للمرة الأولى ومعي طفلي كي نحتمي في داخله من ذلك القصف، وبقيت فيه لبعض الأيام معتمدة على ما لديّ من طعام، ثم فكرت في أن أجعله مأوى لنا بعد ظني بأنكم قد ابتعدتم جنوبًا هروبًا من قذائف كيوان، وكذلك استبعادي لاحتمالية تواجد جنود كيوان على مقربة منه مع استمرار ذلك القصف لأمكث فيه طوال تلك الأيام، لم أكن أغادره إلا من أجل البحث عن طعام قبل أن أعود إليه من جديد.

لا أعلم إن كان من حسن حظي أَم سوئه أنني غادرت الكهف قبل مجيئكم إليه، لكني عدت إليه وصعدت الجبل مباشرة دون أن أعلم أن بكير كان ينتظر قدومي بأسفله، وأن المصادفة شاءت ألا

أراه أو يراني وأنا أصعد إلى الكهف بعدما كان يتجوّل للصيد في الجوار في الوقت الذي وصلت فيه إلى سفح الجبل، لأقضي أيامي في الكهف دون أن أعلم بوجوده، حتى خرجت من جديد بالأمس ففوجئت به يركض نحوي وأنا أهبط الجبل بطفلي ويمسك بي ليحضرني إلى هنا، وفي الطريق أخبرني بما حدث منذ ثورة أرواح النسالى الزائرين حتى مجيئك إلى الكهف مع الطبيب فاضل الذي اندهشت بعودته، وحامل روح الشامو «منذر».

كنت أعرف أنني سأعود إليكم يومًا ما سيدتي، لكني كنت خائفة، كانت نيتي طيبة أقسم لكِ، انتظرت فقط أن تحققوا نصركم الكامل وتنسوا أمر طفلي كي أستطيع العودة بعدها بقلب مطمئن.

قلت لها في حزن:

– لقد عدنا إلى نقطة الصفر يا سبيل، لم يعد لدينا من الزائرين سوى بكير الذي عاد بكِ.

قالت في استغراب شديد:

– والباقون؟! والنسلي الذي استدعاهم؟

قلت:

– حدثت أمور كثيرة لا نستطيع فهمها، قام حامل روح قائد الزائرين بإخماد أرواحهم، وقُتلوا جميعًا باستثناء أربعين منهم على أثر ذلك، والآن بعد عودتك مع طفلك نظن بصورة كبيرة أنه هو نفسه من استدعاهم، ذهبنا إلى الكهف من أجل أن نفهم ما يحدث لعل العجوز أخفى عنا شيئًا وهو يخبرنا عن نقوش الجدران هناك، لكننا لم نستطع فك رموز الچارتينية القديمة.

قالت وهي تحاول التذكر:

- لا أتذكر أن نقوش جدران الكهف قد ذكرت في أي جزء منها شيئًا عن إخماد أرواح الزائرين بعد ثورتهم.

هززت رأسي إيجابًا دون تركيز كبير مع حديثها، فأردفت:

- كانت قراءة تلك النقوش هي تسليتي الوحيدة خلال الأيام التي قضيتها في الكهف.

حينها نظرت إليها متعجبة وسألتها:

- هل تستطيعين قراءة رموز الچارتينية القديمة؟

قالت:

- نعم، تعلمت قراءة الكثير منها بالفعل، حين خدمتُ في بيت أخيكِ كان لديكم مكتبة عظيمة تحوي مئات الكتب عثرت بينها ذات يوم على كتاب يعلّم قراءتها، فاستغللت الوقت الذي لم يكن به سيدي زين في البيت وبدأت أقرأ في ذلك الكتاب مرارًا وتكرارًا بعدما تذكرت حديث العجوز عن السنوات الكثيرة التي قضاها في فك رموز الكهف، وحين ولجت إلى الكهف مرة أخرى بدأت أطبّق ما تعلمته من ذلك الكتاب، كان الأمر مثيرًا، ووجدت الكلمات تتضح أمامي كلمة وراء أخرى. أظن أنني قرأت جميع النقوش هناك وأستطيع أن أجيبك عن أي استفسار لكِ، لكني متأكدة أن شيئًا لم يُذكر هناك عن إخماد أرواح النسالى الزائرين.

قلت لها على الفور:

- انهضي لتأتي معي.

قالت مندهشة:

- إلى أين؟!

قلت في عجلة:

- هناك نقوش أريدكِ أن تقرأيها لي.

وناديتُ بتول كي تعتني بحيدر حتى عودتنا، وقلت لسبيل حين نظرتُ إليها في قلق:

- لا تقلقي سيكون بخير.

ثم حملتُ شعلةً، وتقدمت خارجة معها من جبلنا المقبب نحو الجبل الذي عثرنا فيه على رسومات السفن، ودلفنا إلى باحته، وتقدمنا مباشرةً إلى جدرانه الداخلية، ثم قرَّبت شعلتي من النقوش وسألتها:

- هل تستطيعين فك ألغاز هذه النقوش الچارتينية القديمة؟

اقتربت سبيل من النقوش وبدأت تحرك شفتيها بهمسات لا أسمعها، حتى نطقت:

- أعتقد أنني أستطيع قراءتها.

وبدأت تقرأ بصورة متقطعة:

- خُلِق .. النسالى الزائرون .. كي يحموا .. بني جنسهم .. من البشر .. لذا لن يتوانوا .. عن تقديم .. أرواحهم .. فداءً .. في سبيل .. بقاء النسالى .. حين يتم .. سيد الزائرين .. عهد السفن ..

ثم أعادت قراءة الجملة كاملة دون تقطيع:

- خُلِق النسالى الزائرون كي يحموا بني جنسهم من البشر؛ لذا لن يتوانوا عن تقديم أرواحهم فداءً في سبيل بقاء النسالى حين يتم سيد الزائرين عهد السفن.

فنظرتُ إليها في دهشة كبرى عندما انتهت من القراءة، وحدثتُ نفسي بصوت عالٍ في حيرة شديدة:

- عهد السفن؟!، أي عهد هذا؟!

(١٦)

بريحا:

قبل ثورة أرواح الزائرين ببضعة أيام:

غادرت السيدة سيرين مع أختها إلى جويدا من أجل لقاء والدهما الذي أصر على لقائهما قبل إعلان الفارس كيوان العفو عنه، وقررت ألا تصطحب آدم معها حتى وإن تخلّت عن إعطائه الأعشاب المنومة خشية أن يرى الرامية التي بدأت تظهر في أحلامه بوضوح بعد قدوم الأخبار عن محاكمتها على منصة الباحة يوم الغفران التالي.

لم تكن تعلم أن أحلام آدم قد شهدت تطورًا غير مسبوق في خلال الأيام التي ظنت فيها أنه يتناول أعشابها دون أن يخبرها بذلك.. بعدما رآها خلسة وهي تخلط تلك الأعشاب في شرابه وأخذ حفنةً منها وذهب بها إلى طبيب بريحا، فأخبره أن السيدة من ابتاعتها منه كي تتجنب أرقها اليومي، لم يُغضبه ذلك منها، وأدرك أنها فعلت ذلك حبًا له، لكنه منذ أن رأى ملامح وجه قاتلته يظهر في حلمه بهذا الوضوح ووجد داخله مفعمًا بالفضول لرؤية المزيد من التفاصيل، رآها في يوم آخر طفلة يحملها أبوها فوق كتفيه، ظلت تختلس النظرات إليه في مكر وهو يتشبث فوق عمودٍ في الباحة يراقب ما يحدث على منصتها، ليفتح عينه وهو راقد على سريره بعدما تذكر أنه صعد إلى ذلك القائم في المرة الوحيدة

التي ذهب فيها إلى الباحة قبل التقائه النسلية التي سلّمته إلى خالته سيرين، ثم أغمض عينه من جديد ليرى في الليلة ذاتها منامًا كان يتنقل فيه بين المحتشدين في الباحة، وفي داخله شوق كبير كي يرى شخصًا ما، قبل أن يسمع صوتها الواضح يناديه من وراء العشرات من الواقفين، «نديم»، كان هذا الاسم الذي نادته به، وجد نفسه يلتفت نحو الاتجاه الذي أتى منه ذلك النداء، ليرى وجهها. لم تكن بالملامح ذاتها التي رآها عليها وهي تقتله، كانت أصغر سنًا، ربما في مثل عمره الآن، أو أقل قليلًا.

مرة أخرى رأى نفسه في الباحة أيضًا وهو يتحرك بين الواقفين كي يلاقيها، لم يكن تنقله هذه المرة سهلًا أبدًا بعدما تعمّد الجميع الوقوف في طريقه، إلا أنه واصل تقدمه بين أولئك المتعنتين بعدما ظهرت على الجانب الآخر منهم، قبل أن توقفه لكمة قوية على صدره أسقطته أرضًا، حاول النهوض من جديد لكنه تلقى ركلة قوية في بطنه، نهض كي يرى من يضربه بهذا العنف دون سبب، كان فارسًا غليظ الوجه أراد أن يضربه من جديدٍ لولا أن الفتاة أمسكت بيده بقوة ليستحيل المكان من حوله لحظتها إلى مرجٍ مزهر يطل على نهرٍ جارٍ ظلَّا يسيران وسط زهوره وحشائشه حتى توقفا على ضفة ذلك النهر الذي فاضت ماؤه لتلامس أقدامهما، نظر إلى صورتهما المنعكسة في مياه النهر فوجد وشم النسالى منطبعًا على جانب صدره الأيسر فيما تحوّلت ثياب الفتاة إلى ثوبٍ عسكري يحمل شعار رامي المنصة، نظر إلى صدره نفسه في ذهول فوجد الوشم منقوشًا عليه بالفعل، فالتفت إلى الفتاة مترقبًا رد فعلها، فابتسمت مطمئِنَة له، وقالت:

– لا عليك، سنجد كثيرًا من الصعاب في طريقنا.

فتح عينيه لحظتها متعجبًا وهمس إلى نفسه في ريبٍ عندما شعر أن شيئًا معلّقًا في ذاكرته يشبه ذلك تمامًا:

- لقد حدث لي هذا الأمر من قبل.

ونهض من سريره عاري الصدر، وأشعل مصباح الغرفة الناري، ونظر في المرآة إلى صدره في توجس، لم يجد شيئًا، لكنه ما إن نظر في عين صورته بالمرآة وتعمق فيها حتى تسارعت دقات قلبه بعدما شعر للمرة الأولى أنه ينظر في عين شخص آخر.

ذهب إلى ورشة الحدادة في صباح اليوم التالي لا يشغل باله سوى ذلك الحلم، سأل السيد عبود على حين غرة إن كان يعرف شيئًا عن الرامية المقرر إعدامها بعد أيام، أجابه الرجل نافيًا في غير اكتراث، ثم اقتربت السيدة سيرين منهما فلاذَ بصمته قبل أن يبدّل مجرى الحديث سريعًا، بعدها أخبرهما كاذبًا بأنه ذاهب إلى عجوز كان قد قابله وأراد منه إصلاح عربته في منزله لعدم قدرته على المجيء إلى الورشة، وحمل أدواته وغادرهما، ليذهب مباشرة إلى الرجل الذي كان يحمل رسالة خالته سيرين إلى زهير في جويدا وحدثهما عن محاكمة الرامية على المنصة يوم الغفران القادم، «السيد مصباح»، ذكَّره بنفسه أولًا ثم قال:

- أعلم أنك تتردد على جويدا كثيرًا منذ سنوات طويلة سيدي، أريد أن أعرف قصة الرامية المعتقلة.

قال الرجل:

- إن الجميع في جويدا يعرف قصتها، كانت رامية المنصة قبل سبعة عشر عامًا تقريبًا، ثم أعدمت نسليًا كانت أعلنت للجميع أنها ستتزوجه بعدما ارتكب جرمًا وأقر القاضي إعدامه، ثم

انضمت للنسالى أنفسهم بعدها مباشرةً، وأصدر القاضي نفسه حكمًا بإزالة صفة الأشراف عنها بعد تورطها في سرقة مدرسة في جويدا. هذا كل ما أعرفه.

تذكر اسم نديم الذي نادته به في حلمه، فسأله على الفور:

- هل تتذكر اسم حبيبها الذي أعدمته؟

قال الرجل:

- لا، لم نعتد أن نعرف النسالى بأسمائهم.

زم شفتيه، ثم سأله من جديد:

- ولماذا لم تكمل حياتها مع الأشراف؟

قال الرجل:

- لا أعرف، إن في رأس كل فرد منا شيطانًا يوسوس له ليضل الطرق الصحيحة، وكان شيطان هذه المرأة عظيمًا.

وصمت لهنيهة، ثم أضاف:

- لكن القلق المنتشر في جويدا خوفًا من رد فعل النسالى على قتلها كان يعبق في كل مكان هناك، لأول مرة أرى مدافع بهذا الشكل تتحرك نحو وديان النسالى، يبدو أن الأمر جديٌّ هذه المرة.

فقال آدم:

- إن أردت أن أعرف أكثر عن هذا الأمر، كيف أستطيع ذلك؟

قال الرجل:

- عليك بالذهاب إلى جويدا إذن، إن قصتها هناك يعرفها كل كبير وصغير.

قال آدم في حسرة:

- لا أستطيع، لن يسمح لي السيد عبود بترك الورشة لأيام. على أي حال لا يستدعي الأمر كل هذا، إنه فضول فحسب.

وشكر الرجل، وكاد يغادر، فقال الرجل:

- إن حدوات حصاني تؤلمه كثيرًا بعد رحلتي الأخيرة إلى جويدا، وأعتقد أنها في حاجة إلى التغيير، إن بدَّلتها لي دون مقابل، سأدلّك على رجل أعرفه اعتاد الذهاب إلى وادي النسالى في كل مرة كان يذهب فيها إلى جويدا، أعتقد أنه قد يخبرك المزيد عن هذه المرأة دون أن تحتاج إلى الذهاب هناك.

فقال آدم على الفور بأسارير منفرجة:

- إنني موافق بالطبع.

في تلك الليلة أقنع خالته سيرين بأنه تناول شرابه من غير أن تعرف أنه سكبه بأكمله داخل حذاء كان يقبع أسفل الطاولة، ثم تظاهر بالنعاس وذهب إلى غرفته منشغل الذهن بما قد يخبره به ذلك الرجل الذي كان ينوي ملاقاته، وأغمض عينه وهو يحاول تذكر متى حدث له المشهد الذي لكمه فيه الفارس، والذي كان على يقين بأنه حدث له من قبل، حتى غلبه النعاس، فرأى نفسه جالسًا في كوخ طينيّ تهتز ساقاه بقوة وهو يفكر في ذلك الفارس الذي أهانه، قبل أن يجد عضلات جسده تؤلمه جميعها في آنٍ واحد ويشعر أن حملًا ثقيلًا جثم فجأة على صدره، فنهض محاولًا الخروج من ذلك الكوخ وهو يضع يده على رقبته كي يستطيع التنفس، لكنه سقط قبل أن يخرج منه بعدما ثقلت عضلات جسده وتشنجت مفاصله، حاول أن ينادي من يغيثه، وجد صوته مبحوحًا للغاية -مجرد همس بالكاد يسمعه-، حاول الصراخ رغم ذلك:

- ريااان.

نادى ذلك الاسم أكثر من مرة وهو يشعر أن روحه تفارقه، لكن أحدًا لم يأتِ، ليشعر بعدها أن عظام رأسه تتمدد لتصيبه بألم قاتل جعله يضرب حائط الكوخ بجواره بقبضته من شدته، بعدها حاول أن يستجمع قواه كي ينادي ريان من جديد، لكنه بدلًا من أن تصرخ حنجرته بصوته وجدها تطلق زئيرًا رهيبًا كزئير الضواري.

فتح آدم عينيه في تلك اللحظة وهو يلهث، وهمس إلى نفسه:

- الرسمة ذاتها التي رآها زهير مع عمه.

ثم نظر إلى الفراغ أمامه للحظة وتساءل إلى نفسه من جديد بعدما تمالك نفسه:

- ريان؟! لماذا كان هذا الاسم تحديدًا؟

في الصباح التالي تظاهر بالخمول أمام السيد عبود، ثم أخرج له بعضًا من القطع المعدنية التي يدّخرها وادّعى أنها من العجوز الذي أصلح له عربته في بيته، وقال في غير اهتمام بأن عجوزًا آخر عرض عليه مبلغًا مماثلًا إن ذهب له ساعة واحدة لإصلاح باب حظيرته، لكنه رفض كي لا يعطّل عمل الورشة، أسال المال لعاب سيده وأمره على الفور بأن يذهب إلى ذلك الرجل بعدما كان ذلك المبلغ يساوي ما يدفعه زبائن ثلاثة أيام، فغادر الورشة سريعًا إلى السيد مصباح الذي اتفق معه على تبديل حدوات حصانه مقابل أن يدلّه على من اعتاد الذهاب إلى وادي النسالى، ثم انتهى من عمله فوصف له الرجل طريق بيت صديقه، ليذهب

إليه وقلبه يدق اضطرابًا، كان رجلًا ذا بنية قوية تشبه بنية الفرسان يتناثر الشيب في رأسه بكثرة معلنًا عن سنه الذي تجاوز الأربعين، وجده آدم في فناء بيته يحمّم حصانه، فقال عندما اقترب منه:

- لقد جئت إليك كي أسألك عن شيءٍ يا سيدي.

نظر له الرجل في استغراب، ثم واصل سكب الماء على حصانه دون اهتمام، فقال آدم:

- أخبرني السيد مصباح عن زياراتك المتعددة لوادي النسالى.

ثم سكت، فتوقف الرجل عن تدليك متن حصانه، ونظر له منتظرًا أن يعلن عن سؤاله، لكن آدم وجد نفسه فجأة لا يعرف عن أي شيء يسأل تحديدًا، حتى نطق أخيرًا:

- هل قابلت رامية المنصة من قبل؟

انتظر الرجل لدقيقة واصل فيها تحميم حصانه، قبل أن يقول:

- في الوادي، لم أقابلها وجهًا لوجه، لكني حضرت آخر ظهور لها في باحة جويدا عندما ذبحت فتاها بخنجر أمامنا جميعًا، كان يومًا لا يُنسى.

نطق آدم على الفور:

- خنجر؟!

تعجب الرجل من رد فعل آدم الغريب، وقال:

- نعم، لقد فُصلت من عملها في ذلك اليوم لمخالفتها قواعد المنصة بعد استخدامها سلاحًا غير السلاح الناري، ليتهم لم يفصلوها، صار وادي النسالى كئيبًا بعد انضمامها إليه.

وهزَّ رأسه تبرمًا وهو يحمل دلو الماء ليسكبه فوق حصانه:

- فقد الوادي بهجته شيئًا فشيئًا مع كل يوم مرَّ وتلك المرأة هناك.

وتنهد حسرةً وقال:

- بدلًا من مئات الفتيات اللاتي كن ينتظرننا هناك، صار العدد يقل يومًا بعد يوم حتى لم يتبقَّ إلا عدد قليل جدًا من الباغيات، معظمهن كبيرات في السن لا يصلحن لفعل شيء.

ونظر لآدم وقال:

- إن كان هناك تصويت لإعدامها يوم الغفران القادم سأكون أول المصوتين على ذلك.

سأله آدم:

- هل ذهبت تلك السيدة إلى ذلك الوادي لفصلها من عملها وحقدها على الأشراف أم لماذا ذهبت؟

ضمَّ الرجل شفتيه متعجبًا من اهتمامه المبالغ، لكنه قال متذكرًا:

- سمعت شيئًا ذات مرة عن رغبتها في استكمال حلم حبيبها بعد ندمها على قتله، كان ذلك الشاب يريد تعليم النسالى.

فسأله آدم سريعًا:

- هل تعرف اسمه؟

فكر الرجل محاولًا التذكر، ثم قال:

- أظن أن إحداهن ذكرته أمامي من قبل، لكن ذلك كان قبل زمن طويل، لا أتذكره الآن.

ثم ضرب مؤخرة حصانه ليتحرك إلى حظيرته، ونظر لآدم وقال:

- في الحقيقة رغم ما حدثتك عنه من بغض لها، إلا أنني مع كل مرة كنت أرى فيها تأثيرها الواضح على أهالي ذلك الوادي كنت أعجب بها إلى حد كبير، ليس من السهل أن تترك حياة مرفهة في أفضل مدننا لتعيش في تلك الأكواخ المكفرة من أجل تعليم حفنة من الجرذان، ربما أكرهها مثل الكثيرين الذين فقدوا متعة ذلك الوادي، لكني داخل نفسي أراها امرأة قوية للغاية.

وأردف:

- يظن الأغبياء أن النسالى بدأوا يعودون إلى حياتهم القديمة في السنوات الأخيرة ويتخلون عنها، لكني عايشتهم كثيرًا، وأعرف أنهم يكنّون لها حبًا لا يقترب أحد من مكانته في قلوبهم إلا رجل يُدعى ريان كان معها في تلك الرحلة منذ البداية.

نطق آدم في ذهول:

- ريان؟! هل أنت متأكد من هذا الاسم؟!

ضحك الرجل، وبدأ يشك في أن آدم غريب الأطوار، وقال متهكمًا:

- مثل تأكدي من وجودك أمامي أيها الفتى.

فابتلع آدم ريقه وهو يتذكر أنه الاسم نفسه الذي كان يستغيث به في الحلم في الليلة السابقة، وسأل الرجل بأنفاس متسارعة ووجه محتقن من الدماء التي اندفعت نحوه بعدما أدرك أن تلك الأحلام التي بدأت ملامحها تتضح أكثر وأكثر بعد حديث السيد مصباح أمامه للسيدة سيرين عن اقتراب إعدام الرامية ليست مجرد أحلامًا عادية:

- هل لك أن تصف لي ملامح السيدة التي كانت راميةً للمنصة؟

هز الرجل رأسه نافيًا، وقال:

- كما أخبرتك، لم أرها إلا على المنصة، وأيامها لم تسنح لي الفرصة قط لأكون في الصفوف الأمامية من الحاضرين، وبعد مرور كل تلك السنوات سأكون كاذبًا إن قلت لك أنني أستطيع وصف ملامحها.

ثم تابع كي ينهي ذلك الحديث:

- إن كان يهمك رؤيتها إلى هذا الحد الذي أراه على وجهك فاذهب إلى جويدا يوم الغفران القادم، يعلم الجميع أنه سيكون آخر يوم في حياتها.

هز رأسه إيجابًا دون أن يقول شيئًا، ثم شكر الرجل وخرج من فناء بيته عائدًا إلى بيت السيدة سيرين مباشرةً والتي فاجأته بأنها سترحل إلى جويدا مع أختها لأمر عائلي طارئ ستخبره به بمجرد عودتها، فلم يقل شيئًا سوى أن ترسل تحياته إلى زهير إن لاقته، فوعدته بذلك، قبل أن تغادر مع ظهيرة ذلك اليوم، فجلس في غرفته يفكر في كل كلمة قالها ذلك الرجل في توتر شديد، وخاصةً اسم الرجل الذي كان يساعد الرامية، ريان، واستخدام الرامية للخنجر لقتل حبيبها، ثم تحرك إلى أمام المرآة ونظر في عين صورته بها من جديد وبدأ يسترجع في عقله ما قاله الرجل وما رآه في أحلامه في اليومين السابقين، حتى سمع في أذنه صوتًا نسائيًا يقول متهكمًا:

- يحلم نديم النسلي.

فأجفل جسده وعاد بقدمه إلى الخلف، وقال لنفسه خائفًا عندما بدا ذلك الصوت مألوفًا له:

- أهذا شيء من الجنون؟

بعدها لم يتوقف ذلك الصوت مطلقًا عن ترديد الجملة نفسها في رأسه، فخرج إلى الردهة سريعًا كي يبحث عن كيس الأعشاب التي كانت تذيبها له خالته سيرين وهو يقول لنفسه في قلق:

- لو استمر الأمر هكذا لأصاب الجنون عقلي، كانت خالتي سيرين محقة بإعطائي تلك الأعشاب.

وبدأ يبحث في كل جانب من الردهة عن ذلك الكيس. بحث بين الأواني الفخارية المتراصة على الأرفف، لم يجده، في قدور إعداد الطعام المعدنية، لم يجده، بينما كان الصوت يواصل طرقه في رأسه بالجملة ذاتها، يحلم نديم النسلي، واصل بحثه بسرعة أكبر، خلف المصابيح النارية، بين أكياس الحبوب، لم يجده، يحلم نديم النسلي، أمسك رأسه بقوة وهو يواصل البحث محاولًا إسكات ذلك الصوت، لكن دون جدوى.. واصل الصوت ضجيجه الحاد دون توقف، بحث في الخزانة الطوبية الموجودة في ركن الردهة، لم يجد فيها سوى الأخشاب التي تشعل المستوقد، سأل نفسه في ضيق كبير:

- أين وضعتيها خالتي سيرين؟

دخل إلى غرفة نومها، فتح خزانة الثياب ومد يده بين الثياب المطوية فيها وجذب جميعها ليسقطها إلى الأرض وبحث بأسفلها، لم يجد إلا كيسًا للنقود، ضرب الصوت بقوة أكبر في رأسه، يحلم نديم النسلي، دسَّ يده في جيوب الثياب المعلقة واحدًا وراء الآخر، لا شيء، حمل فراش

السرير وحِشيته غاضبًا وألقاهما بعيدًا للبحث أسفلهما، لم يجد لذلك الكيس أثرًا، فصرخ:

- أين وضعتِ تلك الأعشاب اللعينة؟

ثم جلس على السرير يائسًا يعتصر وجهه ضيقًا من ذلك الصوت المتواصل في رأسه وهو يقول لنفسه:

- لم ترد أن تجعلني أراها، لا بد أنها تخلصت منها، ليتني تناولت هذه الأعشاب مثلما أرادت.

ثم تلفت حوله، كانت الفوضى عارمة في كل أركان الغرفة، فهز رأسه في خيبة أمل، ونهض من جديد محاولًا تجاهل ذلك الصوت الطارق في رأسه، وبدأ يعيد كل شيء في موضعه، هندَمَ السرير وفراشه أولًا، ثم أخذ يطوي الثياب التي أسقطها إلى الأرض كل ثوب على حدة بالطريقة ذاتها التي كانت مطويةً بها، وبدأ في رصها في خزانة الثياب من جديد، حتى توقف عندما وجد تلك الورقة المطوية والتي لم يلاحظها عندما أسقط الثياب بيده دفعة واحدة، ظنَّ أنها رسمة صديقه زهير عندما لمح في طرفها المطوي شيئًا مرسومًا، وفتحها، ليجد وجهها أمامه مرسومًا بالفحم.

في تلك اللحظة فقط سكت الصوت الطارق في رأسه تمامًا، بل سكت كل شيء من حوله وكأن الزمن قد توقف في هذا الوقت، نظر في عينيها المرسومتين وحدّق فيهما في ذهول لتبدأ المشاهد تتدفق إلى رأسه تباعًا؛ الدماء وهي تسيل من رأسه وهو ينظر إليها وهي تخرج من بوابة المدرسة المتوسطة، نظراتها الخائفة نحوه وهو يقف وراء نافذة الفصل، وجهها المحمر خجلًا بعدما قبّلها في الباحة، وركضها خلفه، المرج الشرقي،

التختة الخشبية في المدرسة المتوسطة، ليهمس إلى نفسه باسمها وعينه تلتمع بدموعه:

- غفران!!

نهض ونظر إلى المرآة في غرفة خالته سيرين، لم يشعر أنه ينظر إلى عيني شخص آخر فحسب، بل شعر في هذه المرة أن من يراه أمامه في المرآة شخص يراه للمرة الأولى، حمل الصورة وركض خارجًا إلى الرجل نفسه من جديد، أراده الرجل أن ينصرف في الحال كي لا يضيع وقته، فقال له آدم متوسلًا وهو يخرج الورقة ويريه وجه غفران:

- إنه آخر سؤال سيدي، هل هذه صورة الرامية التي قتلت حبيبها على المنصة ويوشك السيد كيوان على إعدامها؟

أمسك الرجل بالورقة، وقال في تعجب:

- نعم، من أين حصلت على هذه الصورة؟!

لم يجبه آدم، وركض مرة أخرى إلى الخارج، تسيل الذكريات في عقله في تتابع لا يتوقف، الكوخ الطيني، الباحة، الفارس الذي أهانه، الأطفال الذين يجلسون أمامه ليعلمهم، ريان، ديما، رأى المشهد الذي أتعبه كاملًا في ذاكرته، كان يقول لريان:

- ستتغير القواعد يومًا ما.

فقالت ديما التي كانت تتأخر عنهما بضعة خطوات:

- يحلم نديم النسلي.

يركض بأقصى سرعة له وسط دهشة السائرين في شوارع بريحا، لا يدركون أنه في عالم آخر لا تسمع فيه أذناه سوى زغاريد النساء في الباحة، وبارود المنصة، وكلماته إلى غفران:

- سأفعلها من أجلكِ.

حتى وقف ليلتقط أنفاسه عند أطراف المدينة، وسقط على ركبتيه وهو يلهث، فجال في ذهنه نظرات الحسرة على وجهها والدموع التي تتجمع في عينيها وهي تقف أمامه على المنصة قبل أن تُخرج خنجرها، لتتوقف ذكرياته عند ذلك الوقت، كانت جماعة من المسافرين يغادرون بريحا على خيولهم، ناداه شاب منهم وسأله إن كان بخير، فأفاق للحظة من أفكاره وهزّ رأسه إيجابًا، ثم نهض وعاد إلى بيته دون أن يركض هذه المرة، أراد أن ينام، لم يستطع، جلس على الطاولة في الصالة واضعًا رأسه بين كفيه، وكلمات الرجل بأن الرامية ذهبت إلى وادي النسالى ندمًا على قتل حبيبها تتداخل في عقله مع الدموع التي رآها على وجهها وهي تمسك بالخنجر أمامه، تمتزج معهما دون توقف كلماته الأخرى بأن يوم الغفران التالي سيكون آخر أيامها، وجد قلبه يدق بسرعة أكبر كلّما ترددت في باله جملة «سيكون آخر أيامها» تحديدًا، حتى تسارعت أنفاسه فجأة وهو ينظر إلى صورتها المرسومة أمامه، ليشعر بعدها أن عضلات جسده بدأت تؤلمه، تنبه للحظة أنها تشبه الألم ذاته الذي شعر به في حلمه قبل أيام، ازداد الألم، عضَّ على أسنانه من شدته، شعر أن ثقلًا يطبق على صدره، صرخ وهو ينظر إلى عضلات ذراعه التي بدأت تتضخم وتنتفخ بعروقها بصورة لم تحدث له من قبل، سقط من على كرسيه وهو يشعر أنه يفقد السيطرة على جسده، حاول أن يصرخ، صار صوته مبحوحًا لا يُخرج أي حروف، آخر ما رآه يجول في رأسه هي غفران مُكبلة اليد على منصة الباحة يقف أمامها رامي المنصة بسلاحه الناري ينتظر انتهاء القاضي من إعلان حكمه، قبل أن تنتفخ عضلاته جميعها وتنتفخ عروق رقبته ويمزّق سترته ويطلق زئيرًا عاليًا، ضرب بقبضته كل

شيء من حوله، وغرس مخالبه في حوائط البيت لعل ألم مخالبه يخفف من ألم جسده الذي لا يُحتمل، ركض في كل مكان في البيت وهو يطلق زئيره متألمًا، ودَّ لو وجد سكينًا قريبًا منه وشقَّ به عنقه لينهي ذلك الألم، حتى شعر أن جسده بدأ يحتمل ذلك الألم أخيرًا، وقلّت شدته شيئًا فشيئًا إلى أن زال تمامًا عنه، فوقف موضعه يعلو صدره ويهبط، بعدها سقط إلى الأرض كالبناء المتداعي، ليبدأ جسده يستعيد هيئته البشرية من جديد دون أن يفهم شيئًا مما حدث، نظر بأنفاس لاهثة إلى آثار مخالبه على الجدران وإلى جسده الغارق في عرقه ثم حمل سترة أخرى قريبة منه، وركض إلى الخارج في الشوارع الساكنة في ذلك الوقت المتأخر من الليل نحو بيت الطبيب، وطرق بابه بقوة، خرجت إحدى النساء أخيرًا وأخبرته بأنه غادر إلى جويدا، لم يعد إلى بيت خالته سيرين، ركض إلى الورشة وهو يعلم أنها مغلقة في ذلك الوقت، حتى وصل إليها فقرر أن يمكث أمامها حتى يطلع النهار، ثم بزغ الفجر فغلب النعاس جسده المنهك أخيرًا، لم يستيقظ إلا عندما نكزه السيد عبود في كتفه مستغربًا من نومته هكذا، اعتذر له بأنه لم يحب البقاء وحيدًا في بيت خالته، تهكم عليه سيده قبل أن يدخله إلى الورشة، ظلَ ذهنه عالقًا بما حدث له في الليلة السابقة، ليس ذلك التحول الذي أصاب جسده فحسب، بل كل الذكريات التي انهالت على رأسه وهو على يقين أنه عاشها جميعًا، ضرب الحديد بقوة بمطرقته محاولًا إجهاد جسده على قدر الإمكان لعل ذلك يجعله يغوص في نومه بعد انتهائه من عمله، وكلما أتى خاطر إلى رأسه تحدث مع أي شخص بجواره كي يشتت ذلك الخاطر، ثم أتى زبونان في وقت واحد، تحدث أحدهما إلى الآخر عن ذهابه إلى جويدا من أجل مشاهدة مراسم إعدام الرامية، وقال الآخر:

- يتحدث القادمون من هناك أن المدافع قد تمركزت بالفعل في مواجهة وديان النسالى، يبدو أن إشاعات التخلص منهم ستكون حقيقة هذه المرة.

شعر بأنفاسه تتسارع رغمًا عنه، وأحس بذلك الألم في عضلات ساقه، ألقى بمطرقته جانبًا فأحدثت ضجة عندما ارتطمت بلوح من الصاج جعلت السيد عبود يصيح فيه غاضبًا، نظر له آدم بعينين حادّتين دون أن ينطق، فارتعب الرجل وانكمش في نفسه كالجرو الصغير، قبل أن يتنحى جانبًا مفسحًا الطريق للفتى الذي ركض خارجًا إلى بيت السيدة سيرين من جديد وانزوى متقوقعًا في ركن بالردهة تشتعل في رأسه رغمًا عنه كلمات الرجل عن المدافع التي تواجه وديان النسالى، ليرى في ذاكرته مشاهد متتابعة وأصوات متداخلة؛ أحصنة ضخمة تحمل فرسانًا تلمع خوذاتهم تقتحم كالسيل تجمعات من أكواخ كانت أكثر بدائية من الكوخ الذي رأى فيه نفسه وهو يستغيث بريان، يركض أهلها المنقوش على جباههم وشم النسالى عرايا الصدور رجالًا ونساءً في ذعرٍ فرارًا منهم ليتساقطوا قتلى أسفل أقدام الخيول دون رحمة، نيران تشتعل في كل شيء وقدور كبرى يتصاعد الدخان منها يتقدم إليها الفرسان ليلقوا بالأطفال في داخلها مقهقهين دون اكتراث بصراخ الأطفال وأهاليهم، فيما يقف هو على مكان عالٍ ينظر إلى كل ما يحدث قبل أن ينسحب بحصانه ويترك ذلك المكان، نطق آدم إلى نفسه في ذهول:

- ليست المرة الأولى التي يُباد فيها النسالى، كنتُ هناك!!

تتسارع أنفاسه ويثب إلى رأسه التي لا يستطيع السيطرة عليها مزيدٌ من المشاهد، رأى نفسه بهيئته الوحشية التي أصابته في الليلة السابقة وهو يسير بين نمرين أبيضين ضخمين أحدهما عن يمينه والآخر عن

يساره في مكان واسع محاط بالجدران الصخرية من كل جانب، وعلى أرضيته المستوية رُصَّ مئات من الأطفال الرُضَّع المدثرين بلفاتٍ قماشية بيضاء في صفوف كثيرة متوازية، كان يتحرك بينهم ليتأكد أنَّ جميعهم على قيد الحياة، حتى توقف أمام آخر صف منهم، كان يتراص به ثمانية أطفال فقط يلتفون في أقمشة سوداء مميزة عن أقمشة باقي الرضع، وجد النمرين المرافقين له يتقدمان إلى أولئك الثمانية وبدآ يلحسان رؤوسهم بألسنتهم في رفق، قبل أن ترقد الأنثى منهما بجوار طفل باكٍ منهم لتبدأ في إرضاعه، التفت ببصره إلى الباقين حين سمع زمجرة من خلفه، وجد حيوانات ضارية أخرى كثيرة قد قدمت إلى ذلك المكان ورقدت بجوار الأطفال ليبدأوا إرضاعهم مثلما فعلت أنثى النمر، اعتدل آدم في جلوسه وهو يرى أولئك الرضع قد كبروا وصاروا صغارًا في عمر الخامسة يحيط خصر كل واحد منهم قطعة قماشية بالية، ويركضون في الجبال مع تلك الحيوانات دون خوف فيما كان يقف هو عاليًا ينظر إليهم، تنبه حينها أنَّ التجاعيد كانت تغطي يده وكأنه كان عجوزًا في ذلك الحين. مشهد آخر صار فيه الأطفال فتيانًا كانوا يصطفون في صفوف أمامه يتقدمهم ثمانية يلتف سوار يتدلى منه ناب كبير حول أذرعتهم، تقدم أحدهم إليه وقال:

- سنبدأ الصيد الآن، سيدي.

مشهد آخر نبتت فيه لحاهم وشواربهم، كانوا يقفون مصطفين في ترقب عندما بدأت أجسادهم تستحيل واحدًا وراء الآخر إلى الهيئة الضارية قبل أن يتباروا في إطلاق زئيرهم، ليطلق لهم زئيره ويرفع قبضته إلى السماء، فاشتعل زئيرهم الحماسي ليبلغ عنان السماء، قبل

أن يعودوا سريعًا إلى هيئتهم البشرية، نظر آدم إلى قبضة يده وقال متذكرًا:

- كانت المرة الأولى التي تثور فيها أرواحهم، انتظرت هذا اليوم ستة عشر عامًا.. كنت قائدهم!

ثم حل في رأسه مشهد مفاجئ يرى فيه نفسه في كوخ طيني يحاول قمع تلك الروح الثائرة بداخله، وهو يصرخ إلى نفسه في توسل:

- لقد وعدتها بأن أصل إلى عامي الخامس والعشرين دون جريمة، أرجوك دعني أفي بوعدي.

قبل أن يصرخ مناديًا لريان كي يقيّد جسده بحبل سميك بإحكام، وهو يقول له:

- لا تخبر غفران عن هذا الأمر، لا تخبرها أرجوك.

قبل أن تبدأ عروقه وعضلاته في تمددها.

اعتصر وجه آدم من الألم وهو يرى نديم وهو يقاوم روح القائد في داخله كي يتمكن من إخمادها، واستلقى بجسده إلى الأرض منهكًا هو الآخر مثلما كان يفعل نديم، حتى أنه حرك شفتيه بالكلمات ذاتها التي اعتاد أن ينطق نديم بها بعد عودته منهكًا إلى هيئته البشرية:

- لقد وعدتها بألا أرتكب جريمة.

ليغمض عينيه أخيرًا مستسلمًا للنوم. نام في تلك المرة كأنه لم ينم من قبل، لم يستيقظ إلا مع صباح اليوم التالي، اليوم السابق ليوم الغفران، عندما هدر صوت نديم في رأسه متوسلًا:

- يستطيع الزائرون إنقاذ غفران، يستطيعون إنقاذ النسالى من بطش الأشراف، كلانا يعرف ذلك.

شعر آدم أن صوت نديم يتوسل في داخله إلى شخص آخر، وخاصةً عندما أكمل رجاءه قائلًا:

- أرجوك، لم يتبق إلا أقل من يوم على يوم الغفران، أرجوك فلتفعلها من أجلهم، نعلم أنك تستطيع استدعاء الزائرين ولا يستطيع غيرك فعلها.

وواصل مُلحًا:

- لقد أوردت في ذاكرتي سابقًا أنك لم تخمد أرواحهم إلى الأبد، وأن چارتين مدينة لك بعهد تستطيع به استدعاءهم، لكنك حجبت عني كيف أستطيع فعل ذلك، أرجوك، أخبرني كيف أستدعيهم من جديد.

وعندما لم يجد أي إجابة، صاح مستنكرًا:

- لماذا لا تسمح لي بتذكر ذلك؟! أتنتظر حتى يفوت الأوان؟!

ولوهلة شعر آدم أن ذلك الصوت في داخله يدفعه بكل طاقته كي يستحيل إلى الهيئة الزائرة من جديد، لكنه لم يمتلك القدرة على ذلك وكأن الشخص الآخر لم يسمح له، ليقول صوت نديم معتذرًا:

- أعلم أنك غاضب مني، بعدما كنت على وشك ضياع روحك النسلية للأبد بزواجي من غفران، لكنك تعرف أنني كنت أحبها كثيرًا وتعرف كم هي امرأة صالحة، لقد سمعت الرجل الذي حدثنا عنها بنفسك، لقد أفنت عمرها من أجل النسالى وأصلحت الكثير من حياتهم، ألم يكن هذا ما أردناه؟!

هنا سمع الصوت الآخر في داخله ينطق للمرة الأولى منذ بدء توسل نديم، ليقول بصوت قيادي:

- لا نستطيع. لقد أخذت عهدًا بألا أستدعيهم من جديد، وإلا كان الثمن غاليًا، لا بد للدماء أن تروي صخور حوران هذه المرة.

قال صوت نديم:

- لطالما كان عهدنا بأن نحفظ بقاء النسالى، وآن الأوان للوفاء بهذا العهد مهما كان ثمنه، أعطني ذاكرتك الكاملة ودلني كيف أستدعيهم، وأقسم لك بأنني سأحرر النسالى من القواعد هذه المرة، بعدها سأرحل عن هذا الفتى إلى الأبد، إنه ذكي وسيدرك ما عليه فعله.

ثم سكت، وسكت الصوت الآخر دون إجابة، لم يعلم آدم ما آل إليه ذلك الصراع إلا عندما رأى أمام عينيه بعد دقائق الحلم الذي تكرر معه لسنوات، يسير بهيئته الزائرة في طريق رمليٍّ ممتد ليرى أولئك المتوارين في الظلام على جانبي الطريق قد بدأوا في الظهور أمام عينه، جميعهم يشبهونه، عرايا الصدور بارزي العضلات والعروق، لا يختلف فيهم عنه سوى أن صدورهم كانت تحمل وشم النسالى، واصلوا ظهورهم واحدًا وراء الآخر ليصطفوا على امتداد جانبي الطريق هابطين على ركبهم في طاعة وهو يواصل التقدم أمامهم، ظنَّ أنه سيجد غفران في نهاية ذلك الطريق كما اعتاد في حلمه، لكنه رأى نفسه يصل إلى جبل كبير ذي باب صخري واسع، ما إن مدَّ قدمه ليعبر إلى داخله حتى توقف ونظر نحو النسالى الزائرين من خلفه ليجدهم قد عادوا إلى الظلام من جديد، التفت للأمام، وواصل تقدمه إلى داخل الجبل، شعر أنه يعرف ذلك

المكان جيدًا، كانت ثمة بركة جافة في منتصفه وقف أمامها وانتظر، حتى سمع صوت يناديه:

- أهلًا بكَ في جبل العهود أقدم جبال حوران، قدِّم دماءك، إن وادي حوران يحفظ القواعد والعهود والبلاد.

ثم اختفى كل شيء فجأة من أمام آدم، ووجد صوت نديم في داخله يصرخ فرحًا، ويقول:

- لن أنسى لكَ هذا الجميل أيها القائد، أعدك بأنني لن أخذلك.

بعدها شعر أن صوت نديم يحدثه للمرة الأولى:

- أيها الفتى إن هناك أرواحًا خامدة تنتظر تحريرها، لقد سمح لنا القائد بذلك، فلنذهب إلى حوران من أجل النسالى ومن أجل غفران.

وفجأة وجد آدم نفسه يستحيل إلى هيئته الزائرة بدون أن يشعر بذلك الألم الذي شعر به المرة السابقة، وأطلق زئيره الكبير قبل أن يركض إلى الخارج، يسيطر على جسده صاحب الصوت الذي يضج في رأسه، حتى ركب حصانه، وزأر فيه لينطلق به إلى الجنوب.



(١٧)

كانت المرة الأولى التي يقطع فيها آدم الطريق الممتد من بريحا إلى الجنوب منذ انتقاله إليها مع خالته سيرين قبل ستة أعوام، ومع ذلك شعر أنه يعرف الطريق ويعرف انعطافاته جيّدًا بدون أن يدري إن كان ذلك من ذاكرة القائد الزائر في رأسه أم ذاكرة نديم الذي تولى زمام الأمور في جسده، أم أنها ذاكرة شخص آخر غيرهما حمل روحه من قبل.

ثم استعاد هيئته البشرية من جديد بعد ابتعاده عن بريحا ببضعة أميال، فرأى في ذاكرته أن عليه المرور بجويدا كي يستطيع الوصول إلى وادي حوران الذي يقع في الجانب الشرقي منها، فصرخ في حصانه كي يسرع ليصل تلك المدينة قبل شروق الشمس، ثم فطن إلى أن القائد الزائر في داخله لم يتنحَ تمامًا عنه بعدما رأى نفسه يتخطى كافة المسافرين بأحصنتهم وعرباتهم ببراعة شديدة دون تمهل ليدرك وقتها في نفسه لماذا كان مميزًا إلى ذلك الحد في ركوب الخيل منذ صغره.

حين مر بالقرب من مدينة «قبالا» أوقف حصانه للمرة الأولى كي يريحه، ربَّت على رأسه ورقبته وسقاه من حوض للمياه على جانب الطريق، ثم تركه يرعى في الحشائش النابتة بجوارٍ ذلك الحوض، ووقف ينظر في شرود إلى جدار چارتين العظيم الذي التمعت صخوره مع نور القمر المكتمل، قبل أن ينظر في مياه الحوض ويحدث صورته بصوت نديم:

- سنفعلها من أجل غفران ومن أجل النسالى.

بعدها ركب حصانه من جديد، وواصل ركضه بسرعته القصوى نحو جويدا، إلى أن وصل مدخلها الشمالي مع حلول الفجر.

كان المدخل في ذلك الوقت مزدحمًا للغاية بالأشراف القادمين من مدن الشمال من أجل حضور مراسم يوم الغفران، فاضطر للإبطاء من سرعة حصانه إلى حد التمشية، ظن أن الروح الزائرة في داخله ستثور غضبًا مع الضحكات المرسومة على وجوه الأشراف وأحاديثهم المسرورة عن حضورهم ذلك اليوم غير الاعتيادي ورغباتهم بأن يفعلها قائدهم كيوان حقًا ويخلّصهم من النسالى، لكنه وجد نفسه يحافظ على هدوئه بعدما بدا أنَّ نديم في داخله كان يركّز على هدفه الأهم بالمضي إلى وادي حوران والذي كان سيتحطم تمامًا إن ثارت روحه وسط تلك الجموع، وواصل تقدمه في شوارع جويدا المُضاءة بالمصابيح النارية يوجّه حصانه بسلاسة كبيرة دون أن يستفسر من السائرين عن المخرج الشرقي المؤدي إلى طريق وادي حوران، حتى وصله مع شروق الشمس، ثم عبر جسرًا صخريًا يمر فوق النهر الجاف بالسرعة البطيئة ذاتها، قبل أن يتخذ طريقًا رمليًا يمتد بين مرتفعات جبلية متوسطة الارتفاع، ويصرخ في حصانه كي يركض من جديد.

كان وادي حوران أبعد مناطق چارتين في الشمال الشرقي، منطقة جبلية كبرى يطل كثيرٌ من جبالها على جدار چارتين، لها طريق وحيد ذو انعطافات وتشعبات كثيرة قيل أن من يعرفه فقط هم جُند الأشراف المكلفين بمرافقة من تصل أعمارهم إلى الخمسين عامًا إلى هناك،

والذين قيل عنهم أنهم يُختارون من كهنة حوران الذين يسكنون جباله ولم يرهم أحدٌ من قبل، كما قيل أيضًا أن الواديَ لا يسمح لأحدٍ بأن يتوغل في طرقه دون رغبتهم وإلا كان هالكًا لا محالة.

حين بدأت الجبال ترتفع على جانبي الطريق إلى ارتفاعات شاهقة نحو السماء وجد آدم جسده يستحيل إلى هيئته الزائرة، اعتقد في البداية أن روح نديم من أجبرته على ذلك، لكن مع الجرأة التي وجد نفسه يتمتع بها وهو يتقدم مُطلقًا زئيره بين الجبال أدرك أن القائد الزائر أصبح من يتسيّد جسده، ليواصل زئيره القوي وهو يقطع الطريق بحصانه الراكض، وكأنه يعلن للجبال أنه عاد للحياة، ثم انعطف بحصانه إلى ممر جانبي يمتد نحو جبال بيضاء مخروطية الشكل كانت تتناثر بين المرتفعات الصخرية العالية، وأكمل طريقه عابرًا الممرات بينها، إلى أن اتخذ طريقًا رمليًا كان ينحدر بميل تدريجي إلى أعلى، وقلّل من سرعة حصانه، لاحظ آدم حينها أنه الطريق ذاته الذي رآه كثيرًا في منامه، ولولا أن ضوء النهار كان ينير الطريق من أمامه لظن أنَّ هناك أناسًا يقفون على جانبيه يريدون النطق باسمه ولا يستطيعون.

كان جبلٌ مخروطي كبير قد ظهر في نهاية الطريق، فواصل التقدم نحوه، حتى وصل إلى سفحه فهبط عن حصانه، وبدأ يتسلق جانبه المنحدر بهيئته الزائرة، إلى أن رأى فتحةً في صخوره تشبه بابًا ضيقًا فدلف عبرها دون تردد، ثم هبط سلمًا منحوتًا من صخور الجبل ذاته نحو كهفٍ واسع مستوي الأرض ينيره نور النهار القادم من فوهة الجبل بالأعلى، وتابع تقدمه نحو بركة صخرية جافة كانت تقع في منتصفه، ووقف أمامها ثم زأر بقوة، قبل أن يغرس مخالبه في جانب صدره الأيسر ويجرّها يمينًا ليحدث جرحًا عميقًا في جلده سالت معه الدماء بغزارة

على مخالبه، بعدها مدّ يده بتلك الدماء إلى البركة، لتتساقط قطراتها إلى أرضها الجافة المشققة.

ما إن لامست الدماء أرض البركة حتى ظهرت دماءٌ أخرى كثيرة تتدفق من بين شقوقها لتبدأ في ملئها، سمع صوت نديم في داخله متذمرًا يحثه على الإسراع، لكن روح القائد تجاهلته تمامًا، وواصل نظره إلى الدماء التي كان منسوبها يعلو رويدًا رويدًا، حتى صارت البركة من أمامه تشبه مسبحًا منها، بعدها رأى رأسًا يشبه رأس إنسانٍ منزوع الأعين يتشكل شيئًا فشيئًا من الدماء نفسها ويستقر على سطحها، قبل أن ينطق هذا الرأس بصوتٍ رنان:

- لقد كان زمنًا طويلًا منذ زيارتك السابقة أيها القائد النسلي، أهلًا بك في جبل العهود، أقدم جبال حوران.

حينذاك عاد آدم إلى هيئته البشرية، كان جرح صدره لا يزال ينزف، لكن ذلك لم يشغله على الإطلاق بعدما وجد نفسه ينطق بصوتٍ لم يكن صوته قط، ولا صوت نديم الذي صار يعرفه:

- جئت من أجل عهد جديد.

قال الرأس الدموي بصوته الرنان:

- يحفظ وادي حوران القواعد والعهود والبلاد، ويحفظ دينه القديم لك.

هنا نظر آدم في البركة أمامه، فرأى ذكريات القائد النسلي تظهر على سطحها، رأى مئاتٍ من النسالى الأقوياء ذوي الهيئة الزائرة يصطفون في صفوف كثيرة، تتبعها صفوفٌ أخرى أكثر عددًا من النسالى البشريين، بينما يقف أمامهم جميعًا بهيئته البشرية على ربوة عالية يحمل وشم

النسالى على صدره، لم يكن نفسه العجوز الذي رآه في ذاكرته يرعى الأطفال حاملي أرواح الضواري، بل كان شابًا قوي الجسد هذه المرة، كذلك كانت وجوه الزائرين أمامه مختلفة عما رآه في ذاكرته، فأدرك أنه عصر مختلف، رأى نفسه وهو يستحيل بعدها إلى هيئته الزائرة قبل أن يرفع قبضته إلى السماء، لتتقدم تلك الحشود في انتظام شديد ضاربين الأرض بأرجلهم ليصل الغبار من خلفهم عنان السماء،

ثم تبدل المشهد أمامه على سطح البركة إلى معركة دامية كبرى، رأى نفسه وهو يزأر في الزائرين من حوله يمينًا ويسارًا كي يقفزوا في كل مكان ليمزّقوا بمخالبهم أعناق جنود مدرعين يحملون سيوفهم في خوفٍ شديد، فيما تدوي في الآفاق بقوة دقاتُ طبول ذات إيقاع سريع يبعثُ الرعب في القلوب، رأى بعدها جثث الجنود الغارقة في دمائها وهي تتساقط بكثرة أسفل أقدام خيول النسالى وهم يواصلون اقتحام الصفوف، رأى بعدها عامة الأشراف وهم يخرجون مستسلمين من بيوتهم فيما ينتشر الزائرون في الشوارع والطرقات. رأى مشهدًا آخر يحيط فيه الزائرون بباحة جويدا التي امتلأت بأشرافٍ راكعين على ركباتهم واضعين أياديهم مُشبكة فوق رؤوسهم بينما يقفُ أمامهم على المنصة بهيئته البشرية ينظر إليهم في شموخ كبير، ثم هدأت الجلبة من أمامه، فقال لهم بصوته القيادي:

– أما الأولى فكانت غدرًا منكم، وأما الثانية فستكون رحمةً منا.

وأضاف وهو ينظر نحو النسالى البشريين:

– سيعيش النسالى بينكم دون أن يؤذيكم أحد، وهذا عهد مني.

بعدها أشار للنسالى الزائرين كي يفسحوا طريقًا للأشراف ليغادروا

باحة جويدا. مشهدٌ آخر ظهر أمامه يحمل فيه أحد النسالى رضيعًا ميتًا، ويقول له:

- لم تذهب أمه إلى الباحة كما أمرت، إنها النسلية الخامسة التي تلد طفلًا ميتًا.

رأى نفسه في مشهد بعدها وهو يتقدم نحو جدار چارتين من أجل نقش قاعدة جديدة على إحدى قواعده الصخرية، ليقرأ ما نقشه بالچارتينية القديمة:

- «يتساوى الأشراف والنسالى في حق اكتساب الروح النقية دون الحاجة للذهاب إلى باحة جويدا»

قبل أن تحدث أسفل أقدامهم هزةٌ أرضية عنيفة التفتوا معها جميعًا إلى دخان عظيم لم يُرَ مثله من قبل تصاعد إلى السماء فجأة في شرق چارتين، ليقول أحد شبان النسالى من خلفه في استغراب شديد:

- إنه يتصاعد من فوق وادي حوران!!

مشهدٌ آخر يركض فيه بحصانه ومن خلفه الثمانية حاملو أرواح الشامو نحو وادي حوران حيث تواصل أعمدة الدخان صعودها بكثافة إلى السماء، ليجدوا ذلك الدخان يتصاعد من فوهات أكثر من أربعين جبلاً تطل على جدار چارتين، فيما كانت الحمم النارية تتقاذف من تلك الفوهات إلى جانبيها دون توقف، قال أحد مساعديه بجواره وهو يشير نحو صدوع كبرى تمتد في الأرض من تلك الجبال نحو جدار چارتين وتتدفق فيها الحمم المنصهرة كالمياه الجارية:

- لن تتحمل الأرض أسفل الجدار كثيرًا، سينهار جدار چارتين أمام هذه الجبال قريبًا.

مشهدٌ آخر وهو يجلس مع الثمانية شبان ينتظرون قدوم شخص ما في ترقب، قبل أن يدخل إليهم شابٌ يحمل وشم النسالى، ويقول:

- تتعالى أمواج أكما بمنسوبٍ عظيم شمال شرق چارتين، ولا تزال براكين حوران ثائرة تقذف حممها دون توقف.

قال شاب من الجالسين غاضبًا:

- لا تريد هذه الأرض الملعونة مساواتنا مع الأشراف أبدًا.

وقال آخر في قلقٍ:

- إن هُدم الجدار فلن يبقى لهذا البلد أثر.

وقال ثالث كانت نبرة صوته أكثر غضبًا:

- حسنًا، فليمت الجميع.

تذكر آدم تلك الجلسة ووجوه أولئك الشبان القلقين الذين صمتوا بعد ذلك ونظروا إليه ينتظرونه أن يتحدث، فقال بعد فترة طويلة من الصمت:

- سأذهب إلى جبل العهود.

تذكر نفسه وهو يتقدم بهيئته الزائرة نحو بركة الدماء للمرة الأولى، ليقرأ ما كُتب بالچارتينية القديمة على أرضها الجافة:

- «قدِّم دماءك»

خدش باطن يده اليسرى بمخالب يده اليمنى، ومدّ يده إلى البركة لتتساقط دماؤها إلى أرضها، لتبدأ دماء أخرى تتدفق إليها من شقوقها حتى امتلأت أمامه، وظهر الرأس الدموي منزوع الأعين على سطحها، وقال:

- يحفظ وادي حوران القواعد والعهود والبلاد.

استحال حينها إلى هيئته البشرية وقال:

- كيف تحفظ البلاد وبراكينك توشك على هدم الجدار؟!

ضحك الرأس ساخرًا، وقال:

- لقد أردت تبديل القواعد بالقوة، وقوة حوران لا تضاهيها قوة، لقد استغاث بنا الأشراف وآثروا أن يموتوا على أن تتولوا زمام الأمور.

وتحرك على سطح الدماء ناحيته، وتابع بصوت لئيم:

- لطالما قدّموا أرواحهم لنا فداءً على مر الزمان، وآن الأوان ليرد لهم حوران الجميل، انظر في دمائي، وأبصر ما سيحدث مع منتصف يوم الغفران القادم.

ثم ذاب كالثلج بين الدماء، فنظر القائد النسلي إلى سطح البركة وحدّق فيها، رأى الشقوق الأرضية الممتلئة بالحمم النارية وهي تتكاثر كالثعابين أسفل جدار چارتين، رأى قاع بحر أكما وهو يفور بشدة كالماء المغلي، رأى أمواجه وهي تتعاظم ليفوق ارتفاعها الجبال، رأى الجدار وهو يتشقق شيئًا فشيئًا وتتسرب من شقوقه المياه إلى أن تتفتت صخوره وينهار تمامًا، رأى المياه وهي تندفع إلى چارتين كطوفان رهيب، رأى الآلاف من أهله الذين يحملون الوشم يقاومون الغرق، رأى زائريه وهم يفرّون من المياه إلى أن تطولهم وتغرقهم، رأى عامة الأشراف وهم يغرقون، الحيوانات تغرق، البيوت تغرق، الجبال تغرق، كل شيء يُغطى بالماء.

ثم تشكّل الرأس الدموي أمامه من جديد، وقال:

- هذا ما لم يفهمه النسالى قط، إن انهيار قاعدة واحدة لا يختلف عن انهيار جدارنا العظيم.

تجاهل الصوت، وواصل تحديقه في البركة نحو الجثث الكثيرة منتفخة البطون التي كانت تطفو على سطح المياه، ثم قال:

- لم أرد سوى نيل حقوقنا، لم أؤذِ أحدًا من عامة الأشراف مثلما فعل سادتهم مع قدمائنا بعد العهد الدموي.

قال الرأس:

- لن ينسى أحدٌ أنكم نسالى، أصحاب أرواح نجسة، كُتبت السيادة في هذا البلد لأصحاب الأرواح النقية، وهذا ما عاهدنا عليه الأشراف، ولا يخلف حوران عهده، إن استطعت إخماد براكيننا فلتخمدها، وإن استطعت منع أمواج أكما فلتمنعها، وإن أردت عهدًا لنجاتك قبل يوم الغفران القادم فلتفعل، ولكن لكل عهد ثمنه.

هز رأسه إيجابًا دون أن يقول شيئًا ثم غادر جبل العهود، بعدها تحرك نحو جدار چارتين بحصانه، ووقف على هضبة قريبة منه ينظر إلى الدخان الأسود الذي كان يواصل تصاعده من فوهات الجبال، ثم شعر فجأة بهزة عنيفة أسفل قدميه رأى معها صدعًا كبيرًا جديدًا ينشأ في الأرض ويمتد نحو الجدار أمام عينيه، فركب حصانه وعاد إلى جويدا من جديد.

كانت الباحة خاويةً في ذلك التوقيت، وقف فيها بمفرده يفكر فيما قاله الرأس الدموي بشأن يوم الغفران القادم، وفيما رآه في بركة الدماء، وفيما يتوجب عليه فعله، قبل أن يشعر بهزةٍ أخرى أسفل أقدامه أدرك معها أن صدعًا أرضيًا جديدًا قد نشأ في وادي حوران، فعاد إلى مساعديه من حاملي أرواح الشامو، وقال بصوتٍ هادئ بمجرد أن جلسوا أمامه:

- سنعود إلى صحراء الجنوب من جديد ونترك مدن چارتين للأشراف.

قال أحدهم متعجبًا:

- كيف نفعل ذلك بعد كل ما حققناه؟!

أخرج زفيره وقال:

- كنت أظن أن تغيير القواعد يحتاج إلى القوة فحسب، لكنه لم يكن بهذه السهولة قط، لقد آثر أشراف چارتين أن يموتوا غرقى على أن يتساووا معنا في حق اكتساب الروح النقية، إن جدار چارتين سينهار يوم الغفران القادم، وقاع بحر أكما المجاور لوادي حوران يفور من الغليان، لقد رأيت ذلك بنفسي، سيصل ارتفاع أمواجه إلى حد الجبال لتكتسح چارتين كطوفانٍ عظيم لن نستطيع مواجهته.

وصمت للحظات ثم قال في حزن:

- سأقيم عهدًا في جبل العهود يقضي بعودتنا من جديد إلى ودياننا مقابل أن يخمد حوران براكينه.

سأله أحدهم:

- والأرواح الزائرة؟! ماذا سيكون مصيرها؟

فصمت مرة أخرى، كان داخل نفسه يعرف أن وادي حوران لن يقبل إلا بإخمادها، ثم قال:

- لا أدري.

وتابع بعد هنيهة:

- لكن الشامو لا يخضعون لأحد، لن أستطيع إخماد أرواحكم بأي حال من الأحوال، سيكون قرار إخماد أرواحكم متروكًا لكم.

نظروا إلى بعضهم البعض ولاذوا بصمتهم، إلى أن قال أحدهم في النهاية:

- سنطيع ما تراه صائبًا سيدي.

وقال آخر الجملة ذاتها، ثم قالها آخر وآخر، حتى قالوها جميعًا.

تذكر آدم نفسه وهو يقف أمام النهر الجاف ليلًا بعد تلك الجلسة يفكر في حلمه الذي تحطم أمام قوةٍ تفوقه كثيرًا، وتذكر حديثه الذي صرخ به لنفسه وهو يلقي حجرًا نحو أخدود النهر الجاف في غضبٍ شديد:

- كنت أظن أنني أستطيع تغيير مصير قومي لأنني امتلكت القوة لذلك، لكن هذا البلد الملعون كتب علينا العناء طيلة الدهر.

تذكر ذلك الوميض المفاجئ الذي أتى إلى ذهنه في ذلك الوقت عن جبال روافد النهر الجاف المجوفة، لم يكن زارها بنفسه من قبل، لكنه رآها في ذاكرته بتفاصيلها كأنه عاش فيها لفترة طويلة، لم يعلم إن كانت روحه هي ما أحضرت إليه ذكريات حامل قديم لها، أم شيء آخر أحضرها إلى ذهنه، رأى في ذاكرته بعدها السفن وهي تتحرك في روافد النهر الجاف الممتلئة بمياه بحر أكما لتحمل الصخور الضخمة إلى الشمال في سهولة ويسر، نظر إلى النهر الجاف أمامه وتذكر مصبَّه الذي ينتهي عند جدار چارتين، ثم نظر إلى الفراغ أمامه وهمس إلى نفسه:

- أيكون النسالى القدامى قد وضعوا في حسبانهم أن يهزموا بحر أكما إن ثار من جديد؟!

لحظتها استحال إلى هيئته الزائرة، وهبط إلى أخدود النهر الجاف وركض فيه نحو الجنوب، ينعطف مع منعطفاته الحادة، وينحدر مع منحدراته المفاجئة، ويقفز بين الحين والآخر مع الحفر الكثيرة المتناثرة في أرضه دون أن يتوقف ليستريح إلا إن تملّك منه التعب إلى حدٍ كان الاستمرار بعده سيوقف قلبه، قبل أن يواصل ركضه من جديد، ثم طلع النهار فصعد الجبال الجانبية للصيد في وادٍ رمليٍّ قريب، وشرب من ينبوع ماء فيه، قبل أن يعود مرة أخرى إلى أخدود النهر الجاف ويواصل ركضه فيه لقطع مسافة أخرى أطول، قبل أن ينال فترة أخرى من الراحة، ليواصل طريقه بين فترات طويلة جدًا من الركض وأخرى قصيرة جدًا من الراحة على مدار ثلاثة أيام، إلى أن وصل منطقة الجبال الصلدة في صباح اليوم الرابع ليتأكد مما رآه في ذاكرته خلال تلك الأيام، ثم عاد راكضًا من جديد إلى جويدا بالطريقة ذاتها ليصلها بعد أربعة أيام أخر، إلا أنه انحرف إلى الميناء الشرقي قبل أن يعود إلى مساعديه الذين تعجبوا من غيابه المفاجئ لمدة ثمانية أيام، وسأله أصغرهم سنًا بمجرد أن دخل إليهم واستعاد هيئته البشرية:

- أين كنت سيدي؟ ظننا أن وادي حوران أصابك بمكروه.

قال:

- سأخبركم الآن.

ثم سألهم:

- أيعلم أحدكم شيئًا عن الجبال المجوّفة؟

هزَّ الجميع رؤوسهم نافين، فقال:

- لقد تذكرتُها روحي قبل ثمانية أيام، فذهبت إليها لأتيقن من أمر ما ورد في عقلي وأنا أقف أمام النهر الجاف.

وتابع عندما انطبع الترقب على وجوههم:

- عندما انهار جزءٌ كبير من الجدار قديمًا وشرع النسالى في بنائه لجأوا إلى ملء النهر الجاف بمياه بحر أكما عبر بوابة صخرية محكمة صنعوها في الجدار ذاته كي ينقلوا الصخور الضخمة من تلك الجبال إلى أقصى الشمال في أسرع وقت وأقل جهد عن طريق السفن، قبل أن يغلقوا تلك البوابة للأبد قبل إبادتهم، ويمحو الأشراف كل ما تعلق بطريقة نقل الصخور لسبب لا أعرفه.

ونظر في عيونهم وقال عندما حدثت هزة أرضية من أسفلهم:

- ربما استطاع وادي حوران هزيمتنا في هذه المرة، لكننا قد نستطيع هزيمته في جولة أخرى قادمة دون أن نخاف على قومنا من أمواج أكما.

سأله أحد الشبان أمامه متعجبًا:

- كيف؟!

قال:

- الشيء الذي قد نستطيع به التغلب على بحر أكما هو أسطول من السفن التي تستطيع الرسو عند تلك الجبال حين تهاجمنا أمواجه، سفنٌ سريعة ذات أشرعة ومجاديف تستطيع الجريان في مجرى النهر عند امتلائه بالماء كي تصل في أسرع وقت إلى الجبال المجوّفة، لتكون قممها المطلة على الروافد مرفأ النسالى لركوب تلك السفن.

وأردف موضحًا بنبرة واثقة:

- بين كل مناطق الجنوب سيتأخر إغراق منطقة الروافد بعض الشيء بعدما جُوفت عشرات الجبال الضخمة هناك بحرفية شديدة وثُقبت أسقفها بثقوب كبرى لتصرّف أكبر كمية من الماء في بواطنها وممراتها من أجلٍ كسب المزيد من الوقت، وكأنَّ قدماءنا فكروا فيما أفكر فيه وصنعوا لنا الخطوة الأصعب.

- سنقوم نحن بالخطوة التالية، لدينا عشرة آلاف نسلي ولا يوجد في الميناء الشرقي إلا سفينتان، لن تتحمل الواحدة منهما أكثر من مائة شخص، سيغادر مائتا نسلي زائر منّا على متن السفينتين إلى شمال بحر أكما، إن أهلها يجيدون صناعة السفن السريعة القوية.

وأشار إلى أربعة من الشبان أمامه، وقال:

- ستكونون بين المائتين كقادة لهم، أبحروا إلى هناك، واصنعوا مائة سفينة كبرى من تلك السفن مهما أخذت منكم من وقت وجهد، لا تكلّوا ولا تملّوا، واعلموا أن تغيير القواعد اللعينة لن يأتي إلا بهدم جدار چارتين، وستكون سفنكم طريق النسالى للنجاة.

وتابع:

- سأعقد عهدًا آخر مع وادي حوران يحفظ أرواحكم مهما طال الزمان، ليأتي اليوم الذي تثور فيه أرواحنا من جديد ولو بعد ألف عام، سيكون هذا الأوان الذي تعودون فيه إلينا لتحملوا النسالى خارج هذه الأرض الملعونة، ووقتها لن أنتظر وادي حوران حتى يهدم الجدار، سأحطمه بنفسي.

نظروا إليه جميعًا في صمت، فقال:

- ثقوا بي، ربما فاتتنا فرصة تغيير القواعد هذه المرة، لكنها ستأتي مرة أخرى مستقبلًا، أعدكم بذلك.

ونظر إلى الشبان الأربعة مرة أخرى، وقال:

- حين تعودوا بسفنكم دقوا طبولكم واسلكوا مجرى النهر الجاف إلى جبال روافده، سيكون باقي النسالى في انتظاركم هناك.

فأومأوا برؤوسهم إيجابًا في طاعة.

تذكر آدم نفسه وهو يشاهد السفينتين تبدآن في إبحارهما وعليهما شبان النسالى في هيئتهم البشرية قبل أن يركض بحصانه نحو وادي حوران من جديد، ويدلف إلى جبل العهود، ويقدّم دماءه إلى بركته ليظهر له الرأس الدموي على سطحها بعد امتلائها بالدماء، فقال:

- لقد جئت لأبرم عهدًا دمويًا أجنّب به چارتين مصير الهلاك.

قال الرأس بصوته الرنان:

- يحفظ وادي حوران القواعد والعهود والبلاد.

قال:

- سأعود بالنسالى إلى ودياننا في الجنوب من جديد، وسنعيد بأنفسنا نقش القاعدة الثانية التي توصي بنقل الروح النقية لأجنة الأشراف، والآثمة لأجنتنا في باحة جويدا، مقابل أن تُخمد براكين حوران.

غطس الرأس في الدماء، ثم خرج من جديد بعد بضعة دقائق، وقال:

- لن تنسى چارتين لك هذا الجميل أيها النسلي، لكنك جئت طالبًا للعهد وفي العهود يُملي الأقوياء شروطهم.

ستخمد أرواح الزائرين ممن لا يحملون أرواح الشامو الذين لا يخضعون لأحد، وستُسلب منك قوة استدعائهم حتى تفارق روحك جسدك الحالي، أما حاملو روحك من بعدك فلن يستطيعوا استدعاءهم إلا هنا بعهدٍ دموي جديد يدفعون ثمنه الذي نحدده، وسينسى الأشراف وچارتين ما حدث منكم مع غروب شمس يوم الغفران غدًا، عرفانًا لك بهذا الجميل.

صمت القائد النسلي مفكرًا، ثم هز رأسه إيجابًا في النهاية، وقال:

- أريد عهدًا ثانيًا مع وادي حوران.

قال الرأس الدموي ساخرًا:

- يبدو أن النسلي أحب عهودنا.

قال في جدية كبيرة:

- لقد رحل خُمس رجالي عن چارتين بعدما أخمدت أرواحهم الزائرة، أريد إبرام عهدٍ يضمن لي حفظ حوران لأرواحهم الزائرة بعد فناء أجسادهم مهما مضت السنين.

ضحك الرأس وقال:

- لا يحفظ حوران أرواح خصومه، وأنت ورجالك خصوم لنا.

قال القائد:

- سأقدّم روحي ثمنًا لهذا العهد غدًا في باحة جويدا.

غطس الرأس في البركة على الفور، وغاب وقتًا أطول هذه المرة، ثم ظهر أمامه مجددًا، وقال في لؤم:

- حسنًا سيوافق حوران على إتمام العهدين، لكنه وضع شرطين لعهدك الثاني، الأول سيعلنك قاضي الأشراف شريفًا غدًا في باحة جويدا، وبذلك ستكون روحك ملكًا لنا، لتنتقل بين مواليد الأشراف دون أن تتذكر شيئًا عن حياتك النسلية، وتسري عليها قواعدنا مثلها مثل أي شريف في بلادنا، أما الشرط الثاني؛ فستظل أرواح الزائرين المغادرة تائهة في ظلام البلد الذي يأوون إليه بعد فناء أجسادهم، إلى أن تسكن أناسًا هناك تجري في عروقك دماؤهم إن اُستدعوا من جديد.

تذكر آدم ما جرى في ذهنه في تلك اللحظة، كان يظن أن الأمر سينتهي عند تقديمه لروحه ثمنًا، لكنه لم يحسب أن يضع حوران لعهده شرطين كان أقلهما يجعل من عودة الراحلين إلى چارتين بعد موته أمرًا مستحيلًا، كذلك تذكر الحيرة وقلة الحيلة التي أصابته وهو يقول:

- وإن رفضت هذين الشرطين؟

قال الرأس:

- لا يجبر حوران أحدًا على عهوده.

فسأله:

- وإن ارتكبت روحي الشريفة جريمة، هل ستُحال إلى نسلية من جديد؟

قال الرأس في مكر:

- هذا إن رأى القاضي ذلك، كم من جرائم اُرتكبت وعُفي عنها.

ضم شفتيه وهز رأسه إيجابًا، ثم سأله:

- وهذه الأرواح التائهة كيف ستسكن هناك أناسًا يحملون دمائي إن عشت باقي الزمان شريفًا؟

وجال في ذهنه لحظتها أنه لو وافق فسيكون قد سلّم بيده أرواح زائريه للأشراف الذين سيكونون من نسله، فقال الرأس:

- هذا ما أستطيع تقديمه لك.

ثم صاح بصوته الرنان:

- إن الأمواج تتعالى ولم يتبقَ على يوم الغفران إلا أقل من يوم، إن أردت المضي في العهدين فاشرب من الكأس الدموية التي يحملها قاضي الأشراف غدًا في باحة جويدا قبل منتصف النهار.

رأى آدم في بركة الدماء بعد ذلك آلاف النسالى وهم يغادرون نحو الجنوب من جديد، ثم رأى نفسه وهو يقف على رابية عالية أمام ثمانمائة من النسالى الزائرين يتقدمهم الأربعة المتبقين من الشامو، كانوا ينظرون نحوه في حزن كأنهم يودعونه قبل أن يهبطوا على ركبهم ويستحيلوا برغبتهم إلى هيئتهم البشرية، بعدها زأر زئيره الأخير ففقد الباقون هيئتهم الزائرة واحدًا وراء الآخر، قبل أن يستحيل هو الآخر إلى صورته البشرية ويركب حصانه ويركض ناحية باحة جويدا.

تذكر نفسه وهو يمضي إلى البوابة الجنوبية للباحة، حيث وقف سادة الأشراف في انتظاره بينهم قاضيهم السمين الذي كان يحمل في يده كأس الدماء، صرخ نديم في رأس آدم وهو يرى القائد النسلي يتقدم نحوه:

- لا تفعلها.

لكنه وجده ينظر إلى الدخان الكثيف فوق شرق چارتين وإلى الشمس التي كانت توشك على انتصاف السماء قبل أن يمد يده إلى القاضي ويأخذ الكأس ويتجرع منها، وما إن انتهى وأعطى القاضي الكأس من جديد حتى وجد جنود الأشراف يمسكون به، ويكبّلون عنقه وأطرافه بسلاسل حديدية ثقيلة للغاية، نظر إلى السادة، فقال القاضي في برود:

- سينسى الأشراف ما فعلته مع غروب الشمس، ما زال هناك وقت لتطهير روحك الآثمة قبل أن تنال صفة الأشراف.

وأشار إلى الجنود بيده، فبدأوا يجرّونه إلى داخل الباحة بين المحتشدين من الأشراف الذين أفسحوا لهم طريقًا وهم يلقون الرمال فوقه ويصبّون لعناتهم وسبابهم عليه، ثم صعدوا به إلى المنصة فشدّوا السلاسل المقيدة لأطرافه وعنقه في كافة الاتجاهات بقوة شديدة، قبل أن يأمر القاضي بجلده بالسياط.

تذكر آدم بعيون دامعة ذلك الألم الشديد وتلك السياط تتوالى على جسده دون رحمة، تذكر أعين أشراف چارتين الذين عفا عنهم وهم يصيحون فرحًا مع تألمه بشدة أمامهم، تذكر نفسه وهو يفكر في أنه لم يعد يستطيع استدعاء أرواح الزائرين من جديد، وجد عروقه وعضلاته تنتفخ رغمًا عنه فصرخ عاليًا كي يقاوم ثورة الروح الزائرة في داخله خشية أن يعود حاملو أرواح الشامو لإنقاذه فيُقتلون، كان يعرف أن نصفهم يقود النسالى إلى صحراء الجنوب فيما يقود نصفهم الآخر المائتين إلى الشمال عبر بحر أكما، إلى أن زأر بقوة رغمًا عنه فارتعب الجنود من حوله، حدّق آدم في الدماء ونطق في ذهول:

- النسلي المُكبل في رسمة زهير كان أنا؟!!

نظر إلى نفسه وهو يسقط على أرض المنصة خائر القوى تنزف الدماء من جسده الممزق بالسياط، قبل أن يعود إلى هيئته البشرية ويُجر إلى خارج الباحة حيث أركعه الجنود أمام فارس، كان يحمل سيفًا، نظر بعينه نحو الشرق متعبًا، كان الدخان الكثيف المتصاعد إلى السماء قد بدأ في التلاشي، نظر من جديد إلى الفارس أمامه وتمتم إلى نفسه:

- ستتغير القواعد يومًا ما.

آخر ما تذكره كان نصل السيف وهو يعلو إلى السماء قبل أن يهوي إليه.

اختفى كل شيء أمام آدم بعد ذلك، وقال الرأس:

- ظننت أنني سأستطيع الحفاظ على روحك مدى الحياة، لكنك لم تعش سوى ستة قرون بين الأشراف قبل أن ترتكب جريمة جعلت القاضي الأحمق يقر إعدامك في باحة جويدا لتعود روحك للنسالى من جديد، لكن تذكر أنني حافظت على عهدي لك ونسي الأشراف ما حدث منك ومن النسالى مع غروب شمس اليوم الذين عادوا فيه إلى وديانهم.

نطق صوت نديم في رأس آدم في حالة من الصدمة:

- عاشت روحنا ستمائة عام بين الأشراف؟!

ثم وجد آدم نفسه ينطق بصوت نديم إلى الرأس:

- ماذا حدث لمن رحلوا إلى الشمال في هذه القرون؟!

قال الرأس:

- لا أعرف كيف كانت حياتهم قبل أن تفنى أجسادهم، لكن أرواحهم التائهة لا تزال تسكن الجبال المظلمة شمال بحر أكما، يدقّون الطبول في انتظار اليوم الذي يسكنون فيه أجساد قومٍ يحملون دماءك إن اُستدعوا من جديد.

وبدأ صوت كطبول الأفراح يخرج من بركة الدماء، فأكمل الرأس:

- من يسمع أصوات طبولهم المتداخلة مع عويل الرياح يظن أن أفراحهم لا تتوقف أبدًا.

ثم سكت مُنهيًا كلامه، وذاب داخل الدماء، بعدها بدأ منسوب البركة يقل شيئًا فشيئًا حتى جفت تمامًا، فقال صوت القائد النسلي في رأس آدم محدثًا نديم:

- لا أتذكر شيئًا من سنواتي بين الأشراف، لكني كنت على ثقة وأنا أشرب من كأس الدماء أن روحي ستعود إلى النسالى من جديد مهما طال الزمن، لعل نسليًا ممن يحملون روحي يستطيع تذكر ما فعلته، ويبحر إلى الشمال ليكمل الخطوة التالية بإنجاب أطفال ينشأون هناك من أجل حمل الأرواح التي هاجرت حين نحتاجها.

لكن بعدما عادت روحي للنسالى من جديد لم يستطع استدعاء الروح الزائرة من حامليها خلال قرون طويلة غيركما، ولم يتحمل ضجيج الذكريات في رأسه إلا هذا الفتى، ربما أخطأت بموافقتي على شروط حوران لكني قبلت جميعها من أجل النسالى.

وهدأ من نبرته وهو يكمل:

- لقد عرفتما الآن ما حدث في الماضي، وعرفتما لماذا لا نستطيع استدعاء أرواح الزائرين خارج هذا الجبل، صار قرار الشاب في يده فقط يا نديم، بدمائه فقط تسري العهود.

وسكت، نظر آدم إلى السماء عبر فوهة الجبل فوجد الشمس تقترب من منتصفها، ظن أن نديم سيصرخ في رأسه ليسارع بإبرام العهد الجديد كي يستدعي الزائرين، لكن صوت نديم سكت تمامًا في داخله، وواصل صوت القائد النسلي سكوته كذلك، لتهدأ الأفكار الصاخبة جميعها في رأسه وكأنهما تركا له اتخاذ قراره، فقال لهما في نفسه وهو ينظر نحو البركة الجافة:

- لم يكن نيلي لروحكما مصادفة، ولم تكن معيشتي بين الأشراف ليصبح زهير ابن أخ الفارس كيوان صديقي الوحيد مصادفة، ولم تكن رؤيته لصورتي القديمة مع عمه ليخبرني عنها مصادفة، ولم تكن مغادرة خالتي سيرين لأرى صورة الرامية في هذا التوقيت مصادفة، كان مقدرًا لي أن يحدث كل هذا، لا أعرف متى قد يعود من رحلوا من الزائرين بسفنهم، لكني سمعت الكثيرين يتحدثون عن جدية الفارس كيوان في إبادة النسالى هذه المرة.

سأقيم عهدًا مع دماء حوران من أجل استدعاء الزائرين الباقين في چارتين، أرى أن نديم يثق في تلك الرامية كثيرًا، سأنقذها من أجلك يا نديم، وسأنقذ النسالى من أجل ما فعلته لهم أيها القائد العظيم، مهما كان الثمن الذي سأقايض به وادي حوران.

ثم غرس أظافره في جرح صدره الذي كان بالكاد أوقف دماءه، وجرّها بقوة إلى اليمين، فنزف من جديد، ثم مد يده بدمائه فوق البركة

لتتساقط قطراتها إلى أرضها، فبدأت الدماء تنساب إليها من شقوقها، لتمتلئ رويدًا رويدًا مرة أخرى، حتى امتلأت عن آخرها، فظهر الرأس منزوع الأعين على سطحها، وقال بصوته الذي صار مزعجًا لآدم:

- يحفظ حوران القواعد والعهود والبلاد.

قال آدم بصوت قوي:

- لقد أتممتُ عهدًا قديمًا على نفسي بألا أستدعي أرواح الزائرين إلا في هذا الجبل، وقد جئتُ اليوم لأقيم عهدًا جديدًا كي أستدعيها من جديد كچارتيني حصد روحه في باحة جويدا ويحمل روح الشامو الأول التي لا تخضع لحوران.

قال الرأس:

- لكل عهد ثمنه، ويفي حوران بالعهود إن دُفع الثمن الذي يحدده.

قال آدم:

- إني أسمعك.

غطس الرأس في الدماء وغاب لدقائق، ثم ظهر من جديد وقال:

- ستُستدعى الأرواح الزائرة كما طلبت، ولكن من يمت منها سيحصد حوران روحه يفعل بها وبقوتها ما يشاء.

قال آدم:

- هذا يعني أنها لن تخضع لي بعد ذلك؟

قال الرأس:

- نعم، من يمتلك حوران روحه منهم لن يخضع لك من جديد وإن مر عليه ألف ألف عام.

وصمت لثوان قبل أن يقول:

– ما لم تمتلك قوتك الكاملة، وهذا لن يحدث إلا إن تم العهد الدموي الأول، وقدّم النسالى ذبيحهم الشريف على صخورنا.

سكت آدم مفكرًا، كان يفكر في ذكريات القائد القديم، وما رآه خلال المعركة الكبرى التي انتصر فيها الزائرون القدامى على الأشراف، وهمس إلى نفسه وهو يتذكر القوة التي يتمتعون بها:

– ليس من السهل أن يموتوا ما لم يمتلك الأشراف قوة غير متوقعة، وإن مات بضعة منهم وانضموا إلى الأشراف يستطيع الباقون منا الانتصار عليهم.

ووجّه حديثه في نفسه إلى القائد الزائر وقال:

– أعدك أنني سأحافظ عليهم.

فقال الرأس مقاطعًا تفكيره:

– ليس هذا الشرط الوحيد فحسب، هناك شرط آخر؛ إن أتممت هذا العهد ستخرج من هنا بذكرياتك فقط، سيرحل عنك حاملو روحك السابقون وذكرياتهم جميعًا، وجميع الذكريات التي أحضروها لك في الأيام السابقة بعد بلوغك، وبمجرد أن تغادر حوران ستنسى أنك جئت إلى هنا، ستعود كما عشت دومًا بذكريات سنواتك الستة عشرة لا تحمل ذاكرتك إلا أحلامًا مبهمة لا تجد لها تفسير.

قال آدم معترضًا:

– لكني عشت هذه الأعوام كشريف!

قال الرأس:

- إذن ستكمل حياتك بعد خروجك من هنا كشريف يحمل في داخله قوة يخضع لها النسالى الزائرون الأحياء.

قال آدم:

- هذا يعني أنني سأكون خصمهم؟!

قال الرأس:

- بل ستكون أشد الخصام.

أدرك آدم في رأسه لماذا وُضع الشرط الأول، أراد وادي حوران أن يكون هو القوة التي تستطيع إيقاف الزائرين، وسمع صوت القائد القديم في رأسه يحدثه:

- لا تفعل، لقد تعاهد الزائرون على الخضوع لأوامري، إنه يسعى لامتلاك أرواح الزائرين جميعهم، إنها مكيدة من الأشراف، لا تفعل أرجوك.

تجاهل آدم صوت القائد في رأسه، وسأل الرأس:

- لماذا تكره النسالى إلى هذا الحد؟

قال الرأس:

- إنهم مجرمون ويستحقون من العقاب أشده، ولم يجلبوا لهذا البلد إلا العار، على عكس الأشراف المخلصين، انظر في الدماء.

نظر آدم في دماء البركة، فرأى صفوفًا كثيرة من الأحصنة تحمل فرسانًا يرتدون دروعهم حين حدّق في وجوههم وجد بعضهم بشريين

وآخرين زائرين فيما تصطف من خلفهم مدافع ضخمة ذات فوهات واسعة، ثم رأى نفسه مرتديًا درعه ويقف بحصانه في الصفوف الأولى من ذلك الجيش عندما قال الرأس:

- سيكون جيشًا عظيمًا يحمي البلاد، وأنت ستنال المجد كفارس شريف بعيدًا عن أولئك المجرمين.

شعر آدم وكأن قائدًا حربيًا يحدثه، فقال وهو يواصل النظر إلى نفسه بين الفرسان:

- ومتى أستطيع تذكر ذكريات حاملي روحي وما حدث هنا من جديد؟

غطس الوجه ثم عاد بعد وقت قصير:

- ستتذكر في حالة وحيدة، إن خالف نسليٌّ واحد لا يخضع لك عقيدته في القتل، حين تسنح له فرصة حقيقية لقتلك ويعفو عنك رغم علمه بكونك ألد أعدائه.

وأردف بصوته الرنان:

- اشرب من دمائنا قبل أن تجف البركة إن أردت إتمام العهد.

ثم ذاب في الدماء، فرأى آدم على سطح البركة الذي بدأ يتناقص شيئًا فشيئًا باحة جويدا يحتشد فيها ألوف الحاضرين، بينهم جنود كُثر يحاصرون نسالى عرايا الصدور فيما يصعد إلى المنصة جنديان يجرّان الرامية مُكبلة اليدين والقدمين ليوقفاها خلف الفارس كيوان الذي كان يقف كالتمثال في منتصف المنصة، تذكر لوهلة حديث الرجل الذي زاره في بريحا وحدثه عما فعلته هذه المرأة من أجل النسالى وهو يرى عيون النسالى الباكية في الباحة وهم ينظرون إليها، ثم رأى وجه الرامية الذي

بدّلته السنوات بعض الشيء عما كان في ذاكرته وهي تغمض عينيها عندما نهض القاضي من موضعه ليبدأ في تلاوة حكمه، بعدها اختفى كل شيء من أمامه ولم يجد إلا صورته المنعكسة في الدماء كأنَّ الوادي ينتظر قراره، هز رأسه إيجابًا ثم مد يده إلى البركة وملأ راحتها بدمائه ورفعها إلى فمه وتجرعها، وقتها اهتزت الأرض من أسفله هزة مفاجئة دامت لثوانٍ قليلة ثم اختفت، نظر حوله بعدها لم يعرف ما الذي جاء به في ذلك المكان الغريب، رأى سلمًا صخريًا يصعد إلى فتحة تشبه بابًا فركض نحوه وصعد درجاته ليخرج من ذلك الجبل، ثم شعر أن قواه تخور وجسده يرتجف كأن إعياء مفاجئًا أصابه، قبل أن يسمع صهيل حصانه، فهبط صخور الجبل مسرعًا نحوه وامتطى متنه بصعوبة بعدما اشتد إعياؤه، ليركض به دون توجيه منه بعد أن سقط بجسده فوقه فاقدًا وعيه، لم ينهض إلا عند عبوره النهر الجاف إلى مدخل جويدا، لم يعرف كيف أتى إليها، ولم يتذكر سوى أن حالة من الهياج الشديد أصابته الليلة الماضية بعدما رأى حلمه المبهم المعتاد الذي تقتله فيه الرامية، وجد الجميع يركضون في صراخ شديد وهلع كبير، سأل أحدهم:

- ماذا حدث؟!

أجابه الرجل وعلى وجهه فزع كبير:

- لقد تحوّل النسالى إلى وحوش يهاجمون الأشراف في الباحة.

دبَّ الخوف في قلبه وفكر أن يركض بحصانه بعيدًا، لكنه تذكر أن خالته سيرين جاءت إلى جويدا منذ أيام، وصديقه زهير لا يزال هناك، فسأل الرجل أن يدلّه إلى طريق الباحة، ظن الرجل أنه مجنون، فقال آدم:

- إن خالتي وصديق عمري هناك.

فأشار له الرجل ناحية الجنوب قبل أن يتركه ويواصل ركضه.

حين وصل إلى الباحة كان القتلى والجرحى يتناثرون فيها بكثرة، ولم يكن هناك نسالى زائرون، هبط عن حصانه مؤنبًا نفسه بأنه تأخّر، وبدأ يبحث بين الجثث عن خالته سيرين لكنه وجد نسليين زائرين كانا يتخلفان عن باقي الزائرين الراكضين نحو الجنوب يلتفان ويركضان نحوه، ركب حصانه سريعًا وفرّ نحو منطقة جبلية بعيدة عن الطريق الذي اندفع فيه بقيتهم، فتبعاه، ظن أنه أفلت منهما بعدما توغل في كثير من الممرات الجبلية المتشعبة إلا أن أحدهما ظهر له على حين غرة وانقض على صدره بمخالبه، فسقط عن متن حصانه، اقترب منه ذلك الزائر وكاد يقتله لولا أنه صرخ فيه في أملٍ مفقود كي يتوقف، فحدث ما لم يتوقعه وتوقف الزائر بالفعل مطيعًا له قبل أن يتركه ويركض بعيدًا، بعدها هاجمه الزائر الآخر، فأمره بأن يتوقف فحدث الأمر ذاته، بل استعاد ذلك النسلي صورته البشرية، فكبّله بلجام حصانه على الفور، وعاد به إلى جويدا ورأسه يفكر مستغربًا في سبب استجابة هذين النسليَّين له، حتى وصل إلى جنود الأشراف، فقيدوا أطراف النسلي وعنقه بأغلالٍ حديدية، ثم اقتادوه معه إلى دار الأمن حيث التقى صديقه زهير في تلك الليلة وأخبره عن استطاعته إخماد أرواح وحوش النسالى.



صحراء الجنوب بعد معركة الروافد:

توالى كل شيء في ذهن آدم وهو يركض بهيئته الزائرة ويطلق زئيره الرهيب بعدما لم تطلق غفران بارودها نحو رأسه، تذكر كل شيء حدث له في بريحا في الأيام التي سبقت يوم محاكمتها، وتذكر كل شيء حدث في جبل العهود، أدرك أنه كان سببًا في نيل وادي حوران أرواح الزائرين الذين ماتوا، وأدرك أنه تذكر كل ذلك بعدما لم تقتله غفران النسلية وقتما لم يكن هناك فرصة لقتله أكثر سنوحًا من ذلك.

عندما استحال إلى هيئته البشرية ووقف ليلتقط أنفاسه في ممر جبلي تذكر مرة أخرى غفران وهي تنزل سلاحها جانبًا، فهمس إلى نفسه لاهثًا:

- ارتكب الأشراف خطأ عمرهم حين حولوها لنسلية.

تذكر الجيش الذي رآه في بركة الدماء والذي يضم فرسانًا من الزائرين والأشراف يصطف خلفهم مدافع كبرى عرف بعد كل ما حدث ورآه أنها مدافع الجدار، وحدّث نفسه في حسرة:

- سيقضون على ما تبقى من النسالى في غمضة عين.

فكر في أن يعود إلى النسالى من جديد، لكنه عاد وفكر في الذهاب إلى وادي حوران لعله يستطيع تغيير شيء أو تقديم عهدٍ يجنّب به النسالى ما سيحدث، وصاح في نفسه محمسًا:

- إنك قائد الزائرين، على مر الزمان كنت أقوى الأرواح في چارتين.

ثم استحال مرة أخرى إلى هيئته الزائرة، وواصل الركض نحو الشمال.

عندما اقترب من جويدا استعاد هيئته البشرية المتعبة إلى حد الموت بعد ذلك الطريق الطويل، ثم عبر أخدود النهر الجاف إلى شرقه دون أن يمضي إلى داخل المدينة، وواصل الركض جارًا قدميه حتى وصل إلى الطريق الرملي المؤدي إلى وادي حوران، فاستحال إلى هيئته الزائرة من جديد وأكمل ركضه بسرعة أكبر وهو يصرخ داخل نفسه:

- لا بد وأن هناك طريقة ما لإيقاف الأشراف.

لكنه لم يكد يكمل ميلًا واحدًا في ذلك الطريق حتى وجد نفسه ينجذب بغتةً إلى الهواء وينقلب جسده رأسًا على عقب، أخذ الأمر ثواني منه ليستوعب أنه وقع في شَرك من شباك متينة شلّت حركته تمامًا بعدما تكوّر جسده في داخلها، حاول الإفلات منها بكل طاقته وهو يطلق زئيره القوي، لكنه لم يستطع، نظر إلى الرافعة الفولاذية المُعلقة بها تلك الشباك، ثم نظر إلى جنود الأشراف الذين ظهروا من أسفله رافعين بنادقهم نحوه، وأدرك أن تلك المصيدة أُعدت خصيصًا من أجله.



(١٨)

في قفص فولاذي ضيِّق مُغطَّى بالقماش الأسود الثخين كان آدم يقبع بهيئته البشرية يتضوّر جوعًا دون أن يدري شيئًا عما يحدث في الخارج أو كم مضى من الأيام منذ اصطياده، وكلّما استحال إلى هيئته الزائرة وحاول إبعاد قضبان القفص الفولاذية عن بعضها سمع لسعة السوط على القفص من أجل إسكاته، فيزداد هياجًا ويواصل بكل طاقته محاولاته لإبعاد تلك القضبان وهو يطلق زئيره الرهيب، فتشتعل ضحكات الجنود المكلفين بحراسة قفصه، ليعود بعدها إلى هيئته البشرية المُتعَبة في قلّة حيلة، وينادي في تعب إليهم دون أن يراهم:

- أريد أن أقابل الفارس زهير.

لكنَّ أحدًا لم يُجبه قط، فيصرخ إليهم متوسلًا الإجابة:

- هل زحف الفارس كيوان إلى الجنوب؟

إلا أنه لم يكن يُجاب إلَّا بطرقعة سوط في الهواء تجفل جسده، فتثور روحه غضبًا من جديد، قبل أن تهدأ سريعًا دون أن تغيّر من الأمور شيئًا، لتمر أيامه في ذلك القفص المعتم يومًا وراء الآخر في عزلة تامة لا يصله بالعالم الخارجي إلا فتحة ضيقة للغاية في الغطاء القماشي كانت تُفتَح على أوقات بعيدة كي يلقي إليه أحد الجنود بكسرة خبز مُبللة بالماء لا يزيد حجمها عن حجم إصبع من أصابع يده، وكأنهم تلقوا أمرًا بالإبقاء

عليه حيًا. إلى أن شعر فجأة باهتزاز القفص الذي يحتويه فأدرك أنهم بدأوا في نقله من المكان الذي وُضع فيه طيلة تلك الأيام، ثم وجد القفص يتأرجح به يمينًا ويسارًا مع الهواء فتذكر وهو يتشبث بالقضبان ما فعله الفارس كيوان أمام عينه مع من اعتقلوا من النسالى الزائرين بعد فشل هجومهم على مدافع جويدا.

حاول طرق القفص والصراخ عاليًا وهو على هيئته البشرية إلا أنَّ ذلك لم يفعل شيئًا سوى ازدياد تأرجح قفصه في الهواء، بعدها أُزيل الغطاء القماشي فجأة عن قفصه فأغمض عينيه مع اشتداد ضوء النهار، إلى أن استطاع الرؤية فوجد قفصه مُعلقًا بسلسلة حديدية سميكة تتدلى من طرف رافعة حديدية تشبه الهلال كان طرفها السفلي مثبتًا في عربة حديدية كبرى يحمل سطحها قدرًا كبيرًا يمتلئ بحمض يتصاعد منه البخار وُضع أسفل قفصه مباشرةً، أما ما جعل حدقتي عينيه تتسعان ذهولًا فكانت صفوف الجنود والفرسان الكثيرة جدًا التي أحاطت بالعربة التي تحمله، أُلوف مؤلَّفة من راكبي الخيول تعكس الشمس نورها على دروعهم وخوذاتهم على امتداد بصره في كل جانب. قبل أن تُطلَق الأبواق وتُدَق طبول الحرب بالإيقاع ذاته الذي دُقَّت به أثناء تحركه مع زهير في الجيش الصغير الذي تلقّى هزيمته على يد النسالى في منطقة الروافد، لتبدأ الصفوف في التحرك جنوبًا في تناغم يقودهم الفارس كيوان الذي رآه يتقدم الصفوف بنفسه هذه المرة، ليتأرجح قفصه بشدة فوق قدر الحمض مع بدء العربة تحركها مع الصفوف، فتشبث بقضبان القفص بقوة وهو ينظر إلى الفارس كيوان متعجبًا مما يحدث؛ لماذا لم يقتله في المعسكر الشمالي مثلما فعل مع الباقين؟، ولماذا آثر اصطحابه معه إلى الجنوب وهو يعلم أن أغلب النسالى الزائرين قد أُخمدت أرواحهم ومن

تبقَّى منهم فليسوا في چارتين من الأساس ولا أمل في عودتهم؟، حتى وإن كانوا قد عادوا واصطحبه معه من أجل إخمادهم، فسيلقي بنفسه في القدر المذيب ولن يفعلها، ثم نظر خلفه مع ذلك الصرير الذي تعالى إلى حد الضجيج، فرأى الخيول تجرّ عشرة مدافع من مدافع الجدار في الصفوف الخلفية مُخلِّفة وراءها غبارًا عظيمًا تصاعد إلى عنان السماء، لم تكن نفسها المدافع التي كانت تواصل إطلاق قذائفها العابرة من فوقهم نحو الجنوب، كذلك رأى عربات كثيرة تحمل صهاريج كبرى لم يعرف محتواها، كانت تتحرك هي الأخرى في مؤخرة الحشد، فأدرك أن كيوان قد جمع كل جيشه وتحرك على رأسه مع قادته نحو جبال الروافد كي يحقق هدفه بالقضاء على النسالى، وربما دفعه غروره للقضاء عليهم أمام عينه قبل التخلص منه.

حاول استحضار القائد النسلي في رأسه أو نديم، لكنه لم يستطع وكأنهما قد أنهيا مهمتهما في وادي حوران، حاول البحث عن زهير بعينه بين الصفوف لكن العثور عليه كان مستحيلًا وسط كل تلك الحشود المتشابهة ما لم يتحرك إليه زهير بنفسه، فكَّر أن يستحيل إلى هيئته الزائرة كي يتعافى من ذلك الدوار الذي أصابه من تأرجح القفص لكنَّ قواه كانت خائرة للغاية، فاستلقى في إعياءٍ شديد على قضبان أرضية القفص ينظر نحو الجبال المتشابهة على جانب الطريق وكلّما جال في ذهنه ما فعله بالنسالى الزائرين وما ينوي كيوان فعله في الباقين بعد أيام قليلة تساقطت دموعه رغمًا عنه، قبل أن ينهض عن استلقائه بصعوبة عندما أُطلِق بوق مفاجئ مع انتصاف الشمس السماء توقف بعده الحشد عن التقدم، ونظر مترقبًا إلى الفارس كيوان الذي صعد بحصانه تلًا مجاورًا كان ارتفاعه عن الأرض يشبه ارتفاع منصة الباحة، لتستدير

جميع القوات ناحيته بأمر من فارس آخر، بعدها قال بصوت جهوري موجهًا حديثه لهم:

- كما تعلمون أنَّ اليوم كان من المفترض أن يكون يوم غفران هذا الشهر، ولكنْ لم يكن هناك وقت للاحتفال بعدما أقسمت أنني لن أحتفل إلا بعد القضاء على أولئك الأنجاس .. إلا أنَّ وادي حوران أمدَّ أشراف چارتين بمنحة عظيمة مع انتصاف شمس هذا النهار، سعينا إليها كقادة چارتين منذ عهد طويل، والآن صارت ملكًا لنا، لقد اكتسبت أرواح بعضكم أرواحًا ضارية مثل التي كنا نحاربها في الأوقات الماضية، لها مثل قوتها وبأسها، وتخضع لوادي حوران ولي بعدما قدمتُ دمائي سعيًا لها في جبل العهود قبل شهور، لتُتوارث هذه الأرواح بين الأشراف من اليوم، وتتوارث روحي قوة السيطرة عليها ما دامت تخضع لحوران.

من لن يحملها منكم فلا يخافها، فلن تؤذي جسدًا لا يحمل وشمًا غير هذا الجاسوس الحبيس في قفصه، والذي سيلقى عقابه أمام من يحبوه.

قالها وهو يشير نحو آدم، ثم أكمل:

- لقد عاهدتكم وعاهدت وادي حوران بأن أقضي على النسالى، إنَّ قذائفنا تحاصر جحورهم الآن كي لا يستطيعوا الفرار، ولن أعود إلى جويدا من جديد إلا وأجسادهم مذابة في أحماضنا لنتخلص من هذا الكابوس للأبد.

أدرك آدم حينذاك أنَّ صهاريج العربات في الصفوف الخلفية تمتلئ بالأحماض المذيبة، فطرق بيده على قضبان القفص في توتر شديد قبل

أن يرى رجلًا يرتدي عباءة أنيقة يتحرك نحو الفارس كيوان حاملًا كأسًا ذهبية تلمع بقوة مع أشعة الشمس، فدقَّ قلبه منتفضًا وتسارعت أنفاسه وهو ينظر إلى كيوان وهو يمد يده ليتناول ذلك الكأس ويتجرع ما فيه، بعدها بلحظات سَرَت حالة من الاضطراب بين الصفوف تحولت سريعًا إلى حالة من الهرج والمرج عندما بدأ بعض الجنود في الإمساك برؤوسهم والصراخ ألمًا بعدما بدأت عضلاتهم في البروز وعروقهم في التمدد رغمًا عنهم لتستحيل أجسادهم رويدًا رويدًا إلى الهيئة الزائرة، قبل أن يصدر أول زئير بين الصفوف، فالتفت آدم في كافة الجهات بحثًا عن مُطلِقه، إلى أن رآه، كان صادرًا من جندي مدرع يمتطي حصانه بالصفوف الوسطى، نزع خوذته وألقاها بعيدًا ليظهر وجهه الزائر ذو الأنياب الطويلة، وظلَّ يطلق زئيره وهو ينظر بعينه يمينًا ويسارًا كأنه لا يدري ماذا حلَّ به، بعدها بدأ الزئير يصدر متتاليًا من أماكن أخرى متفرقة بين الصفوف فيما اكتست وجوه الجنود والفرسان الآخرين بالاضطراب والخوف اللذين وصلا حد الارتعاب، كذلك هاجت الأحصنة جميعها لكن هياجها لم يستمر طويلًا وهدأت بعد وقت قصير على عكس الفوضى التي استمرت بين الجنود دون توقف، حتى أطلق الفارس كيوان باروده إلى السماء، ليعود الهدوء من جديد، فقال بصوته القوي:

– لا يخَف أحدكم من شريفٍ زائر، إنني مثلكم لا أحمل روحًا ضارية، إنَّ قواهم محكومة بدماء حوران ولن تؤذي أحدًا منكم.

سيُعاد تشكيل الصفوف الآن، ليتقدم الزائرون بخيولهم للصفوف الأولى فرسانًا وجنودًا، وليتراجع الباقون بالصفوف الخلفية، هيا أسرعوا.

وبدون لحظة انتظار وجد آدم الزائرين المدرعين يركضون بأحصنتهم بين الصفوف وهم يطلقون زئيرهم ليتقدموا إلى مقدمة الجيش فيما كان الجنود والفرسان الباقون يبتعدون عن طريقهم خوفًا وكأنَّ كلام كيوان لم يؤثّر فيهم، إلى أنْ تشكَّلت مقدمة الجيش جميعها من الزائرين. لم يكن آدم في حاجة إلى من يخبره بأن أعدادهم تساوي أعداد النسالى الزائرين الذين قام بإخماد أرواحهم وقُتلوا سواءً في معركة الروافد أو ليلة الهجوم على مدافع الجدار، عدا أرواح الشامو الذين لا يخضعون لأحد، وهمس إلى نفسه غير مصدّق وهو يرى كيوان يتحرك بحصانه بينهم في ثقة وتباهٍ بينما ينحنون برؤوسهم له في طاعة كبرى:

- كان كيوان من وضع شروط العهد مسبقًا من أجل السيطرة على أرواح الزائرين؟!!

في الجبال المقببة كان النسالى يتقوقعون داخل باحاتهم المغطاة عندما اشتد القصف المدفعي للمناطق المجاورة لهم، قال فاضل لغفران التي كانت تجلس بجواره:

- كما توقعنا، يريد كيوان الإبقاء علينا في الجبال ليقلّل جهد جنوده في ملاحقتنا.

هزّت رأسها متفقة معه دون أن تنطق، فسألها بعدما شعر بعدم تركيزها مع حديثه:

- ألا زلتِ تفكرين في النقوش التي فسرتها سبيل منذ أيام؟

قالت:

- بلى، لا أستطيع منع نفسي من التفكير فيها، ليت سبيل لم تقرأها لي، لقد سئمت تعلقي بالخيالات المستحيلة بعد كل ما حدث وصار.

نظر إلى حيدر الطفل الذي كان يركض بين الأطفال اللاعبين وقال:

- ربما تكشف الأيام القليلة القادمة أمورًا أخرى، من يدري؟

ثم تابع:

- أخبرني ريان صباحًا أنه أمر جميع المتعلمين من الفتيان والفتيات ممن لا يقدرون على القتال بنقش ما حدث للنسالى خلال هذه الأعوام على جدران أحد الجبال المقببة من أجل تأريخ هذه الحقبة في تاريخ النسالى.

قالت باسمة:

- إنها فكرة رائعة لم تخطر في بالي، أخبرني بها أيضًا أمس، لكنه سألني مؤكدًا ألَّا أذهب إلى الجبل الذي ينقش فيه الفتيان كلماتهم إلا بعدما يأذن لي.

قال فاضل مازحًا:

- يبدو أنه يعمل على تحضير مفاجأة لكِ هناك.

قالت ضاحكة:

- أتمنى إذن أن أراها قبل وصول جيش كيوان، سيسعدني ذلك كثيرًا قبل موتي.

فقال بنبرة جادة عندما شاهد ريان يدلف إلى الباحة التي يقبعون فيها ويتحرك بين الشبان يحمسهم:

- إنه يبلي بلاءً حسنًا كقائد للنسالى.

هزت رأسها إيجابًا وقالت:

- نعم، إنني أشفق عليه كثيرًا، ليس من السهل أن تتحمل مسئولية اثني عشر ألف إنسان يعلم جميعهم أن الموت يصارع الوقت للانقضاض عليهم، لكن الشبان يبلون بلاءً حسنًا في استخدام الأسلحة النارية وفي داخلهم حماس كبير للغاية، لن يجدهم كيوان صيدًا سهلًا أبدًا إن حاربوا بالشجاعة نفسها التي ظهروا عليها في نهاية معركة الروافد.

قالت سبيل التي كانت تجلس بجوارهما صامتة طوال الوقت:

- متى قد يهاجموننا سيدتي؟

قالت غفران:

- لا أدري يا سبيل، لكنه لم يعد لدينا شيئًا يخافه كيوان، سيود التخلص من كابوسنا في أقرب وقت، على كل حال لقد أرسل ريان بعض الشبان إلى منطقة الجبال الحمراء كطلائع لنا، إن نجحوا في مغادرة المنطقة الوسطى سالمين قد نعرف موعد قدومه إلى هنا قبلها بيومين على الأقل.

أومأت برأسها إيجابًا في صمت، فقال فاضل وهو ينهض:

- سأذهب لرؤية بعض الجرحى لعلَّ أحدهم يصير قادرًا على الانضمام للمحاربين، أراكما مساءً.

أومأتا إيجابًا، فغادر، ثم قالت غفران لسبيل باسمة وهي تنظر إلى حيدر:

- إنَّ فتاكِ محظوظ، لا بد أنَّه سيكون ذا نصيب كبير في النقوش التي ينقشها النسالى الآن.

ابتسمت سبيل في مرارة وقالت:

- أخشى أن يكتبوا عنه أنه خيَّب رجاءهم هو وأمه، كان من حسن حظه فقط أنكِ هنا سيدتي، وإلَّا كان النسالى قتلوه حتى وإن لم تعد لدمائه قيمة بعدما أضعتُ الرأس.

ابتسمت غفران وربتت على فخذها:

- سيكتبون أنه الشريف الأول من نسل النسالى وأول من نال روحه منهم خارج باحة جويدا، سأحرص على ذلك.

ابتسمت سبيل في امتنان كبير، ثم قالت وهي تنظر إلى ريان الذي كان يواصل تحركه بين الشبان:

- ماذا تتوقعين أن يحدث سيدتي في الحرب القادمة؟

قالت غفران:

- سيكون من المنطقي أن يربح كيوان إن جاء بكامل جيشه الذي يفوقنا عددًا وعتادًا وتنظيمًا، لكننا سنقاتل بشرف إلى النهاية على كل حال، وكما قال لي ريان أنَّ النتيجة ستكون مريحة لنا في كافة الاحتمالات إمَّا أن ننتصر فننال حقوقنا أو نموت فنرتاح من هذا العناء، وأنا سأموت وأنا راضية تمامًا عن حياتي بعدما كانت مليئة بلحظات مثيرة شتَّى أفضل كثيرًا من حيوات أخرى عشَّش فيها الملل من كثرة ركودها.

ضمَّت سبيل شفتيها مفكِّرة وهزَّت رأسها إيجابًا، ثم نظرت إلى طفلها الذي كان يواصل ركضه بين الأطفال ضاحكًا، وأطالت النظر إليه في صمت.



في جنوب الجبال الحمراء،كان جيش الأشراف يواصل زحفه الصاخب بينما يستلقي آدم على أرضية القفص المتأرجح فوق قدر الحمض بعينين غائصتين في وجهه وجسد هزيل متعب لا يقوى على النهوض بعدما لم يُطعَم أو يُسقَ خلال السبعة أيام التي مرَّت منذ ثارت أرواح الأشراف الزائرة إلَّا مرتين فقط كل واحدة فيهم لم تتجاوز القطعة الصغيرة ذاتها من الخبز المبلّل بالماء، ومع حرارة الشمس الشديدة التي أفقدته سوائل جسده كل يوم عن اليوم الذي يسبقه شعر أنَّه لن يستطيع إكمال الثلاثة أيام المتبقيَّة على وصول الأشراف إلى منطقة الروافد وهو على قيد الحياة.

عندما توقف الحشد للتخييم مساء اليوم الثامن اقترب من قفصه شريف زائر وحدَّق فيه بعينيه الحادَّتين متفحصًا له، نظر له آدم في إعياء وهو مستلقٍ على جانبه وحاول النهوض بجذعه وحدَّق في عينيه محاولًا إخضاعه له، لكن الجندي الزائر زمجر غاضبًا في وجهه قبل أن يُصدر زئيرًا قويًا جعل مَن حوله مِن الجنود الباقين يطلقون ضحكاتهم المقهقهة في سخرية، بعدها ألقى أحدهم نحوه بقطعة من اللحم المشوي تعالت بجوار القفص بعيدًا عن يده قبل أن تسقط في قدر الحمض عن قصد، فعاد آدم لاستلقائه على جانبه من جديد، وهمس بشفاهه الجافة المشقَّقة وهو ينظر إلى الأشراف الزائرين وهم يتجولون بين باقي الجنود المُلتفِّين في حلقات حول النيران:

– لا يخضعون لي، لستُ قائدهم.

بعدها تثاقلت جفونه من شدة الإعياء فأغمض عينيه في استسلام شديد، حتى عندما أُطلِق بوق التحرك صباح اليوم التالي إيذانًا بتقدم

الصفوف من جديد لم ينتبه إليه وعيه وكأنَّ عقله بدأ ينفصل عن الواقع الذي يحيط به رويدًا رويدًا.

في ذلك الصباح كانت غفران تقف أمام صفوف النسالى المصطفين بأسلحتهم النارية في جبل المحاربين تواصل صيحاتها وتوجيهاتها إليهم عندما تقدم إليها ريان وقال:

- سأعطِّلكِ قليلًا عن دروس الرماية سيدتي، لقد انتهى الفتيان الذين ينقشون أحداث هذه السنوات من أهم جزءٍ في أسرع وقت كما طلبت منهم، وهم الآن ينتظرونكِ لتري ما نقشوه كي يكملوا ما تبقَّى.

فابتسمَت وسارت معه إلى الجبل المقصود والذي كان يجاور الجبل المنقوش في داخله أسطول السفن، فتفاجئت عندما وجدت أكثر من ثلاثمائة فتى وفتاة يعملون بآلاتهم الحديدية على قشرة الجبل الداخلية والذين توقفوا جميعًا بمجرد أن دخلت إليهم، فقالت لريان في دهشة:

- كل هذا العدد؟!

قال ريان:

- إنَّ الأحداث كثيرة للغاية، ولدينا من المتعلمين كثيرًا بفضلكِ سيدتي، لقد اختار كل واحد منهم جزءً يكتبه من وجهة نظره، واستعان بعضهم بي وبالطبيب فاضل لتوضيح بعض الأحداث، كذلك اكتشفنا بينهم رسامين ماهرين للغاية.

ثُمَّ تقدَّم فتقدمت وراءه حتَّى توقَّف أمام جدار كان مُغطّى جزء كبير منه بقماش الخيام، قبل أن يشير إلى الشبان بأن يسقطوه، فاندفعت الدماء إلى وجه غفران خجلًا عندما سقط الستار القماشي ووجدت خلفه جداريَّة كبيرة منقوشة تقف فيها على منصة كبيرة يحمل كتفها وشم النسالى فيما تحمل يدها الأخرى كتابًا كانت تنظر فيه كأنها تقرأ منه أمام كثيرين من الرجال والنساء والزائرين الذين يصطفون في صفوف كثيرة أمامها متطلعين إليها، ومن أسفلها حُفِرَ:

«سيدة النسالى غفران ابنة خيال، قامت بتعليم الآلاف منهم، وقادتهم في حروبهم ضد الأشراف».

فنظرت إلى ريان في امتنان كبير، وقالت باسمة بوجه محمر:

- شكرًا لكَ يا ريان.

حنى رأسه باسمًا ثمَّ قال:

- لقد أمرت بكتابة النقوش جميعها بلغتنا الچارتينية الحالية، لعلَّ من يأتي بعدنا لا يجد صعوبة في قراءتها.

ضحكت وقالت:

- سأقرأ جميعها بعدما ننتصر على كيوان.

ضحك، لكن تلك الضحكة لم تدُم كثيرًا بعدما دلف إليهما بجواده شاب من الشبان الذين كانوا قد أُرسِلوا كطلائع للنسالى، وقال بصوت لاهث دون مقدمات:

- إنَّ الأشراف يعسكرون على بُعد يومين من هنا بأعداد لا تقل عن عشرين ألف جندي، وعشرةٍ من المدافع الضخمة.

وابتلع ريقه ثُمَّ قال:

- لكنَّ هناك شيء لم تصدقه عيناي، إنَّ هناك نحو سبعمائة زائر مدرَّع يتقدمون صفوف ذلك الجيش.

قال فاضل في ذهول بعدما اجتمعوا في كوخ القيادة:

- أشراف زائرون؟! كيف ذلك؟!

كانت الصدمة التي تشعر بها غفران قد ألجمت لسانها فلاذت بصمتها، فقال ريان:

- لا نعرف، لا بد وأنَّ آدم قد استطاع بطريقة ما استدعاء أرواح الزائرين في أجساد الأشراف، لن يستطيع فعلها غيره.

وأردف في ارتباك شديد:

- ظننت أن مقاتلينا بأعدادهم القليلة قد يستطيعون مقاومة جيش كيوان، لكن مع وجود الزائرين إلى صفه أيضًا لن نأخذ في أياديهم دقائق، حتى خيار الفرار غير موجود مع تلك القذائف المستمرة التي تحيط جبالنا.

وأضاف بالتوتر ذاته:

- سآمر الشبان بالمقاومة داخل الجبال نفسها، لن نخرج إلى المنطقة الوسطى حتى وإن اصطف فيها جيش كيوان بأكمله وصارت آمنة من قصف المدافع.

وسكت، لم يجد فاضل ما يقوله، وعضَّ على شفتيه مفكرًا في صمت، كانت جميع الطرق في عقله مغلقة من كافَّة الجوانب، ربما كان في داخله

يدرك في الأيام الماضية أنَّ كيوان سينتصر عليهم بجيشه القوي، لكنَّه لم يشعر قط بذلك الارتباك الذي أصابه بعد معرفته بأمر الأشراف الزائرين، حتَّى نطقت غفران إليهما وهي تنظر إلى الفراغ أمامها:

- فلتكن ميتةً شريفة إذن يا رجال كما عزمنا قبل معرفتنا بأمر أولئك الزائرين.

نظرا نحوها في صمت، ثُمَّ أومآ برأسيهما وقالا:

- فلتكن ميتةً شريفة يا سيدتي.

بعدها نهضت وعادت إلى كوخها، وأمسكت برأسها الذي يضج بخيالات مستحيلة عن فرص نجاتهم، إلى أن دلفت إليها سبيل، وقالت:

- لقد أخبرني الطبيب فاضل عن أمر الأشراف الزائرين.

هزَّت غفران رأسها في شرود ولم تقل شيئًا، فابتلعت سبيل ريقها، ثُمَّ قالت في ارتباك واضح:

- هناك شيء كان عليّ أن أخبركِ به سيدتي.



الفصل الأخير

كان جيش الأشراف يتوقف عند منطقة التلال التي تقع غرب الرافد الأول، بينما يقوم كثيرٌ من جُنده ونجّاريه برص ألواح خشبية طويلة وسميكة على الأخدودين الغربيين وتثبيتها معًا بالحبال والمسامير فوق قوائم عمودية خشبية انتصبت في أرض تلك الأخاديد كي يُشيِّدوا جسرين كبيرين تستطيع القوات العبور من فوقهما مباشرةً إلى المنطقة الوسطى.

قالت غفران لريان وهي تنظر في النظارة المُعظِّمة من أعلى جبل صلد يطل على المنطقة الوسطى:

سيعبرون إلى المنطقة الوسطى بعد ساعة على الأكثر.

ونظرت إلى الزائرين الذين يرتدون دروعًا حديدية ويصطفون بأحصنتهم في مقدمة الصفوف:

- أعتقد أنه سيهاجمنا بالزائرين فقط.

وأعطت النظارة لريان، فقال متعجبًا وهو ينظر فيها إلى جيش الأشراف الكبير:

- لماذا جاء بكل هذا العدد؟ سيموتُ متباهيًا هذا الرجل.

بعدها انسحبا هابطين إلى جواديهما الواقفين عند سفح الجبل وعادا إلى جبل المقاتلين المُجوَّف حيث كان شبان النسالى يصطفون بأسلحتهم

يتقدمهم الأربعون الذين خمدت أرواحهم الزائرة وكذلك فاضل الذي وقف حاملًا سلاحه، فتقدَّم ريان بحصانه ليتحرك أمامهم، وقال بصوت عالٍ بعدما تطلَّعوا إليه جميعًا:

- لطالما ظُلِمنا في هذه الأرض وظُلِمت أرواحنا بعدما حاصرَنا العار منذ مولدنا دون ذنبٍ منا، حاولنا إصلاح أنفسنا طبقًا للقواعد اللعينة فقاومونا بكل ما يملكونه من قوة، والآن جاءوا من جديد للتخلص منا، لنرِهم أننا لسنا لقمةً سائغة، من أجل كل من مات ظلمًا على أيدي أولئك الظالمين، من أجل كل من ماتوا وهم يدافعون عنَّا، من أجل النسالى الزائرين، من أجل أنفسنا، ومن أجل نسلنا القادم، فلتضربوا بقوة إلى آخر نفسٍ فيكم، ولتعلموا أنَّ أرواحكم ستكون فخورة بكم إلى أن يفنى هذا الزمان، إما الموت أو الانتصار أيها السادة، وليلحق العار الحقيقي بأرواحهم الآثمة إلى الأبد.

ثم سمع أصوات الطبول العالية تأتي من ناحية المنطقة الوسطى، فقال:

- لقد حانت اللحظة يا رجال، سنُقسَّم على الجبال المأهولة بنسائنا وأطفالنا لنحميهم إلى آخر نقطة دم في عروقنا، هيَّا.

بعدها بدأ الشبان يركضون في جماعات إلى الجبال الأخرى ويدلفون إلى باحاتها فيما تسلَّق بعضهم جوانب الجبال المُطلَّة على الممرات المتشعبة بينها، وتحركت غفران وريان وفاضل بأسلحتهم إلى باحة جبل واديهم للانضمام إلى مقاتليه، واتخذ كل واحد منهم موضعًا خلف ساتر صخري بدا أنَّه بُنِيَ حديثًا من صخور الأكواخ، وانتظروا في ترقب سماع أصوات

الزائرين أو الطلقات النارية وهم يُصوِّبون فوهات أسلحتهم نحو مدخل الجبل، حينذاك نظرت غفران خلفها بعيدًا لتتأكد من عدم خروج أي من النساء والأطفال خارج الأكواخ المختبئين فيها في ركن الباحة البعيد، قبل أن تنظر سريعًا إلى باب الجبل من جديد بعدما دوّت الطلقات النارية في الخارج ممتزجةً بأصوات الزئير المتعالية.

نادى ريان في الشبان كي يثبتوا، إلا أنهم لم يستطيعوا منع القلق من التسرب إلى وجوههم عندما سكتت أصوات الطلقات النارية جميعها في الخارج بعد دقائق قليلة ولم يتبقَّ إلَّا صوت الزئير.

بعدها بدقائق ظهرت جماعة من الزائرين المدرعين يقتحمون باب جبلهم ركضًا فصوَّبوا نيرانهم نحوهم، إلا أنهم واصلوا تقدمهم دون أن تخور قواهم، حتى وصلوا إلى الصف الأول من الشبان المتوارين خلف سواترهم، ووثبوا إليهم منقضِّين على أعناقهم بمخالبهم ليسقطوا صرعى، واصلت غفران والباقون إطلاق نيرانهم وهي تصرخ إليهم:

- صوِّبوا نحو رؤوسهم.

سقط ثلاثة زائرين صرعى، تلقى أحدهم أربعة طلقات نارية في رأسه، وواصل الباقون الاقتراب نحو النسالى، نظرت غفران إليهم وهم يثبون من شاب إلى آخر شاقِّين الأعناق، ثم نظرت إلى الأعداد الكبيرة الأخرى من الزائرين التي كانت تواصل تدفقها كالسيل عبر باب الجبل وأطلقت نيرانها بقوة، اقترب منها زائر فصوَّبت نيرانها في تتابع نحو رأسه فسقط صريعًا قبل أن تتوقف لتعبِّئ سلاحها بطلقاته النارية، ففاجأها زائر آخر ووثب نحوها ضاربًا بمخالبه وجهها، فسقطت على الأرض ينزف وجهها بغزارة، انقضَّ عليها الزائر من جديد، ففوجئت

بفاضل يقفز إليه من خلفه ليغرس سكينه بقوة في جانب رقبته أسفل فكّه مباشرة فأسقطه صريعًا، نظرت إليه غير مصدقة أنها لا زالت على قيد الحياة، فقال فاضل باسمًا وهو ينظر إلى الدماء التي تتدفع من رقبة الزائر بغزارة لتُغرِق الأرض من أسفله:

– لم تضع دراستي للتشريح هباءً، هيًّا.

حملت سلاحها من جديد، وواصلت إطلاق نيرانها نحو رؤوس القادمين منهم، سقط اثنان آخران قبل أن تنفد ذخيرتها مرة أخرى، حملت سلاحًا آخر وهي تركض إلى ساتر قريب منها، وصوَّبت طلقاته في تتابع نحو رأس أحد الزائرين فأردته قتيلًا، فيما كان ريان يواصل إطلاق نيرانه هو الآخر، بينما وثب شبان آخرون بسكاكينهم إلى الزائرين في جرأة كبيرة غير عابئين بما قد يصيبهم، إلى أن نفدت ذخيرة سلاحها مرة أخرى وقلَّت أصوات الطلقات النارية من حولها شيئًا فشيئًا مع بدء نفاد الذخيرة في أسلحة رفقائها، فأخرجت سكينها هي الأخرى ونظرت إلى فاضل وابتسمت قبل أن تركض وهي تصيح نحو أحدهم، ووثبت بسكينها إليه لتغرسها في جانب رقبته كما فعل فاضل مع الزائر الذي هاجمها، كذلك ضرب فاضل بسكينه وتر ركبة أحدهم فأسقطه على الأرض لا يستطيع الوقوف عليها قبل أن يضرب رأسه بحجر قريب منه بقوة فعوى متألمًا، فزاد ذلك من حماس الشبان الآخرين الذين ضربوا بسكاكينهم أعناق الزائرين ومفاصلهم، قبل أن يجدوا حشودًا أخرى من الزائرين المدرعين تندفع عبر الباب لتنقسم إلى جانبيه في صفين واصلا تمددهما داخل الباحة الجبلية حتى أحاطوا بهم من كل جانب دون أن يشتبكوا معهم، كذلك توقف الزائرون المشتبكون معهم عن مواصلة القتال ووقفوا ينظرون إليهم بعيونهم الحادة وهم يزمجرون

غضبًا وكأنَّهم تلقوا أمرًا بذلك، بينما وقفت غفران وفاضل وريان ومن معهم بسكاكينهم متحفزين يتلفَّتون في كل جانب والدماء تغطي وجوههم وأجسادهم، بعدها دلف إلى الباحة على حصانه فارسٌ بشري، وقال للزائرين آمرًا:

- يريد الفارس كيوان إحضار الجميع أحياءً إلى الخارج.

فحاولت غفران الوثب إلى زائر قريب منها يحمل درعه شارة فارس، لكنَّه أمسك عنقها بيد واحدة في ثبات قبل أن يصل سكينها إلى رقبته، حاولت التملص منه بصعوبة، لكنها لم تقوَ بعدما غرس مخالبه في رقبتها بقوة شعرت معها باختناق شديد، بعدها ألقاها أرضًا نحو زائر آخر في غضب، فارتطم جسدها بالأرض قبل أن يمسك بها ذلك الزائر ويُكبِّل يديها بأغلال حديدية كانت مُعلَّقة في درعه، حاول فاضل والآخرون مواصلة الهجوم على الزائرين، لكنَّ قواهم كانت أقل كثيرًا من الزائرين الفرسان، فسقط من سقط وكُبِّل من كُبِّل بالأغلال، إلى أن توقف الشبان عن القتال بعدما وجدوا النساء والأطفال المختبئين في الأكواخ يخرجون مستسلمين أمام الزائرين الذين كانوا يُشهرون أسلحتهم النارية نحوهم ويدفعونهم دفعًا للخروج من الجبل، فهزَّ ريان رأسه في أسفٍ قبل أن يُلقي بسكينه، ومن بعده توقف باقي الشبان عن مواصلة القتال، فقام الزائرون بتكبيلهم جميعًا.

***

في المنطقة الوسطى، كان جيش الأشراف بأكمله يصطف في تشكيل مربع يشغل نصف مساحتها بالكامل، بينما كان الزائرون يواصلون إخراج النسالى المُكبَّلين بالقوة ليحشدوهم في دائرة كبرى يحيطها مئات أخرى

من الجنود الواقفين متأهبين بأسلحتهم ومن خلفهم ستة من المدافع المتراصَّة في إطار نصف دائري، كانت تلك الدائرة تشغل النصف الباقي من المنطقة الوسطى عدا بعض الحفر العميقة التي كوَّنتها القذائف في معركة الروافد الأولى، فيما كان كيوان يقف بحصانه أمام جيشه ينظر إلى أعداد النسالى وهي تتكاثر داخل تلك الدائرة حتى صار حشدهم مع منتصف النهار يماثل حشد الأشراف في باحة جويدا أيام الغفران.

كانت غفران بين آخر جماعة تُقتاد إلى تلك الدائرة، تفاجأت حين وجدت كل هذا العدد من النسالى قد اُقتيد إلى المنطقة الوسطى، فنظرت إلى الأرض حزنًا بينما كان الزائر من خلفها يدفعها دون رحمة إلى أن أُدخِلَت بين الحشد ومعها فاضل وريان، لكنَّ فارسًا كان يقف يراقب النسالى المحتشدين أمر باقتيادها إلى مقدمة الحشد.

حين وقفت في المقدمة نظرت إلى فوهات المدافع الموجّهة نحوهم، وإلى عربات ذخائرها المتراصَّة بجانبها، ثُمَّ نظرت إلى كيوان الذي كان يتحرك بحصانه أمام جنوده في الجهة الأخرى من المنطقة الوسطى، وقالت:

- خسيس.

بعدها تقدَّم فارسٌ بحصانه إلى الفارس كيوان، وبعدما ألقى تحيته العسكرية، أخبره أنَّ جميع النسالى الأحياء قد أُخرجوا من الجبال وجُمِّعوا في الإطار الدائري كما أراد، فأمر بأن ينضم الزائرون إلى الصفوف التي تحيط بالنسالى، ثُمَّ نظر إلى فارس آخر وقال:

- أعطِ أمرًا بتحريك عربات الصهاريج.

فأُطلق بوق ذو إيقاع مختلف، فبدأت العربات التي تحمل صهاريج الأحماض المذيبة تتقدم تباعًا من مؤخرة الجيش نحو حفرة عميقة يصل قطرها عشرة أمتار، كانت على يسار الدائرة المحتشد فيها النسالى، قبل أن يدير الجنود مؤخرات تلك العربات نحو حافة الحفرة ويفتحوا صنابير صهاريجها الكبرى ليندفع الحمض بغزارة إلى جوفها، نظر فاضل إلى العربات، وتساءل لريان الذي يجاوره في تعجب:

- ماذا يفعل؟!

قال ريان:

- لا أدري.

ظلَّت العربات تُفرغ حمولة صهاريجها ليتعالى منسوب الحمض داخل الحفرة شيئًا فشيئًا، فيما تحرك جنود آخرون كثيرون في الوقت ذاته للإحاطة بدائرة النسالى مكوِّنين إطارًا من ثمانية صفوف خلف الزائرين، بعدها تقدَّم كيوان إلى أمامهم عندما صار منسوب الحمض في الحفرة الصخرية فائضًا إلى حوافها، ونظر إلى غفران التي كانت تقف في مواجهته خلف جنوده تنظر في عينيه، وقال بصوت عالٍ:

- ظننتم أنكم ستستطيعون الإفلات بجرائمكم دون عقاب، وصوَّر لكم غباؤكم أنَّكم قد تستطيعون هزيمة قائد جيش هو الأقوى في تاريخ چارتين لتُلحقوا الأذى بالقواعد التي تصون هذا البلد لمجرد أنَّكم شعرتم بقوتكم، اعتقدتم بحماقتكم أنني سأستغني بسهولة عما امتلكتموه من قوى فريدة وهبتها لكم باحة جويدا، لكنكم لم تعرفوا قط مع من تتحاربون. هيَّأت لكم حماقتكم أنَّ القوة وحدها قد تكفي دون الدهاء، لكنِّي أقف أمامكم اليوم ومعي أقوى جيش عرفته هذه الدنيا لأنني أمتلك هذا قبل أي شيء.

وأشار بسبابته إلى عقله، ثُمَّ تابع:

- لأحصل على كل قوة زائرة تمتلكونها قبل أن تضيع هباءً وتخسرها چارتين.

بعدها أشار إلى فارس بجواره، فتحرك الفارس للصفوف الخلفية ثُمَّ عاد وخلفه العربة الحديدية المجرورة بالأحصنة، والتي تحمل قدر الحمض المُعلَّق فوقه على ارتفاع سبعة أمتار قفص آدم القابع عاريًا بجسده الهزيل في أرضيته، اندفعت الدماء إلى وجه غفران عندما رأته متكوِّرًا على نفسه تظهر نتوءات عظامه أسفل جلده من نحافته، بينما كان النسالى من حولها يحدّقون نحوه غير فاهمين ما يحدث، أما زهير فكان يقف في مقدمة صفوف الأشراف على حصانه بجوار أبيه دون أن يظهر أي انطباع على وجهيهما، فواصل كيوان:

- كان من حسن حظنا أنَّ لديكم قائدًا أحمق مثل هذا الفتى، شاء القدر أن يحمل روح أقوى قادة الزائرين ليحقق لنا ولحوران هدفًا انتظره حوران مئات السنين بعدما فشلت الباحة مرارًا وتكرارًا في منح الأشراف أرواحًا زائرة مثلما فعلتها مع العهد الدموي، والآن لم يعد له جدوى بعدما أتمَّ مهمته على أكمل وجه، حتى روحه ليست ذات جدوى.

ونظر إلى جانبه عاليًا، ووجَّه كلامه إلى آدم ساخرًا:

- لترني إذن كيف تحمي النسالى من مصيرهم المحتوم أيها الشامو الأول، لترني كيف تحمي غفران هذه المرة، لترني كيف تحمي باقي الزائرين من انضمامهم إلى رجالي.

وأشار إلى فارس خلفه، فخرج ومعه شاب نسلي خائف، تركه يمضي مع بعض الزائرين نحو حشد النسالى ليتجاوز إطار الجنود معهم، ثُمَّ بدأ يُشير في خوف نحو بعض الشبان دون غيرهم ليمسك بهم الزائرون ويخرجوهم عن الحشد، أدركت غفران أنهم أصحاب الأرواح الخامدة التي لم تستطع الثورة من جديد بعد معركة الروافد، وبعدما جُمعوا أمام الحشد بأغلالهم، بدأ الزائرون في دفعهم دون رحمة نحو الحفرة المليئة بالحمض على يسارهم، حتى أوقفوهم على حافتها متجاورين ووقف زائرٌ واحدٌ خلف كل شاب منهم، ثُمَّ دقت طبول الإعدام التي لطالما عُزفَت في باحة جويدا، فنظر النسالى المحتشدون جميعهم نحو الشبان في رعب، ثُمَّ انتهت الطبول من عزفها، فزأر الزائرون بقوة، ثُمَّ حملوا الشبان المُكبَّلين وألقوا بهم إلى سطح الحفرة الفائض بالحمض كأنهم يلقون صخورًا كبرى في الماء لتغوص أجسادهم في أعماقه قبل أن تهدأ زوبعة سطحه سريعًا وكأنَّ شيئًا لم يحدث، بعدها بلحظات صدر صوت الزئير تباعًا في أماكن مختلفة من صفوف جيش كيوان، ورأت غفران بعينيها جنديًا يتحول من هيئته البشرية إلى هيئته الضارية، فقال كيوان:

- سيحمي هذا الجيش چارتين إلى الأبد، أمَّا أنتم، فإلى ظلمات الجحيم بلا رجعة.

ثُمَّ أشار إلى الزائرين فحملوا جماعة أخرى من حشد النسالى لا يقل عددها عن خمسين رجلًا وامرأة ظلوا يصرخون وهم يحاولون التملُّص منهم بينما كانوا يتقدمون بهم إلى حفرة الحمض، إلى أن وقفوا على حافتها وألقوا بهم إليها لتسكت صرخاتهم، وقال وهو ينظر إلى غفران:

- أتمنى أن تروقكِ آخر مشاهد حياتكِ أيتها الخائنة، إنَّها ميتة تروقني كثيرًا عن ميتة بارود الأسلحة النارية والمدافع، يا له من شيء رائع أن تسمع صراخ خصومك.

وأشار من جديد إلى الزائرين فحملوا عددًا أكبر هذه المرة واقتادوهم إلى الحفرة كذلك ليفعلوا بهم ما فُعِل بسابقيهم، حاول النسالى المُحاصَرون بين صفوف الزائرين والجنود التملُّص من حصارهم، لكنَّ أغلالهم المُكبِّلة أياديهم وأرجلهم شلَّت حركتهم.

قال كيوان وهو ينظر إلى آدم:

- انظر أيها الفتى إلى قومك الذي حاربَت روحك على مَرِّ الزمان من أجلهم، إنَّهم في حاجة إليك.

كان آدم نائمًا منفصلًا عن الواقع الذي يحيطه تمامًا، فيما كان الزائرون يواصلون حمل النسالى ليلقوا بهم في جماعات إلى قاع حفرة الحمض المذيب إلى أن فقد النسالى المُحاصَرين ثلث عددهم في أقل من نصف ساعة، بينما حاول الباقون الابتعاد خوفًا عن الجهة التي يحمل منها الزائرون النسالى وتدافعوا بظهورهم متلاصقين تهتز أجسادهم رعبًا، أمَّا ريان وفاضل فوقفا في مكانيهما ثابتين وإن التمعت عيونهما بدموع الحزن مع صرخات النسالى المتتالية، بعدها سُمِع صوت زئير قادم من مدخل الجبال الصلدة، كان خمسة من الزائرين الأشراف يجرُّون قِلَّة من النسالى ويتقدمون إلى المنطقة الوسطى خلف فارسٍ على حصانه، أغمضت غفران عينيها في حزن حين وجدت المعتقلين من النسالى بعض النساء والأطفال بينهم سبيل وطفلها حيدر ومعهم بكير الذي كان يُجَرُّ بهيئته الزائرة مُكبَّل العنق والأطراف وتنتشر الجروح

الكبرى النازفة في جميع أرجاء جسده، كذلك حملت أجساد الزائرين الأشراف آثار مخالب واضحة فأدركت أنه لم يستسلم حتى آخر طاقة فيه، ثُمَّ تقدَّم الفارس الذي يقودهم إلى كيوان وقال:

– كانوا يحاولون الفرار سيدي، بينهم ذلك الزائر.

أشار إلى الزائرين دون أن ينطق كي يجرُّوا بكير مباشرةً إلى حفرة الحمض، أمَّا الآخرين فمضوا بهم إلى حشد النسالى المحاصر، وقبل أن ينضموا إليهم صاح بصوته إلى زائر منهم:

– توقف.

كان الزائر الذي يدفع سبيل وطفلها المُتعلِّق بثيابه البالية في ساقها، فتحرك فارس آخر على قدميه وجرَّ سبيل وطفلها إلى أمام الحشد خارج الإطار الدائري في الوقت الذي كان فيه صوت بكير الزائر قد تحوَّل إلى عواء مكتوم قبل أن يتلاشى تمامًا بعدما غاص جسده في الحمض، ثُمَّ قال كيوان ساخرًا:

– الطفل الشريف الذي لطالما بحثت عنه هو وأمه العاهرة.

لحظتها شعرت غفران أنَّ جسد آدم يتحرك بثقل شديد داخل قفصه ليواجه بعينيه المتثاقلتين حشد النسالى وكأنَّه أراد أن يرى حيدر.

تابع كيوان موجِّهًا حديثه إلى قادته هازئًا:

– لطالما خشيَ منه وادي حوران بعدما نجح الأنجاس في سرقة صخوره، ولكنَّ من حُسن طالعنا أنَّه امتلك أُمًّا بلهاء لم تعرف قيمة دماء طفلها.

ونظر في عين سبيل بحدَّة، وقال:

- بحثت عنكِ كثيرًا لكنِّي كنت على ثقة أنَّكِ لن تفعليها حتَّى وإن لم أستطع إيجادكِ، لا تُغيِّر المصائر الكُبرى بالجبناء أبدًا، وأنا منذ رأيتك في جويدا بعد مولدكِ لهذا الطفل وأنا أدرك كم الجبن الذي يُعشِّش في داخلك.

وأشار إلى زائر قريب من سبيل فحملها بين ذراعيه وهي تصرخ بينما كان حيدر يتشبث بثيابها باكيًا، فركله الزائر بقدمه بعيدًا عنه، تقدَّم زائر آخر لحمل حيدر إلى حفرة الحمض فأشار له كيوان بأن يتركه ونظر عاليًا نحو آدم الذي كانت عيناه تنظران نحوه في ضعف شديد، وقال:

- إلام تنظر أيها القائد؟ لا صخور لحوران هنا، كنت أود إذابتكما في قدر واحد لكنَّ وادي حوران، رغم كل ما حدث، سيغضب إن امتزجت دماء شريف بدماء نسلي نجس.

ونظر إلى قادته من جديد، وخاصةً أخاه وابنه زهير:

- تعلمون كم أنّ قلبي رحيم بالأشراف.

ثم استدار إلى الطفل حيدر الذي كان يواصل بكاءه، وقال في حدَّة شديدة:

- ولكن ليس كل الأشراف تشفع لهم رحمة القلوب، حان الوقت ليرتاح حوران للأبد.

وأخرج مسدسه وأطلق باروده متتاليًا نحو الطفل، حتَّى أفرغ ذخيرته بالكامل، فسقط صريعًا في موضعه تندفع من جسده الدماء لتُغرِق ثيابه والأرض من أسفله بينما كانت سبيل تصرخ عاليًا وتركل بقدميها الزائر الذي يتقدَّم بها وهي تنظر إلى طفلها الصريع، قبل أن يصل بها ذلك الزائر إلى حافة الحفرة ويقذف بها إليها لتحدِّق نحوه في ذهول وهي

تتهاوى بظهرها إلى سطح الحمض، لتغمض غفران عينيها الدامعتين مع سكوت صوت صراخها، قبل أن تفتحهما على الفور عندما شعرت باهتزازة عنيفة مفاجئة للأرض أسفل قدميها، لتنظر من جديد نحو جثة حيدر القابعة على الأرض غارقةً في دمائها فيما تتدلَّى على جانب رقبته القلادة الصغيرة التي لطالما أحاط حبلُها عنقَه منذ عاد مع أمه تكسوها الدماء، لتدق كلمات سبيل في رأسها حين دلفت إليها في كوخها بعد معرفتها بأمر الأشراف الزائرين:

- هناك شيء كان عليَّ أن أخبركِ به سيدتي، إنني لم أتخلص من رأس التمثال النسلي بالكامل، لقد صنعتُ من صخوره القلادة الصغيرة التي تُطوِّق عنق حيدر وتتدلَّى على صدره أسفل ثيابه.

بعدها سمعَت غفران زئيرًا قويًا للغاية ينبعث من القفص المُعلَّق فوق العربة الحديدية لتجد آدم قد استحال إلى هيئة زائرة بجسد قوي ضخم لم ترَ زائرًا يتمتع به من قبل وبدأ يضرب قضبان القفص بقبضته بقوة، وفي لحظة وجدت الزائرين المحيطين بهم قد برزت عضلاتهم بصورة أكبر وزاد انتفاخ عروقهم قبل أن يستديروا جميعًا بحركة واحدة مفاجئة ليواجهوا جنود وفرسان الأشراف وبدأوا يزمجرون نحوهم في غضب، فيما توقف من يحملون النسالى إلى حفرة الحمض المذيب وأنزلوهم إلى الأرض في رفق ليتعالى زئيرهم عاليًا تباعًا وهم ينظرون إلى آدم قبل أن يركضوا تجاهه بسرعتهم القصوى، فصرخ كيوان في جنوده وهو يركض عائدًا بحصانه إلى داخل صفوف الفرسان:

- أسقِطوا القفص في القدر واضربوا المدافع.

فبدأ جندي العربة يلف ذراع الرافعة الحديدي في حركة دائرية لتبدأ السلسلة الحديدية في الهبوط شيئًا فشيئًا بالقفص ناحية القدر،

فزأر آدم بقوة أكبر وبدأ يؤرجح القفص إلى الأمام وإلى الخلف، فيما ارتبك فرسان المدافع بعدما صار العراك مشتدًا أمامهم بين الأشراف البشريين والأشراف الزائرين، وقبل أن يفكّروا في جذب أحبال مدافعهم كانت جماعة أخرى من الزائرين قد انقضّت على أعناقهم، أمَّا غفران فكانت تُحدِّق في القفص الذي يتهاوى ببطء ناحية القدر وإلى آدم الذي كان يتشبث بمخالبه في السلسلة ذاتها التي يتعلق بها القفص، فيما تشبثت قدماه بأعلى قضبان جانبه بعدما بدأ قاع القفص ينغمس في القدر، وواصل أرجحته للقفص بقوة، شعرَت أنَّ الأوان قد فات والزائرون يحاولون الوصول إليه فيما يعرقل الفرسان المدرعون وصولهم إلى العربة بكل ما يملكونه من طاقة، إلى أنْ وجدَت القفص يتوقف عن الهبوط فجأة، لم تستطع رؤية ما يحدث بعدما كان عدد الفرسان والزائرين كبيرًا للغاية ليخفي ما يحدث خلفهم، ولم تدرِ أنَّ جنديًا شريفًا ضرب رأس الجندي الذي يُسقِط القفص بخوذته بقوة على حين غرَّة، كان أخوها زين الذي انضم إلى محاربي الأشراف مع من انضموا رغمًا عنهم بعد ثورة النسالى الزائرين، نظر لآدم في قفصه ورفع يده نحوه بعلامة النصر، لكنَّه سرعان ما سقط على الأرض صريعًا بعدما صوَّب فارس مترجِّل نيرانه نحو رأسه، وركض نحو ذراع الرافعة وبدأ يلفها بكل طاقته كي يواصل إسقاط القفص في الحمض، زأر آدم بقوة وهو ينظر إليه حين رأى وجهه، كان زهير، نظر زهير نحوه بوجه خالٍ من التعبيرات وهو يُسقِط القفص إلى أن نظر أمامه عندما وجد يدًا ذات مخلب تقبض على يده، نظر بعينه مرتعبًا في عين الزائر الذي غرس مخالبه في يده بقوة لتنساب الدماء منها، ونظر من جديد نحو آدم كأنَّه يستنجد به، زأر آدم بقوة كأنَّه يخاطب ذلك الزائر، فأطلق الزائر زئيره القوي قبل أن يغرس

مخالب يده الأخرى في أعلى عنق زهير، حاول أشراف آخرون تصويب نيرانهم نحو ذلك الزائر لكنَّه واصل زئيره نحوهم متحملًا بارودهم دون أن يحرك يده عن ذراع الرافعة، بعدها بدأ الزائرون يقفزون من فوق حائل الفرسان إلى العربة ليزأروا بقوة وهم يرفعون جانب القدر الثقيل ليميل منقلبًا على جانبه ناحية فرسان الأشراف ويتدفق حمضه نحوهم، فتبعثروا متباعدين لتحصدهم مخالب الزائرين الآخرين، ثم حرَّروا آدم من قفصه فزأر فيهم فاندفعوا إلى النسالى ليحرروا أغلالهم، وهبط سريعًا عن العربة واتجه إلى غفران وقطع أغلالها بنفسه قبل أن ينحني لها برأسه ويلتفت ناظرًا إلى راية كيوان التي كانت تتباعد نحو مؤخرة الصفوف وكأنَّه قرَّر تأجيل مشاعر لقائهما كي لا يُفلِت كيوان، فأحنَت غفران له رأسها هي الأخرى، بعدها زأر في الزائرين فركضوا إلى عربات ذخائر المدافع وحمل كل منهم قذيفة وركض بها إلى صفوف جنود الأشراف لتحدث تفجيرات عظيمة في الصفوف الوسطى والخلفية، مات فيها مَن مات وتشتَّت مَن استطاع النجاة، أمَّا الصفوف القريبة من النسالى فانقضَّ عليها الزائرون يقودهم آدم بهيئته الزائرة والنسالى الذين حملوا أسلحة الأشراف تقودهم غفران وريان وفاضل لتحصد طلقاتهم جنود الأشراف وفرسانهم المرتبكين، ثُمَّ رأى آدم الرايات تقترب من الجسر المنتصب على الأخدود المجاور للمنطقة الوسطى فزأر عاليًا في الزائرين بجواره فحمل بضعة منهم قذائف من ذخيرة مدفع قريب وركضوا بها عابرين الرافد الغربي الثاني من أقرب نقطة لهم قبل أن يكملوا ركضهم بأقصى سرعة لهم في منطقة التلال بين الرافدين نحو الرافد الغربي الأول ويهبطوا إلى قاعِه ويواصلوا ركضهم إلى الجسر الخشبي الذي شيَّده الأشراف ليضربوا بقذائفهم أرض الرافد

الصخرية من أسفله لتنفجر محطِّمةً ذلك الجسر، كذلك قام آخرون بتفجير الجسر الذي يعبر فوق الرافد الغربي الثاني.

كان كيوان وأخوه وباقي مساعديه في طريقهم إلى عبور الجسر الثاني قبل أن يحدث ذلك الانفجار العظيم من أمامهم فأصاب أحصنتهم الجنون ورفعت قوائمها خوفًا من التقدم، بعدها فوجئوا بزائرٍ يحمل قذيفة مدفعية ويركض نحوهم، صوَّب كيوان نيرانه نحو رأسه قبل أن يصل إليهم فانفجرت قذيفته لتطول عددًا آخرًا من الجنود دون أن يُصاب هو أو من معه بأذى، بعدها ركض بحصانه فوق جثثهم المتفحمة نحو منطقة التلال الجنوبية بين الرافدين مع استمرار ركض الزائرين بالقذائف في أرض الرافد الغربي الأول لعلَّه يجد مهربًا آمنًا، فتبعه أخوه والباقون.

أمَّا في المنطقة الوسطى، فكان النسالى يواصلون تصويب نيرانهم بضراوة شديدة نحو من يواصلون القتال من الأشراف عند سفوح الجبال الصلدة، ثُمَّ انقسموا بعد ذلك إلى جزئين؛ جزء استمر في قتال الأشراف، بينهم غفران وريان، وجزء آخر بينهم فاضل وقفوا مصوِّبين فُوَّهات أسلحتهم نحو أعداد كثيرة من الأشراف ركعوا مستسلمين واضعين أياديهم فوق رؤوسهم، بينما كان الزائرون يلاحقون بقذائفهم ومخالبهم الفرسان الذين يحاولون الفرار من جميع أطراف تلك المنطقة.

بحثَت غفران بعينيها عن كيوان بعدما بدأت الأعداد تتلاشى بشكل كبير أمامها، وهبطت إلى أرض الأخدود الغربي المجاور للمنطقة الوسطى وبدأت تتفحص الجثث المتفحِّمة من آثار انفجارات القذائف فأدركت أنَّه من المستحيل أن تعلم إن كان بينهم أم لا مع تشابه الوجوه المتفحِّمة

جميعها، ومع ذلك كان هناك يقين كبير في داخلها أنَّه لا يزال على قيد الحياة، رأت آدم يعبر التلال المُطلَّة على ذلك الأخدود فركضت ناحيته لتتبعه فيما كان الزائرون يواصلون عبور الرافد بجانبها للحاق بالفارِّين.

حين اقتربت من آدم وجدته يهبط على ركبته وينظر إلى أشلاء الجثث ثُمَّ استحال إلى هيئته البشرية وبدأ يتحرَّك من جثةٍ إلى أخرى متفحِّصًا لهم، فقالت:

– هل هو بينهم؟

فالتفت نحوها، وقال:

– لم يعبروا الرافد الأول.

ثُمَّ تنبَّهت إلى أنَّه لا يفحص الجثث بل يفحص آثار أقدام الأحصنة السوداء المنطبعة على الصخور من أثر ما تعلَّق بها من دهس الجثث المتفحِّمة، وتحرك متتبعًا لأثر معيَّن بين آثار الأحصنة الكثيرة ثُمَّ نظر نحو التلال الجنوبية وقال:

– لا بدَّ أنَّ أخاه يرافقه، لقد سلكوا هذا الاتجاه.

فسألَته متعجبة:

– كيف عرفت؟!

قال وهو ينهض:

– كنت أنا من يصنع حدوات أحصنة هذه العائلة.

ثُمَّ نزع درعًا كبيرًا من جثة أحد المتفحِّمين، وارتداه سريعًا ثُمَّ استحال إلى هيئته الزائرة وبدأ يركض نحو التلال، فتبَّعتْه جماعة أخرى من الزائرين ليتجاوز التلال واحدًا وراء الآخر وهو يبحث بعينه عن كل

مكان فيها بعدما اختفت آثار أقدام الخيول، إلى أن لمح أخيرًا خوذة أحدهم تلمع فجأة مع انعكاس ضوء الشمس عليها، فهبط من التل الذي كان يعتليه وركض دائرًا حول تلال أخرى متجاورة بسرعة كبرى إلى أن وثب إلى الطريق الذي يركض فيه كيوان وأخوه وأربعة من الفرسان بأحصنتهم، حاول كيوان تصويب سلاحه نحو قلبه لكنَّ درعه تصدَّى لباروده، في الوقت الذي وثب فيه ثلاثة زائرين آخرين إلى الفرسان الأربعة وأسقطوهم، سقط والد زهير عن حصانه وصرخ فيه متوسِّلًا:

- إنني والد صديقك يا آدم، أرجوك!

لكنَّه فوجئ بكيوان يُصوِّب باروده نحوه وهو يركض بحصانه مبتعدًا، مدَّ يده نحو والد زهير فأغمض الرجل عينيه خائفًا، غير أنَّه فوجئ بآدم ينزع عن رأسه الخوذة التي صُنعت خصيصًا للقادة كي تحمي رؤوسهم ووجوههم من مخالب الزائرين، قبل أن يتركه للزائرين الآخرين ويركض إلى كيوان الذي كان يصرخ في حصانه كي يسرع وهو يلتفت بجذعه إلى الخلف ويُصوِّب نيرانه إلى آدم الذي كان يركض خلفه وفي يده خوذة والد زهير، إلى أن فوجئ كيوان بحصانه يتوقف فجأة ويشبّ على قائمتيه الأماميتين بعدما دوَّت بعيدًا قذيفة مفاجئة من تلك القذائف التي كانت تطلقها مدافع الجدار في الأماكن المجاورة لجبال النسالى لمنعهم من الهروب، ففقدَ سيطرته على حصانه وسقط إلى الأرض، حاول إطلاق النيران نحو آدم، لكنَّ آدم وضع الخوذة على رأسه بهدوء كبير لتغطي رأسه ووجهه عدا عينيه، وواصل التقدُّم نحوه مزمجرًا وكأنَّه لم يعد يعبأ بكون كيوان المُصوِّب الأفضل في چارتين، أطلق كيوان باروده نحو فخذه بعدما تساقط باقي باروده المُصوَّب نحو نصفه العلوي دون جدوى، لكنَّ آدم لم يتوقف عن المضي، صرخ فيه كيوان بأنَّ وادي حوران لن يتركه،

واصل الفتى التقدُّم نحوه، أطلق رصاصه نحوه من جديد، دوَّى صوت ارتطام طلقته النارية بالخوذة قبل أن تتطاير بعيدًا، فيما اخترقت رصاصة أخرى ساعده دون أنْ تؤثِّر عليه، بعدها نفدت ذخيرته، فصاح إلى آدم مضطربًا:

- أستطيع أن أتمِّم لكَ عهدًا جديدًا في جبل العهود، بدوني لن تستطيعوا نَيْل حقكم أبدًا.

لكنَّ آدم أمسك برقبته بمخالبه ثُمَّ نزع خوذته وألقاها بعيدًا، ثُمَّ جرَّه وهو ينازع أنفاسه من شدة إحكام آدم قبضته، مرَّ على والد زهير والفرسان الباقين فوجدهم صرعى تسيل الدماء من أعناقهم فيما يقف الزائرون في انتظاره أعلى التل الذي يجاور جثثهم، أطلقوا زئيرهم حين رأوه يجر كيوان الذي كان يركل الأرض بقدميه محاولًا التملُّص، عندما أراد زائر آخر أن يتولَّى الإمساك بكيوان بدلًا منه زأر فيه بقوة كأنَّه فريسته التي لا يريد لأحد أن يقاسمه فيها، إلى أن عبر به الرافد الثاني إلى المنطقة الوسطى حيث كانت النيران تشتعل في المدافع جميعها، فيما كانت غفران والبقية يقفون مع الزائرين ملتفين حول جنود الأشراف الذين جُرِّدوا من أسلحتهم ودروعهم وركعوا مستسلمين، نظروا جميعًا إلى آدم وهو يعبر تلال الرافد الثاني جارًّا كيوان ليواصل اقترابه به نحوهم، حتى وصل إلى القدر المعدني المُنقلب الذي كان يمتلئ بالحمض ويقبع أسفل قفصه لعشرة أيام، فزأر في اثنين من الزائرين فعدّلا من وضعه، ثُمَّ زأر في ثلاثة آخرين فركضوا إلى حافَّة المنطقة الوسطى الشمالية حيث كانت ثلاثة عربات تحمل الصهاريج لا تزال تقف دون أن يصيبها أذى، فقاموا بجرِّها إليه ليوقفوها بمؤخرتها على حافَّة القدر المعتدل، نظر ريان وفاضل إلى ما يفعله، كذلك تقدَّمت غفران بعض

الخطوات نحوه، ألقى بكيوان إلى القدر، فصرخ متوسلًا وهو ينظر إلى غفران:

- أستطيع أن أقيم لكم عهدًا يؤمِّن لكم حياتكم في چارتين، سيطيح بكم وادي حوران.

نظر آدم إلى غفران وهو يُمسك بالذراع الحديدي لصنبور الصهريج الكبير كأنَّه ينتظر قرارها، فهزَّت رأسها إيجابًا لآدم بأن يفعلها، فجذب ذراع الصنبور ليندفع الحمض نحو كيوان، فصرخ عاليًا، بعدها قام الزائران الآخران بفتح صنبوريّ العربتين الأخريين ليندفع حمضهما إلى القدر ليُطلق صرخة أخيرة عالية قبل أن يسكت فجأة، بينما وقفت غفران تنظر نحو الحمض وهو يتدفق من الصهاريج إليه ليتآكل جسده داخل درعه أمام عينيها، حتى غاصَ تمامًا في الحمض الذي ملأ القدر عن آخره، بعدها عاد آدم إلى هيئته البشرية وتقدَّم إليها، وقف على بُعد خطوة منها وعينه تمتلئ بدموعها، وقال:

- لم أكن أتذكر شيئًا حين أخمدت أرواح النسالى الزائرين.

وضعت يدها على فمه، قبل أن تحتضنه بقوة والدموع تتساقط من عينيها حتى بدأت تبكي بشدة، همس في أذنها وهي تحتضنه:

- لقد عاد نديم إلى ذاكرتي كي أثور من أجلكِ سيدتي، واستدعى أرواح الزائرين، كان يحبكِ كثيرًا.

زاد نشيجها وهي تقول:

- وأنا أيضًا لم أحب أحدًا في حياتي مثلما أحببته، لقد أخطأت خطأ عمري حين قتلته، ولطالما تمنيت أن أجد فرصة واحدة للاعتذار، أرجوك سامحني.

قال آدم كاذبًا بعدما شعر باهتزاز جسدها بقوة مع بكائها:

- إنَّه يقول لي أنَّه سامحكِ.

أبعدت رأسها عنه وسألته في ترقب:

- حقًا؟

نظر بعينه إلى ريان وفاضل اللذين كانا يقفان على بُعد خطوات منهما، فهزَّا رأسيهما إيجابًا كي يؤكد لها ذلك حتى وإن كان يكذب، فقال لها بجديَّة:

- حقًا سيدتي، ويشكركِ على ما فعلتِه مع النسالى.

ابتسمت والدموع تملأ عينيها، ونظرت إلى ريان وفاضل وهي تبكي، فتقدما إليها وقبَّل ريان رأسها ثُمَّ احتضنها فاضل، بعدها تقدَّما إلى آدم، فقال ريان:

- إنَّ أمك، ديما، كانت أختي الكبرى.

فاحتضنه آدم باسمًا، ثُمَّ نظر إلى فاضل في دهشة تمتزج بالبهجة وقال:

- إنَّني أتذكركَ سيدي، لم أتوقع أن تكون هنا.

ضحك فاضل واحتضنه، حينها زأر الزائرون فجأة بقوة جعلتهم يلتفتون نحوهم، فوجدوا دخانًا كثيفًا يتصاعد إلى السماء في أقصى الشمال، فأخرج آدم زفيره غاضبًا وقال:

- براكين حوران!

سألته غفران:

- أيَّ براكين؟!

قال وهو ينظر نحو الدخان البعيد:

- هذا ما كنت سأخبركم به، لم يكن كيوان فحسب عدونا، إنَّ عدونا الحقيقي يكمن هناك، في ذلك الوادي.

وبدأ يروي لهم سريعًا ما حملته إليه ذاكرته منذ قدَم حاملو روحه السابقون إلى ذهنه، مرورًا بالعهود التي أُقيمت على مَرِّ الزمان في وادي حوران، والشروط التي أُجبروا عليها من أجل إنقاذ النسالى من أمواج أكما، وكيف وجد الأمل الوحيد في المائتين الذين رحلوا ليصنعوا سفنًا خاصة يستطيعون بها ركوب أمواج أكما، وكيف كان الشرط الثاني مستحيلًا لعودة أولئك المائتين بعدما فشل حاملو روحه على مَرِّ الزمان في الانتقال إلى الشمال لإنجاب أطفالٍ يحملون دماءه تستطيع تلك الأرواح التائهة سكن أجسادها عندما تثور أرواح الزائرين من جديد، وقال حزينًا:

- يبدو أنَّ حوران لن ينتظر هذه المرة لنُعدِّل القواعد، وكأنَّ كيوان أقام عهدًا بثورة براكينه إن هُزِم هو وجيشه على أيدينا، لا أعلم إن كان انهيار الجدار سينتظر إلى يوم الغفران القادم كما فعل في الماضي مع القائد النسلي حامل روحي أم أنَّ الأمر سينتهي قبله.

نظروا إليه في صمت، إلى أن قالت غفران متمتمة:

- لذلك دمَّر كيوان الموانئ بمدافعه!

هزَّ آدم رأسه إيجابًا، فسأله ريان:

- في أي بلد تسكن هذه الأرواح الآن؟

قال:

– لا أعرف أي بلد تحديدًا، لكنَّها بلد شمال بحر أكما، ما زالت الأرواح هناك تهيم تائهة في جبالها تصدر أصواتًا كالطبول يسمعها البعض، تشبه طبول الأفراح.

عقد فاضل حاجبيه، وقال غير مصدق:

– أفراح لا تتوقف أبدًا؟!

اتسعت حدقتا عينيّ آدم، وقال:

– نعم، يظن من يسمعهم أنَّ أفراحهم لا تتوقف أبدًا.

قال فاضل وهو ينظر في عينه:

– جبال بني عيسى! لقد سمعتهم من قبل.

نظروا جميعًا إلى فاضل الذي نظر إلى الفراغ مفكرًا وتابع:

– إنّ كان ذلك صحيحًا، فهذا يعني أنَّ الشرط الثاني الذي وافق عليه القائد النسلي لعودة أولئك المائتين قد تحقَّق.

قال ريان متعجبًا:

– كيف؟!

قال فاضل بينما يحدّق فيه الجميع:

– كان الشرط أن يسكنوا أجساد أناس في تلك البلاد يجري في عروقك دماؤهم، أليس كذلك؟

قال آدم مترقبًا:

– بلى.

فقال فاضل:

- دماء أبيك وقومه، الغجر.

ثُمَّ أردف:

- لم أخبركَ وقتها حين عدت بكَ طفلًا إلى هنا، لكنَّهم قوم أبيك الذين أبعدتك عنهم، إنَّهم يسكنون هناك في وديان بني عيسى.

قال ريان متمتمًا إلى نفسه:

- نعم، هاجرت ديما مع غجري يسكن شمال بحر أكما.

نظر لهما آدم غير مصدق، كذلك غفران، وسأل آدم فاضل:

- هل أنتَ موقن بذلك؟

قال فاضل:

- نعم.

فسأله من جديد:

- كم تأخذ المسافة من أيام بين ذلك البلد وهنا؟

قال فاضل متذكرًا:

- عشرة أيام على اليابسة، وعشرون على الماء.

وأكمل:

- هذا إنْ كانت سفنهم الخاصَّة التي تحدثت عنها جاهزة للإبحار.

نظر له في صمت، وكذلك صمت الباقون، فقالت غفران:

- إنْ كانوا قد ثاروا مع أرواح النسالى الزائرين حين استدعاهم آدم للمرة الأولى، فهذا يعني أنَّهم ثاروا منذ ستين يومًا.

ونظرت إلى آدم وسألَتْه:

- كيف نعرف أنَّهم وصلوا يا آدم؟

قال:

- من المفترض أن يدقُّوا طبولهم الكُبرى شمال جدار چارتين عند وصولهم.

قالت:

- إذن، فوجودنا في الجنوب بعيدًا كل البعد عن سماع دقاتهم.

قال آدم:

- نعم، سأتحرك مع الزائرين إلى هناك من أجل السيطرة على بقية مدافع الجدار، ومن ثَمَّ تسلق الجدار للتيقُّن من وصول تلك السفن إنْ تناهت إلى مسامعنا دقات طبولهم.

وأردف وهو ينظر نحو الدخان:

- وقتها لن أنتظر وادي حوران كي يهدم الجدار، سأهدمه بنفسي عند مصب النهر الجاف قبل أنْ تتعاظم أمواج أكما وتجرف السفن بعيدًا عن مجراها، بعدها سأعود ومعي مدافع الجدار لنهدم الجدار بأكمله بعد ركوبنا جميعًا.

ثُمَّ أضاف وهو ينظر إليهم:

- ستبقون هنا، لن أكون في حاجة إليكم هناك، كما أنَّ هذه الجبال ستكون مرسى السفن عند وصولها.

أومأوا برؤوسهم إيجابًا، قبل أن تنطق غفران في تردد:

- الآن، قد مات كيوان وتفتَّت جيشه كاملًا ما بين قتلى وأسرى.

وتلعثم لسانها كأنَّها لا تعرف كيف تقول كلماتها، فنظر إليها فاضل وهو يعرف ما تفكر فيه، حتى نطقت:

- ربما يكون في الباقين خير إن أُزيلت القواعد.

نظر لها آدم وزَمَّ شفتيه، وقال:

- بعد كل ما حدث؟!

هزَّت رأسها إيجابًا باسمة، فقال وهو يشير نحو الجنود المحاصَرين بين النسالى والزائرين:

- ومن أُسِرَ من الجنود؟

قالت:

- لن نستطيع إطعامهم، وكذلك لسنا مجرمين لنذيبهم في الحمض، دعهم يعودون إلى جويدا وإلى مدن چارتين ليخبروا أهلها أنَّ وادي حوران لن يهدأ حتى يُغرِق بلادهم، وأنْ يأتوا إلى جبالنا عندما يسمعون دقات الطبول شمال الجدار إن أرادوا النجاة.

عضَّ على شفتيه مفكِّرًا وهو يتذكر نظرات الأشراف الشامتة وضحكاتهم والقائد النسلي يُعَذَّب بالسياط على المنصَّة أمامهم، ثُمَّ نظر إلى ريان وفاضل، فبَدَوَا وكأنهما موافقان على كلام غفران، فنظر إليها من جديد وقال:

- حسنًا، إن جاءت السفن إلى هنا سيصعدون إلى متنها معنا، لكن بشرط وحيد.



في الصباح التالي، كانت جماعات جنود الأشراف العُزَّل تغادر المنطقة الوسطى مع عدد من الخيول، فيما كانت تقف غفران مع ريان وفاضل تنظر إليهم من أعلى أحد الجبال الصلدة، بينما كان آدم بهيئته الزائرة يقود الزائرين على أحصنتهم بمحاذاة الجبال الحمراء منطلقين بسرعتهم القصوى إلى شمال چارتين، أمَّا نساء النسالى وأطفالهم فكانوا يقفون مُحدِّقين بوجوه حزينة شاردة نحو الحفرة الصخرية التي قَلَّ فيها منسوب الحمض قبل أن ينظروا جميعًا إلى دخان براكين حوران مع اهتزاز الأرض من أسفلهم ويعودوا إلى الجبال المقببة.

مع صباح اليوم الرابع عشر من رحيل آدم، نهضت غفران على صوت جلبة كبيرة في المنطقة الوسطى، ركبت حصانها وتبعها فاضل وريان وركضوا إليها ثُمَّ صعدوا أحد الجبال الصلدة المُطِلَّة عليها، كان الألوف من الأشراف يعبرون الأخاديد إليها رجالًا ونساءً وأطفالًا سائرين على أقدامهم أو راكبين عرباتهم أو خيولهم يرافقهم عدد كبير من الزائرين، نظرت غفران إلى فاضل غير مصدقة وهي تراهم يتقدمون بأعدادهم الغفيرة في المنطقة الوسطى ومعهم أغراضهم كلاجئين، وغمغمت:

- هل دُقَّت الطبول؟!

قال فاضل بحدقتين متسعتين:

- أعتقد ذلك.

أما ريان فقال بأسارير منفرجة وهو ينظر إليهم:

- انظروا، لقد التزموا بالشرط الذي اشترطه آدم.

فنظروا إلى الرجال والنساء الذين كانوا قد اقتربوا من جبالهم، فوجدوا الرجال قد خلعوا سُترهم وظهر وشم النسالى منقوشًا على جانب صدورهم الأيسر، كذلك نقشت النساء الوشم ذاته على أكتافهنَّ اليسرى العارية.

وهمس فاضل باسمًا:

- الآن لن نستطيع التفريق بين أهل چارتين.

بعدها حدثت اهتزازة كبرى تعاظم معها الدخان بعيدًا أكثر وأكثر، فقال ريان:

- سآمر جميع النسالى بأنْ يصعدوا إلى قمم الجبال المُطِلَّة على الروافد الأربعة.

فأومأ إيجابًا، ثُمَّ قالت غفران:

- وقُم بتوزيع هؤلاء كذلك.

فأومأ برأسه مُطيعًا، ثُمَّ هبط الجبل مسرعًا بحصانه إلى الجبال المقببة، بينما مكثت غفران تواصل نظرها إلى حشود الأشراف الذين يواصلون سيلهم ليملئوا المنطقة الوسطى أمامها يتقدمهم الزائرون، فقالت لفاضل:

- لم يعد آدم.

في الوقت ذاته، كان باقي الزائرين يركضون بمحاذاة الجدار يُثبِّتون قذائف المدافع لتلاصق قواعده الصخرية على امتداده فيما يزأر فيهم آدم بأن يسرعوا بينما يدوِّي صوت الطبول قادمًا من الجهة الأخرى من الجدار، ليركضوا حاملين ذخائر المدافع إلى أماكن أخرى لم تُثبَّت فيها

القذائف بعد، إلى أن وصل إلى أخدود النهر الجاف فهبط إلى أرضه مع الباقين ونظر إلى القذائف المُثبَّتة على جزء الجدار الذي يُغلق مصبَّه، بعدها نظر إلى الدخان الكثيف المُتصاعد من وادي حوران، ثُمَّ نظر ناحية الجنوب حيث كان يقف مدفعان متأهبان من مدافع الجدار على ضفَّتيّ أخدود النهر الجاف يمينًا ويسارًا على بُعد مائتي متر من الجدار، ثُمَّ ركض في الأخدود هو ومن معه نحوهما، ليزأر في الزائرين الواقفين خلف المدفعين، لتنطلق قذيفتهما نحو القذائف المُثبَّتة على الجدار المُغلق للنهر الجاف دون غيرها، لتتطاير صخور الجدار وكذلك أجسادهم رغمًا عنهم مع ذلك الانفجار العظيم، قبل أن تندفع مياه البحر عبر ذلك الجزء المنهار كفيضان كاسح عرف طريقه إلى أخدود النهر الجاف.

في منطقة الجبال الصلدة، كان الجميع يقفون فوق قمم الجبال المُطِلَّة على روافد النهر الأربعة عندما رأوا المياه تتدفَّق كفيضان عظيم إلى الأخاديد لتملأها، قبل أن يروا أشرعة السفن تظهر من بعيد بين الجبال المُطلَّة على النهر الجاف نفسه، نظرت غفران إلى غرب الرافد الأول على أمل أن تجد آدم قادمًا مع الباقين بعدما حدثت هزَّة عنيفة جدًا دامت لوقت أطول من مثيلاتها، لكن تلك المنطقة كانت خاوية تمامًا، قال فاضل وهو ينظر إلى حجم السفن وهي تتقدم نحو الروافد:

– لن تتسع الروافد عرضًا لأكثر من سفينة واحدة من ذلك الحجم، ليس من المعقول أن تنتظر السفن في النهر الجاف حتى تُحمَّل كل سفينة على حِدة بركَّابها.

وتابع وهو ينظر إلى السحب السوداء المتعاظمة بشكل غير مسبوق فوق وادي حوران:

- لا أعتقد أنَّ هناك متسعًا من الوقت لذلك.

إلَّا أنَّه وجد السفن تُنزل أشرعتها عند وصولها إلى نقطة التقاء الروافد مع النهر الجاف لتسقط مجاديفها الطويلة إلى الماء وتواصل تقدمها نحو الروافد في تتابع حتى صارت الروافد الأربعة على امتداد طولها محتشدةً في الوقت ذاته بالسفن المتتابعة يفصل بين كل سفينة وأخرى ما لا يزيد عن عشرة أمتار، إلى أن رست السفينة الأولى في كل رافد على الجبل الصلد الذي ينتظر فوقه المستعدون للرحيل، ورفع البحَّارة البشريون الذين كانوا يُجدِّفون مجاديفهم عن الماء، رأى ريان فوق كل سفينة زائرين يحملان سويًا مرساة كبيرة جدًا تُشبه المخلب قبل أن يلقياها إلى قاع الرافد لتظهر السلسلة الموصولة بها وهي تتدلَّى من السفينة، ثُمَّ رأى أحدهما يتسلق سريعًا صاريًا بأوسط السفينة ليُثبِّت طرف شبكة عريضة من الأحبال المغزولة بقائم أفقي بأعلاه قبل أن يُلقي الزائر الثاني بطرف الشبكة الآخر إلى السفينة التي تلي سفينتهم، حيث قام بحَّار فيها بشدِّه وتثبيته بأرضية سطحها، وهكذا فعلت كل السفن، لتصير السفن كلها موصولة بتلك الشباك العريضة المنحدرة، فيما تدلَّت سلالم عموديَّة من الأحبال من تلك الصواري، قال ريان لغفران وفاضل منبهرًا:

- لقد حسبوا كل شيء، سيركب الجميع عبر السفينة الأولى ثُمَّ يتنقَّلون إلى السفن التالية عبر التزحلق على تلك الشباك المائلة.

بعدها زأر الزائرون أعلى السفن، فبدأ الرجال والنساء والأطفال يهبطون سريعًا من الجبال الملاصقة لأول السفن إلى متونها، ومن ثَمَّ يصعدون السلالم العمودية على الصواري للانزلاق على الشباك المنحدرة إلى السفن التالية في سهولة ويُسر بينما كان يتزايد منسوب الماء من أسفل السفن بصورة سريعة حتى بدأ يغمر المنطقة الوسطى، قال ريان لغفران:

- هيا، سيدتي.

نظرت بعيدًا من جديد نحو غرب الرافد الأول وهزَّت رأسها إيجابًا ثُمَّ تقدَّمت وهبطت صخور الجبل ليتلقاها زائر ويحملها من خصرها إلى سطح السفينة الأولى، وتحركت بعدها عبر الشباك إلى السفينة الرابعة في الصف، بعدها تبعها فاضل، أما ريان فانتظر للتأكد من ركوب جميع الأفراد وتحميل الخيول والحبوب في السفينة الأولى، إلى أن انتهى الجميع من ركوب السفن عدا الزائرين المدرعين الذين جاءوا مع الأشراف فقفز إلى السفينة الأولى وتحرك إلى السفينة الرابعة حيث انضم لغفران وفاضل من جديد.

كان فاضل ينظر متعجبًا إلى البكرة الضخمة الملفوف حولها لفَّات كثيرة جدًا من السلسلة الحديدية الموصولة بالمرساة، وتساءل لريان في دهشة حين وقف بجواره:

- كم يبلغ طول هذه السلسلة؟

قال ريان بالدهشة ذاتها وهو ينظر إليها:

- لا أدري، وكأنَّهم صنعوا سلسلة بطول ميل.

عرف فاضل لماذا استعملوا سلاسل بهذا الطول عندما وجد زائرًا يلف ذراع البكرة ليُحرِّر لفَّات أكثر من السلسلة ازداد معها طولها المُلقى في الرافد مع ارتفاع منسوب المياه، لتتعالى السفينة شيئًا فشيئًا دون أن تنجرف بعيدًا مع وجود المرساة المُثبَّتة في قاع الرافد، بعدها تعالى الزئير بين الروافد، وتقدَّم أحد الزائرين المدرعين إلى غفران وانحنى لها برأسه كأنَّه يؤكِّد لها ركوب الجميع، ثُمَّ وجدت البحَّارة يبدأون في إزالة الشباك الواصلة بين السفن، فصرخت فيهم بأنَّ هناك أشخاصًا لم يأتوا بعد فتوقفوا عن إزالة الشباك، ونظرت في قلق كبير نحو غرب الرافد الذي تعالت فيه المياه لتجعل القدوم عبره مستحيلًا، لكنَّ أحد الزائرين هزَّ لها رأسه نافيًا كأنَّه يخبرها بأنَّ من تنتظرهم لن يأتوا أبدًا، حدَّقت فيه غير مصدقة، لكنَّ ريان نظر إلى الماء الذي صار حولهم في كل مكان، وقال في حزن كبير:

- فعلها الفتى وأمَّن وصول السفن إلينا كما وعدنا، لكنَّه أخفى علينا أنَّه لن يستطيع إحضار المدافع الثقيلة إلى الجنوب مع السرعة التي تُغرِق بها المياه الأرض هنا، إنَّه يعلم أنَّنا في حاجة إلى مزيد من المياه الآن لتساعدنا على الإبحار فوق هذه الجبال، وهذا لن يحدث إلَّا بهدم الجدار بأكمله، لا أعتقد أنَّه سينتظر حوران حتى يفعلها، سيهدم الجدار من موضعه هناك.

نظرت غفران نحو منسوب الماء المتزايد في منطقة الروافد إلى الحد الذي أخفى ثُلث ارتفاع الجبال وارتشفت دموعها، كأنَّها فكرت فيما فكَّر فيه ريان في داخلها قبل أن يقوله، ولم تُرِد تصديق أفكارها، بعدها وجدت الزائر الذي أشار لها نافيًا برأسه يجهّز قاعدة لإطلاق واحدة من الألعاب النارية التي لطالما اُستخدِمَت أيام الغفران، ونظر

إليها منتظرًا إشارتها. فطنت أنَّها إشارة مُتَّفق عليها بين الزائرين لتأكيد صعود الجميع إلى السفن، ونظرت إلى الأرض بعينين ملتمعتين بالدموع، ثُمَّ نظرت إلى المئات المحتشدين في السفن، بعدها نظرت إليه وهزَّت رأسها إيجابًا بأن يمضي فيما يفعله، فزأر في الباقين كي يُزيلوا الشباك المائلة بين السفن، ثُمَّ أشعل فتيل الألعاب النارية لتتعالى إلى السماء ناثرة نيرانها على ارتفاع شاهق جدًا، كذلك فعل زائرون آخرون في الروافد الأخرى وأطلقوا زئيرهم، سمعت غفران زئيرهم دون أن تدري ماذا سيحدث بعد ذلك، لم تكن تُدرك أنَّ الزئير قد تعالى وقتها في شمال غرب چارتين بعيدًا عن الفجوة المندفع عبرها الماء عندما أبصر زائر يقف فوق جدار چارتين تلك النيران المتناثرة وواصل إطلاق زئيره إلى آدم الذي كان يقف على الأرض بهيئته البشرية ينتظر بفارغ الصبر تلك الإشارة، فأومأ للزائر برأسه، ثُمَّ نظر شرقًا إلى الدخان العظيم المتصاعد أعلى وادي حوران، وقال:

– فلتذهب إلى الجحيم أنتَ وقواعدك.

قبل أن يستحيل إلى هيئته الزائرة ويُطلق زئيرًا كبيرًا ويركض بحصانه ومن خلفه الزائرون ليجذبوا أحبال المدافع المُتراصَّة أمام جدار چارتين على امتداد طوله والمُصوَّبة فوَّهاتها ناحية القذائف المُثبَّتة على قواعده، لتنطلق قذائفها تباعًا مُحطِّمة صخور الجدار، وتندفع الأمواج الشاهقة عبر حطامها نحو چارتين مُغرقةً كل شيء في طريقها.

كان منسوب المياه من أسفل السفن يتعالى أكثر وأكثر، فأدركت غفران ومن معها بأنَّ اللحظة الحاسمة قد اقتربت للغاية، ونادى ريان في الجميع

بأنْ يتشبَّثوا في الحلقات المعدنية الصغيرة المُثبَّتة في سطح السفينة من أسفلهم، فتشبَّثوا بها جميعًا، ووقف هو وفاضل وغفران ينظرون إلى الجزء الظاهر من الجبال المُطِلَّة على النهر الجاف في ترقُّب كبير.

في الوقت ذاته، كانت أجزاء الجدار لا تزال تُفجَّر تباعًا على امتداده لتتهاوى أمام المزيد من مياه أكما الكاسحة، بينما كان آدم ومن معه يواصلون الركض بأحصنتهم غربًا بأقصى سرعتهم مُطلقين المزيد من قذائف المدافع المتناثرة على مسافات متساوية أمام الجدار قبل أن تطولهم المياه الهائلة، لتجرفهم في طريقها بأحصنتهم ومعهم مدافع الجدار، تهاوى آدم أسفل المياه لكنَّه ما لبث أنْ ضرب بأيديه وأرجله بقوة محاولاً مقاومة الغرق حتى صعد إلى سطحها من جديد لينجرف رغمًا عنه مع تيار المياه الشديد، نظر بجواره، كان الماء يغطي كل شيء، ثُمَّ نظر بعيدًا نحو أجزاء الجدار البعيدة التي بدأت تتهاوى هي الأخرى تباعًا أمام الماء الجارف وإن لم تفجرها القذائف، ثُمَّ ابتسم وهو يرى موجةً عظيمة يصل ارتفاعها مثل الجبال تتعالى أمامه، قبل أن تندفع ناحيته.

أمسكت غفران بيد ريان وقبضت عليها حين وجدت أمواج أكما التي يتجاوز ارتفاعها ارتفاع الجبال تظهر في الأفق خلف الجبال البعيدة، وصاحت في الجميع بأنْ يتشبَّثوا جيدًا، بينما حمل الزائر الذي جاء مع السفينة مطرقة كبرى وضرب بها بقوة ذراع البكرة المُلتف حولها باقي لفَّات السلسلة الموصولة بالمرساة المغمورة في المياه، فدارت البكرة في سرعة كبرى حول محورها مُحرِّرة مزيدًا من أمتار السلسلة نحو المياه، لتتعالى السفن أكثر وأكثر مع المياه العظيمة من أسفلها إلى أنْ داهمتهم الأمواج الشاهقة من كل جانب كالأسود المُنقضَّة على فرائسها، وقبل أن ينطق أحد بشيء آخر كان الموج قد غمر السفن جميعها ليغطيها جميعًا

فيما كانت أجسادهم تطفو وهم يتشبَّثون بالحلقات المعدنيَّة، بينما كانت بكرات السلاسل المتصلة بالمرساة تواصل لفَّاتها السريعة مُحرِّرة المزيد منها، قبل أن يقل منسوب الماء مرة أخرى عندما ابتلعت الجبال المُجوَّفة تلك الأمواج الهائلة، لتتعالى بهم السفن إلى سطح الماء من جديد وتبدأ المياه الزائدة في التدفُّق سريعًا إلى جانبيِّ السفينة عبر فتحات تصريف تواجدت فيها، نظرت غفران إلى من معها غير مصدقة بأنَّهم قد نجوا من تلك الامواج، ثُمَّ نظرت إلى الجبال من حولها، كانت المياه تغمر كل شيء على امتداد بصرها، اختفت جبال النهر الجاف أسفل المياه واختفت منطقة الروافد بجبالها وتلالها، لم يعد يظهر إلا جزء صغير للغاية من قمم الجبال الصلدة كأنَّها جُزُر صغرى، نظرَت إلى الجوانب الأخرى من السفينة، لم يكن هناك سوى بحر كبير يطفون بسفنهم في منتصفه، نظرت إلى وادي حوران بعيدًا فوجدت الدخان الكثيف المُتصاعد فوقه قد بدأ في التلاشي، بعدها وجدت الزائرين الذين يرافقونهم على سطح السفينة قد عادوا جميعًا إلى هيئتهم البشرية، ونظروا إلى بعضهم وإلى الراكبين في استغراب شديد وكأنَّهم لا يعرفون ماذا جاء بهم إلى هنا، لم تعرف إنْ كان ذلك قد حدث بعد انهيار قواعد الجدار وغرق وادي حوران أم أنَّ أرواحهم الزائرة قد عرفت طريقها إلى الراحة الأبدية أخيرًا بعد انتهاء مهمتها بإنقاذهم، بعدها أفلت أحد البحَّارين القضيب الحديدي الذي يُثبِّت طرف السلسلة في البكرة الضخمة لتسقط السلسلة في الماء بعيدًا عن السفينة، قبل أن تنتفخ أشرعة السفن من جديد لتبدأ الإبحار نحو الشمال.

ختام

بعد عشرين يومًا:

كانت الشمس ساطعة، والأمواج تتلاطم في رفق على جسد السفن التي تواصل تحركها في صفوف متوازية نحو الشمال عندما صاح فتى يجلس فوق قمة صاري السفينة التي يركب فيها فاضل وغفران وريان:

- شاااطئ بني عيسى!

نهض جميع الركاب من جلوسهم لينظروا بعيدًا نحو قمم الجبال التي بدأت تلوح بعيدًا في الأفق بأسارير منفرجة، تتقدمهم غفران التي تحركت سريعًا إلى مقدمة السفينة لتقف بجوار فاضل، فربَّت على يدها وقال:

- لقد فعلناها يا غفران.

هزَّت رأسها باسمة، وقالت:

- لقد فعلناها، أيها الطبيب.

على شاطئ بني عيسى، كانت السفن تنتهي من إنزال الراكبين، بينما وقف فاضل يستمع إلى أحد البحَّارة الذي أشار له نحو جبال قريبة وقال أنَّ الغجر اقتادوهم إليها بعدما استحالوا إلى تلك الهيئة الغريبة ليُجمِّعوا

أجزاء السفن المُخزنة في كهوفها المُغلقة قبل أن يُجبروهم على الإبحار جنوبًا، فيما كان ريان يواصل مروره بين الرجال والنساء والأطفال يطمئنهم جميعًا، أمَّا غفران فوقفت على الشاطئ تنظر بعيدًا نحو بحر أكما ومائه الذي ليس له نهاية، حتى اقترب منها فاضل وريان، فقالت وهي تنظر إلى البحر:

- فليخبرني أحدكما أنَّني لست عالقة في واحدة من خيالات عقلي.

ضحكا، ثُمَّ قال ريان:

- لا يستطيع عقلٌ أبدًا تخيُّل ما حدث سيدتي، وإن كان عقل أقوى امرأة رأيتها في حياتي.

فابتسمت، ثُمَّ قالت بعدما لامست مياه البحر قدميها:

- أيها الطبيب، إنَّكَ أكثرنا معرفة بهذا البلد وأهله، فلتقدنا في أسرع وقت بعيدًا عن هذا البحر الذي لا أريد أن أراه من جديد، بعدها أريدكَ أن تتفرَّغ لي تمامًا، فلديّ من التشوهات النفسية ما يحتاج عقودًا لعلاجها.

ضحك فاضل وقال:

- يا له من شرفٍ عظيم، سأكون سعيدًا حقًا بذلك.



بعد أربعة شهور:

كان العشرات رجالًا ونساءً يقفون أمام بيتٍ طوبيٍّ ينظرون نحو بابه في ترقُّب كبير بينهم ريان وغفران، قبل أن يخرج إليهم الطبيب فاضل من ذلك الباب ومعه امرأة بطنها كبيرة بعض الشيء كان الخجل يكسو وجهها، ويقول لهم في سعادة كُبرى:

- إنَّ قلب الجنين ينبض.

ليصيح الجميع في فرحةٍ كانت الأعظم في حياتهم على الإطلاق.



شكر وتقدير

أود أن أقدّم جزيل الشكر والتقدير لهؤلاء الذين ساعدوني على مدار ثلاث سنوات كاملة كُتبت خلالها ثلاثية قواعد جارتين؛

إلى المدقّق اللغوي عمر محمد (چوبا) والأستاذة سمر محمد والمبدع دومًا كريم آدم الذين عملوا بكل طاقتهم لإخراج الروايات الثلاث في أبهى صورها.

إلى يمنى محمود ود/ تيسير أشرف والمهندس أحمد زردق الذين حملوا عني بكل مودة عبء نقل الكلمات من مئات الأوراق إلى الحاسوب.

كما أعبّر عن امتناني الكبير إلى كافة فريق دار عصير الكتب للنشر والتوزيع لما قدّموه لي من دعمٍ تعجز الكلمات عن وصفه.

ودائما وأبدًا إلى رانيا خالد.

عمرو عبد الحميد